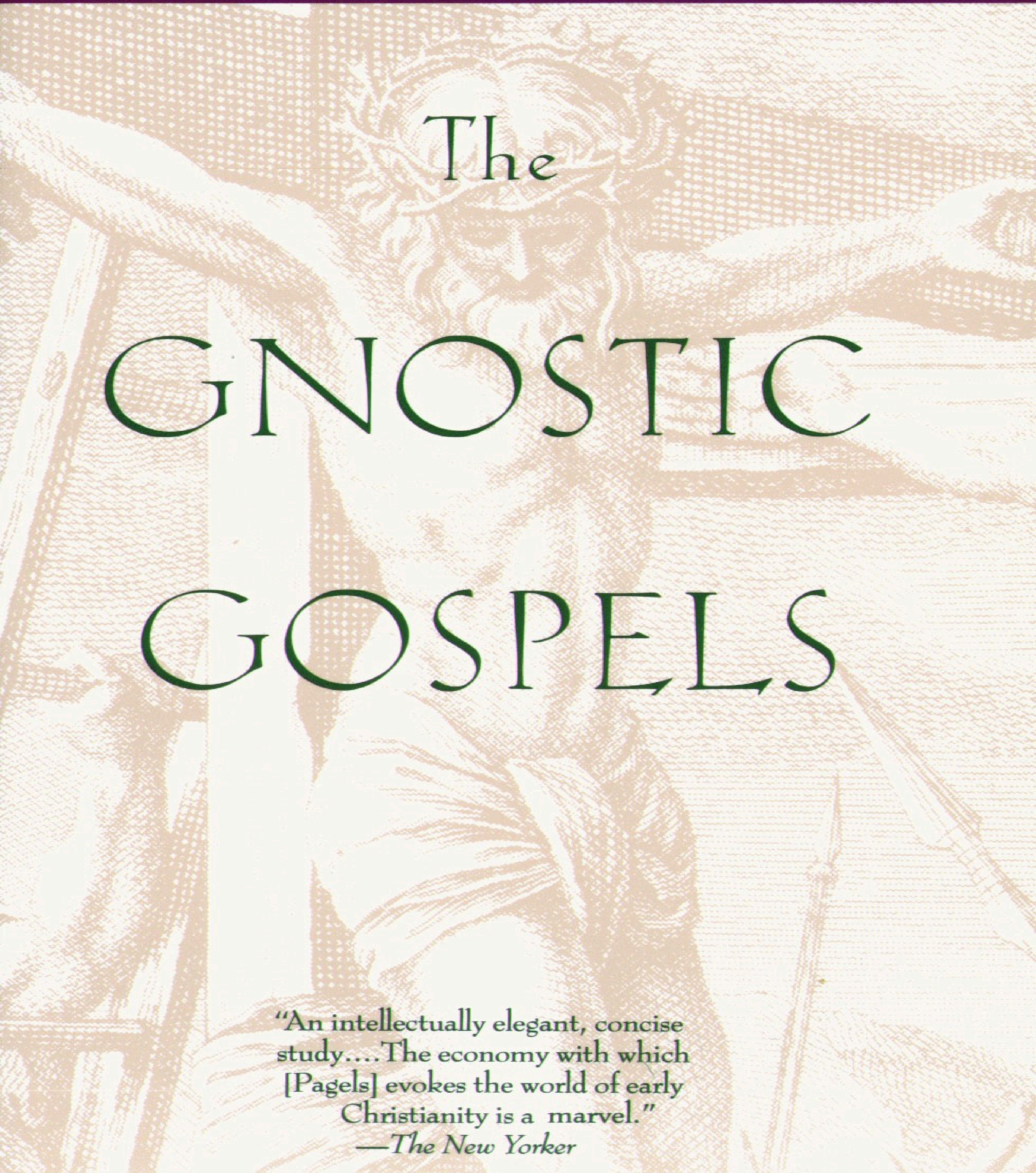
ELAINE PAGELS

The GNOSTIC GOSPELS



"An intellectually elegant, concise study.... The economy with which [Pagels] evokes the world of early Christianity is a marvel."
—*The New Yorker*

THE GNOSTIC GOSPELS

أيضا بقلم إلين باجلز

إنجيل يوحنا في التفسير الغنوصي بولس الغنوصي: التفسير الغنوصي

من رسائل بولس: آدم وحواء والثعبان

THE

GNOSTIC GOSPELS

BOOKS VINTAGE

.HoosE, INC A DIVISION OF RANDOV

New York

VIMTAGEBOO 3 SEDITIOM، 1 سبتمبر 2018

فهرسة بيانات النشر في مكتبة الكونغرس، إلين H 1943 -

الأناجيل الغنوصية.

نشرت في الأصل في عام 1979 من قبل Random House، New York.

يتضمن الكتاب مراجع ببليوغرافية وفهرس.

1. الغنوصية. 2. مخطوطات تشينوبوسكيون.

I. العنوان.

BT1330.P3 1381 273’.1 80-12341

ISBM 0 - G73 -724S3 -2 (pbk.)

طبع في الولايات المتحدة الأمريكية

يتم الإقرار بالامتنان لما يلي للحصول على إذن لإعادة طباعة المواد المنشورة مسبقًا:

شعبة التعليم المسيحي للمجلس الوطني لكنائس المسيح في الولايات المتحدة الأمريكية: مقتطفات من العهد الجديد. اقتباسات الكتاب المقدس في هذا المنشور هي من النسخة القياسية المنقحة من الكتاب المقدس، حقوق الطبع والنشر 1952، 1946، © 1971، 1973 من قبل شعبة التعليم المسيحي للمجلس الوطني لكنائس المسيح في الولايات المتحدة الأمريكية، وتستخدم بإذن.

WM B. Eerdman's Publishing Co.: مقتطفات من Tertullian و Iranaeus و Hippolytus. أعيد طبعها من الآباء قبل نيقية بإذن من WM. B. Eerdman's Publishing Co.، Grand Rapids، Michigan.

Harper & Row, Publishers, Inc.: مقتطفات من مكتبة نج حمادي بقلم جيمس م. روبنسون. حقوق النشر © 1977 by E. J. Brill, Leiden, The Metherlands. أعيد طبعها بإذن من EJ Brill و Harper & Row، Publishers، Inc.

مطبعة جامعة هارفارد: مقتطفات من كليمنت وإغناطيوس، في الآباء الرسوليين، 1912، مكتبة لوب الكلاسيكية، ترجمتها بحيرة 3irsopp. أعيد طبعها بإذن من مطبعة جامعة هارفارد.

The Westminster Press و Lutterworth Press: مقتطفات من *New Testament*Apocrypha، المجلد الأول، حرره Wilhelm Schneemelcher و Edgar Hennecke. تم تحرير الترجمة الإنجليزية بواسطة R. McL. Wilson. نشرت في الولايات المتحدة الأمريكية من قبل مطبعة وستمنستر، 13G3. حقوق الطبع والنشر © 13S3 JCB Mohr (Paul Siebeck)، Tübingen. الترجمة الإنجليزية © 13G3 Lutterworth Press. مقتطفات من *New Testament Apocrypha*، المجلد الثاني، حرره Wilhelm Schneemelcher و Edgar Hennecke. تم تحرير الترجمة الإنجليزية بواسطة R. McL. Wilson. نشرت في الولايات المتحدة الأمريكية من قبل مطبعة وستمنستر، 13G3. Copyright © 13G4 J. C. B. Mohr (Paul Siebeck), Tübingen. English translation © 13GS Lutterworth Press. مستخدمة بإذن.

مطبعة جامعة أكسفورد: مقتطفات من أعمال الشهداء المسيحيين، ترجمها هربرت موسوريلو. حقوق الطبع والنشر © مطبعة جامعة أكسفورد 1372. أعيد طبعها بإذن من مطبعة جامعة أكسفورد.

إلى إليزابيث ديغز وشارون أولدز في صداقة
محبة

شكرٌ وتقدير

بدأت كتابة هذا الكتاب منذ عدة سنوات بالبحث في العلاقة بين السياسة والدين في أصول المسيحية.
تم نشر الفصول الأربعة الأولى في شكل أكثر تقنية في المجلات العلمية (مراجع محددة تسبق حواشي كل فصل).

عند إعداد هذا المجلد، اخترت عمومًا متابعة الترجمات المقدمة في مكتبة نجع حمادي، التي حررها جيمس م. روبنسون، لأنها متاحة بسهولة لجميع القراء. ومع ذلك، في بعض الحالات، قمت بتغيير الترجمة من أجل الوضوح أو الاتساق أو التفسير (على سبيل المثال، قمت بترجمة الترجمة القبطية للمصطلح اليوناني τελειώσις ليس كـ "الكمال"، ولكن كـ "الوفاء"، والذي يبدو لي أكثر دقة ؛ في حالات أخرى، حيث يبدو أن المصطلح القبطي يترجم اليونانية ἄνθρωπος، πρωμε، قمت بترجمتها ليس كـ "رجل" ولكن كـ "إنسانية "). في حالة نصين، استخدمت ترجمات مختلفة (انظر أدناه).

أنا ممتن بشكل خاص لأولئك الزملاء والأصدقاء الذين قرأوا وانتقدوا المخطوطة بأكملها: بيتر بيرغر، جون غاغر، دينيس غروه، هوارد لي، جورج ماكراي، واين ميكس ومورتون سميث. للحصول على نصائح وانتقادات أخرى، وتحديدًا لجوانب المقدمة، أدين بالامتنان لمارلين هاران، ومارفن ماير، وبيرجر بيرسون،
جيل!

كويسبل، ريتشارد أوغست وجيمس إم روبنسون. أنا ممتن أيضًا لبنتلي لايتون للحصول على إذن لاستخدام ترجمته لأطروحة القيامة، ولجيمس براشلر للحصول على إذن لاستخدام ترجمته لنهاية العالم لبطرس.

نشكر بشكل خاص مؤسسة روكفلر ومؤسسة ليتا أ. هازن ومؤسسة غوغنهايم على دعمهم، مما منحني الوقت لتخصيصه للكتابة ؛ وللرئيس جاكلين ماتفيلد ونائب الرئيس تشارلز أولتون للموافقة على إجازة لمدة عام من مسؤولياتي في كلية بارنارد. أود بشكل خاص أن أشكر ليديا برونتي وليتا أ. هازن على تشجيعهما طوال المشروع بأكمله.

كان من المستحيل إنتاج النسخة الحالية من الكتاب دون التحرير الرائع لجيسون إبشتاين، نائب الرئيس ومدير التحرير في راندوم هاوس ؛ النصيحة الممتازة لجون بروكمان ؛ والعمل الضميري لكوني بوديليس في الكتابة وباربرا ويلسون في التحرير.

أخيرًا، أود أن أشكر زوجي على تشجيعه المحب في عملية هذا العمل.

المحتويات

المقدمة

في ديسمبر 1945، قام فلاح عربي باكتشاف أثري مذهل في صعيد مصر. حجبت الشائعات ظروف هذا الاكتشاف - ربما لأن الاكتشاف كان عرضيًا، وبيعه في السوق السوداء غير قانوني. ولسنوات عديدة ظلت هوية مكتشف الكنز مجهولة. وقد سرت شائعة مفادها أنه كان منتقماً للدماء، في حين سرت شائعة أخرى مفادها أنه عثر على هذا الكنز بالقرب من بلدة نجع حمادي في جبل الطريف، وهو جبل مليء بأكثر من مائة كهف. كانت هذه الكهوف في الأصل طبيعية، وقد تم قطع بعض هذه الكهوف ورسمها واستخدامها كمقابر منذ وقت مبكر من الأسرة السادسة، منذ حوالي 4300 عام.

وبعد ثلاثين عاماً، روى المكتشف نفسه، محمد علي السمان، ما حدث.[1] فقبل وقت قصير من انتقامه هو وإخوته لمقتل والدهم في ثأر دموي، سرجوا جمالهم وخرجوا إلى الجبل لحفر السباخ، وهي تربة ناعمة كانوا يستخدمونها لتخصيب محاصيلهم. أثناء الحفر حول صخرة ضخمة، عثروا على جرة فخارية حمراء اللون، يبلغ ارتفاعها متراً تقريباً. تردد محمد علي في كسر الجرة، خشية أن يكون فيها جن أو روح تعيش في الداخل. ولكن عندما أدرك أن الجرة قد تحتوي أيضًا على ذهب، رفع معوله وحطمها، واكتشف بداخلها ثلاثة عشر كتابًا من ورق البردي، مجلدة بالجلد. وعاد محمد علي إلى منزله في القصر، ألقى الكتب

وأوراق البردي المتناثرة على القش المتراكم على الأرض بجوار الفرن. وتعترف أم محمد، أم أحمد، بأنها أحرقت الكثير من ورق البردي في الفرن مع القش الذي استخدمته لإشعال النار.

وبعد أسابيع قليلة، كما يروي محمد علي، انتقم هو وإخوته لمقتل والدهم بقتل أحمد إسماعيل. كانت أمهم قد حذرت أبناءها لإبقاء معاولهم حادة: وعندما علموا أن عدو والدهم قريب، انتهز الإخوة الفرصة، "فقطعوا أطرافه... وانتزعوا قلبه، والتهموه بينهم، كعمل أخير للانتقام من سفك الدماء". [2]

وخشية أن تقوم الشرطة التي تحقق في جريمة القتل بتفتيش منزله والعثور على الكتب، طلب محمد علي من الكاهن القموس باسيليوس عبد المسيح أن يحتفظ له بكتاب أو أكثر. خلال فترة استجواب محمد علي وإخوته بتهمة القتل، رأى راغب، وهو مدرس تاريخ محلي، أحد الكتب، وشك في أنه ذو قيمة. وبعد أن حصل على نسخة من باسيليوس القموسي، أرسلها راغب إلى صديق له في القاهرة لمعرفة قيمتها.

وبعد بيعها في السوق السوداء من خلال تجار الآثار في القاهرة، لفتت المخطوطات انتباه المسؤولين في الحكومة المصرية. ومن خلال ظروف درامية بالغة، كما سنرى، قاموا بشراء كتاب واحد وصادروا عشرة ونصف من الكتب الثلاثة عشر ذات الغلاف الجلدي، والتي تسمى المخطوطات، وأودعوها في المتحف القبطي في القاهرة. ولكن تم تهريب جزء كبير من المخطوطة الثالثة عشرة، التي تحتوي على خمسة نصوص غير عادية، خارج مصر وعرضت للبيع في أمريكا. وسرعان ما وصلت أنباء هذه المخطوطة إلى البروفيسور جيل كويسبيل، المؤرخ الديني المتميز في أوتريخت، في ميثرلاندز. أثار هذا الاكتشاف إعجاب كيسبيل، فحث مؤسسة يونغ في ألمانيا على شراء المخطوطة. ولكن عندما نجح في ذلك اكتشف أن بعض الصفحات كانت مفقودة، فسافر إلى مصر في ربيع عام 1955 لمحاولة العثور عليها في المتحف القبطي. وعندما وصل إلى القاهرة، ذهب على الفور إلى المتحف القبطي، واستعار صورًا لبعض النصوص، ثم أسرع بالعودة إلى فندقه لفك رموزها. وبعد أن رسم السطر الأول، فوجئ كيسبيل،

ثم شعر بعدم التصديق، عندما قرأ: "هذه هي الكلمات السرية التي نطق بها يسوع الحي، والتي كتبها التوأم يهوذا توماس". [3]كان كيسبيل يعلم أن زميله هـ.-س. بوتش، مستعينًا بملاحظات من عالم فرنسي آخر، هو جان دوريس، قد حدد السطور الافتتاحية بأجزاء من إنجيل توما اليوناني الذي اكتُشف في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. لكن اكتشاف النص كاملًا أثار تساؤلات جديدة: هل كان ليسوع أخ توأم، كما يوحي هذا النص؟ هل يمكن أن يكون النص سجلاً أصيلاً لأقوال يسوع؟ بحسب عنوانه، كان يحتوي على إنجيل توما؛ ومع ذلك، وعلى عكس أناجيل العهد الجديد، فإن هذا النص حدد نفسه على أنه إنجيل سري. واكتشف كيسبيل أيضًا أن النص يحتوي على العديد من الأقوال المعروفة من العهد الجديد؛ ولكن هذه الأقوال، عندما وُضعت في سياقات غير مألوفة، أشارت إلى أبعاد أخرى للمعنى. ووجد كيسبيل أن مقاطع أخرى تختلف تمامًا عن أي تقليد مسيحي معروف: "يسوع الحي"، على سبيل المثال، يتحدث بأقوال غامضة ومقنعة مثل الزنكوان:

> قال يسوع: "إذا أخرجت ما في داخلك، فإن ما تخرجه هو الذي يخلصك". "إذا لم تُخرج ما بداخلك، فإن ما لا تُخرجه سوف يُدمرك." [4]

ما كان يحمله كيسبيل في يده، إنجيل توما، لم يكن سوى نص واحد من النصوص الخمسين التي تم اكتشافها في نجع حمادي (الترجمة الإنجليزية المعتادة لاسم المدينة). وقد ضمّ إنجيل فيليب في نفس المجلد معه، وهو ينسب إلى يسوع أفعالاً وأقوالاً مختلفة تماماً عن تلك الموجودة في العهد الجديد:

> ... رفيقة (المخلص) مريم المجدلية. [ولكن المسيح أحبها] [أكثر] من جميع التلاميذ، وكان يقبلها [كثيراً] على [فمها]. أما بقية [التلاميذ فقد استاءوا]... فقالوا له: "لماذا تحبها أكثر منا جميعا؟" فأجابهم المخلص وقال لهم: "لماذا لا أحبكم كما (أحبها)؟" [5]

وتنتقد أقوال أخرى في هذه المجموعة المعتقدات المسيحية الشائعة، مثل ولادة العذراء أو القيامة الجسدية، باعتبارها

سوء الفهم الساذج. يرتبط بهذه الأناجيل كتاب أبوكريفون (الذي يعني حرفيًا "الكتاب السري")، والذي يبدأ بعرض للكشف عن "الأسرار (والأشياء) المخفية في الصمت" التي علمها يسوع لتلميذه يوحنا. [6]

واعترف محمد علي في وقت لاحق بأن بعض النصوص قد ضاعت أو احترقت أو ألقيت بعيدًا. ولكن ما تبقى هو أمر مدهش: حوالي اثنين وخمسين نصًا من القرون الأولى للعصر المسيحي - بما في ذلك مجموعة من الأناجيل المسيحية المبكرة، والتي لم تكن معروفة من قبل. بالإضافة إلى إنجيل توما وإنجيل فيليب، شمل الاكتشاف إنجيل الحقيقة وإنجيل المصريين، الذي يُعرف بأنه "[الكتاب المقدس] [للروح][7] غير المرئي العظيم". [7] تتكون مجموعة أخرى من النصوص من كتابات منسوبة إلى أتباع يسوع، مثل كتاب يعقوب السري، ورؤيا بولس، ورسالة بطرس إلى فيليب، ورؤيا بطرس.

وسرعان ما أصبح واضحاً أن ما اكتشفه محمد علي في نجع حمادي كان ترجمات قبطية، أجريت منذ نحو 1500 عام، لمخطوطات أقدم. كانت النصوص الأصلية نفسها مكتوبة باللغة اليونانية، لغة العهد الجديد: وكما اعترف دوريس، وبوش، وكويسبي، فقد اكتشف علماء الآثار جزءًا من أحدها قبل حوالي خمسين عامًا، عندما عثروا على بعض أجزاء من النسخة اليونانية الأصلية لإنجيل توما.[8]

أما بالنسبة لتأريخ المخطوطات نفسها، فلا يوجد جدل كبير حول ذلك. فحص ورق البردي القابل للتأريخ المستخدم في تكثيف أغلفة الجلود، والخط القبطي، ووضعهما حوالي عام 350 م.
400[3] ولكن العلماء يختلفون بشدة حول تأريخ النصوص الأصلية. بعضها لا يمكن أن يكون أحدث من حوالي 120-150 م، حيث أن إيرينيئوس، أسقف ليون الأرثوذكسي، كتب حوالي عام 180، يعلن أن الزنادقة "يتفاخرون بأنهم يمتلكون أناجيل أكثر مما هو موجود بالفعل"،[10] ويشكو من أن مثل هذه الكتابات في عصره قد اكتسبت بالفعل انتشارًا واسعًا - من بلاد الغال إلى روما واليونان وآسيا الصغرى.

اقترح كيسبيل وزملاؤه، الذين نشروا إنجيل توما لأول مرة، تاريخًا يعود إلى حوالي عام 140 ميلاديًا للأصل.[11] ورأى البعض أنه بما أن هذه الأناجيل زندقة، فلا بد

وقد كُتبت هذه الأناجيل في وقت لاحق لأناجيل العهد الجديد، والتي يعود تاريخها إلى حوالي 60-110. لكن مؤخرًا، اقترح البروفيسور هيلموت أوستر من جامعة هارفارد أن مجموعة الأقوال في إنجيل توما، على الرغم من تجميعها حوالي عام 140، قد تتضمن بعض التقاليد الأقدم حتى من أناجيل العهد الجديد، "ربما في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن الأول" (50-100) - في وقت مبكر، أو قبل، إنجيل مرقس، وإنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا.[12]

وقد اكتشف الباحثون لمخطوطات نجع حمادي أن بعض النصوص تحكي أصل الجنس البشري بعبارات مختلفة تمامًا عن القراءة المعتادة لسفر التكوين: فـ شهادة الحق، على سبيل المثال، تحكي قصة جنة عدن من وجهة نظر الثعبان! هنا، يُقنع الثعبان، المعروف منذ زمن طويل بظهوره في الأدب الغنوصي كمبدأ للحكمة الإلهية، آدم وحواء بالمشاركة في المعرفة بينما يهددهما "الرب" بالموت، محاولًا بغيرة منعهما من بلوغ المعرفة، وطردهما من الجنة عندما يصلان إليها.[13] ويقدم نص آخر، بعنوان غامض "الرعد، العقل المثالي"، قصيدة غير عادية تُلقى بصوت قوة إلهية أنثوية:

لأنني الأولى والأخيرة.
أنا المكرمة والمحتقرة. أنا العاهرة والمقدسة.
أنا الزوجة والعذراء... أنا العاقر،
وكثيرون هم أبناؤها...
أنا الصمت الذي لا يمكن فهمه... أنا نطق اسمي. [14]

وتتراوح هذه النصوص المتنوعة، إذن، من الأناجيل السرية، والقصائد، والأوصاف شبه الفلسفية لأصل الكون، إلى الأساطير، والسحر، والتعليمات الخاصة بالممارسة الصوفية.

لماذا دُفنت هذه النصوص - ولماذا ظلت مجهولة تقريبًا لمدة تقرب من 2000 عام؟ ويبدو أن قمعها

باعتبارها وثائق محظورة، ودفنها على جرف نجع حمادي، كانا جزءًا من صراع حاسم في تشكيل المسيحية المبكرة. إن نصوص نجع حمادي، وغيرها من النصوص المشابهة لها، والتي انتشرت في بداية العصر المسيحي، تعرضت للتنديد من قبل المسيحيين الأرثوذكس في منتصف القرن الثاني الميلادي باعتبارها زندقة. لقد علمنا منذ زمن طويل أن العديد من أتباع المسيح الأوائل قد أدانهم مسيحيون آخرون باعتبارهم زنادقة، ولكن كل ما عرفناه عنهم تقريبًا جاء مما كتبه معارضوهم مهاجمين إياهم. كتب الأسقف إيرينيئوس، الذي أشرف على الكنيسة في ليون، حوالي عام 180، خمسة مجلدات بعنوان "تدمير وإسقاط المعرفة المزعومة الزائفة"، والتي تبدأ بوعده

> بعرض آراء أولئك الذين يعلمون الزندقة الآن... لإظهار مدى عبثية تصريحاتهم وتناقضها مع الحقيقة..." أفعل هذا حتى... تحثّ كل من ترتبط بهم على تجنب هذا الجنون والتجديف على المسيح. [15]

يندد إيرينيئوس بإنجيل مشهور يُدعى إنجيل الحقيقة، باعتباره مليئًا بالتجديف.[16] هل يشير إيرينيئوس إلى نفس إنجيل الحقيقة الذي تم اكتشافه في نجع حمادي؟ لقد زعم كيسبيل وزملاؤه، الذين نشروا إنجيل الحقيقة لأول مرة، أنه كذلك؛ ويؤكد أحد منتقديهم أن السطر الافتتاحي (الذي يبدأ بعبارة "إنجيل الحقيقة") ليس عنوانًا.[17] ولكن إيرينيئوس يستخدم نفس المصدر الذي استخدمه على الأقل أحد النصوص المكتشفة في نجع حمادي - وهو الأبوكريفون (الكتاب السري) ليوحنا - كذخيرة لهجومه على مثل هذه "الزندقة". بعد خمسين عامًا، كتب هيبوليتوس، وهو معلم في روما، تفنيدًا شاملًا لجميع البدع من أجل "كشف ودحض التجديف الشرير للزندقة". [18]

إن هذه الحملة ضد الزندقة تضمنت اعترافاً لا إرادي بقوتها الإقناعية؛ ومع ذلك فقد انتصر الأساقفة. بحلول وقت تحول الإمبراطور قسطنطين، عندما أصبحت المسيحية ديانة معتمدة رسميًا في القرن الرابع، أصبح الأساقفة المسيحيون، الذين كانوا ضحايا للشرطة في السابق، هم من يأمرونهم الآن. تم تجريم حيازة الكتب التي تم التنديد بها باعتبارها زندقة

باعتبارها جريمة جنائية. وقد تم حرق وتدمير نسخ من هذه الكتب. ولكن في صعيد مصر، قام شخص ما، ربما كان راهبًا من دير القديس باخوميوس القريب،[19] بأخذ الكتب المحظورة وأخفاها من التدمير - في الجرة حيث ظلت مدفونة لمدة تقرب من 1000 عام.

ولكن أولئك الذين كتبوا ونشروا هذه النصوص لم يعتبروا أنفسهم "زنادقة". تستخدم أغلب الكتابات المصطلحات المسيحية، التي ترتبط بشكل واضح بالتراث اليهودي. يزعم كثيرون أنهم يقدمون تقاليد عن يسوع سرية، مخفية عن "الكثيرين" الذين يشكلون ما أصبح يسمى في القرن الثاني "الكنيسة الكاثوليكية". يُطلق على هؤلاء المسيحيين الآن اسم الغنوصيين، وهي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية "نوسيس"، والتي تُترجم عادةً إلى "المعرفة". فكما أن أولئك الذين يدعون أنهم لا يعرفون شيئًا عن الواقع النهائي يُطلق عليهم اسم اللاأدريين (حرفيًا، "غير العارفين")، فإن الشخص الذي يدعي معرفة مثل هذه الأشياء يُطلق عليه اسم الغنوصي ("العارف"). ولكن الغنوص ليست في المقام الأول معرفة عقلانية. تميز اللغة اليونانية بين المعرفة العلمية أو التأملية ("إنه يعرف الرياضيات") والمعرفة من خلال الملاحظة أو التجربة ("إنه يعرفني")، وهو ما يسمى الغنوصية. وبما أن الغنوصيين يستخدمون هذا المصطلح، فيمكننا ترجمته إلى "البصيرة"، لأن الغنوص يتضمن عملية بديهية لمعرفة الذات. وزعموا أن معرفة الذات هي معرفة الطبيعة البشرية والمصير البشري. وفقًا للمعلم الغنوصي ثيودوتوس، الذي كتب في آسيا الصغرى (حوالي 140-160)، فإن الغنوصي هو من توصل إلى الفهم

> من كنا، وماذا أصبحنا؟ أين كنا... إلى أين نسرع؟ مما نحرر؟ ما هي الولادة، وما هي الولادة الجديدة. [20]

ومع ذلك فإن معرفة الذات، على المستوى الأعمق، هي في الوقت نفسه معرفة الله؛ وهذا هو سر الغنوص. يقول معلم غنوصي آخر، منعموس:

> اترك البحث عن الله والخلق وما شابه ذلك من الأمور. ابحث عنه من خلال اتخاذ نفسك كنقطة بداية. تعلم من هو ذلك الشخص الذي بداخلك الذي يجعل كل شيء ملكًا له ويقول: "إلهي، عقلي، فكري،

> روحي، جسدي." تعرف على مصادر الحزن والفرح والحب والكراهية.
> . . إذا بحثت في هذه الأمور بعناية، ستجده في داخلك.[21]

يبدو أن ما اكتشفه محمد علي في نجع حمادي هو مكتبة من الكتابات، كلها تقريبًا غنوصية. وعلى الرغم من ادعائهم بتقديم تعليم سري، فإن العديد من هذه النصوص تشير إلى كتب العهد القديم، والبعض الآخر يشير إلى رسائل بولس وأناجيل العهد الجديد. يتضمن العديد منهم نفس الشخصيات الدرامية الموجودة في العهد الجديد - يسوع وتلاميذه. ورغم ذلك فإن الاختلافات ملحوظة.

يصر اليهود والمسيحيون الأرثوذكس على أن هناك هوة تفصل البشرية عن خالقها: الله مختلف تمامًا. لكن بعض الغنوصيين الذين كتبوا هذه الأناجيل يتناقضون مع هذا: إن معرفة الذات هي معرفة الله؛ الذات والإلهي متطابقان.

ثانياً، إن "يسوع الحي" في هذه النصوص يتحدث عن الوهم والتنوير، وليس عن الخطيئة والتوبة، مثل يسوع العهد الجديد. فبدلاً من أن يأتي لإنقاذنا من الخطيئة، فإنه يأتي كمرشد يفتح لنا الطريق إلى الفهم الروحي. ولكن عندما يصل التلميذ إلى الاستنارة، لم يعد يسوع بمثابة معلمه الروحي: لقد أصبح الاثنان متساويين - وحتى متطابقين.

ثالثًا، يؤمن المسيحيون الأرثوذكس أن يسوع هو الرب وابن الله بطريقة فريدة: فهو يظل إلى الأبد متميزًا عن بقية البشرية التي جاء لإنقاذها. ومع ذلك، يروي إنجيل توما الغنوصي أنه بمجرد أن تعرف توما عليه، قال له يسوع إنهما تلقيا وجودهما من نفس المصدر:

> قال يسوع: وأنا لست سيدك. لأنكم شربتم، سكرتم من النهر المتدفق الذي قسته... "من يشرب من فمي يصبح مثلي، أنا أكون هو، وتنكشف له الأمور المخفية." [22]

ألا يعتبر هذا التعليم - هوية الإلهي والإنساني، والاهتمام بالوهم والتنوير، والمؤسس - أمرًا مهمًا؟

من الذي لا يُقدَّم على أنه الرب، بل كمرشد روحي - هل يبدو هذا أكثر شرقي من غربي؟ وقد اقترح بعض العلماء أنه إذا تم تغيير الأسماء، فإن "بوذا الحي" قد يكون مناسبًا أن يقول ما ينسبه إنجيل توما إلى يسوع الحي. هل من الممكن أن يكون للتقاليد الهندوسية أو البوذية تأثير على الغنوصية؟ ويشير الباحث البريطاني في البوذية، إدوارد كونزي، إلى أن الأمر كان كذلك. ويشير إلى أن "البوذيين كانوا على اتصال بمسيحيي توما (أي المسيحيين الذين عرفوا واستخدموا كتابات مثل إنجيل توما) في جنوب الهند". [23] كانت طرق التجارة بين العالم اليوناني الروماني والشرق الأقصى تنفتح في الوقت الذي ازدهرت فيه الغنوصية (80-200 م)؛ وكان المبشرون البوذيون يبشرون بالدين في الإسكندرية لأجيال. ونلاحظ أيضًا أن هيبوليتوس، الذي كان مسيحيًا ناطقًا باليونانية في روما (حوالي 22 ق.م)، كان يعرف البراهمة الهنود، ويدرج تقاليدهم ضمن مصادر الزندقة:

> "هناك ... بين الهنود نذقة أولئك الذين يتفلسفون بين البراهمة، الذين يعيشون حياة مكتفية ذاتيا، ويمتنعون عن (أكل) المخلوقات الحية وجميع الأطعمة المطبوخة ..." يقولون إن الله نور، ليس كالنور الذي نراه، ولا كالشمس ولا النار، ولكن الله عندهم هو الكلام، ليس ما يجد تعبيره في الأصوات المسموعة، بل هو المعرفة (الغنوصية) التي من خلالها يدرك الحكماء أسرار الطبيعة الخفية.[24]

هل يمكن لعنوان إنجيل توما - الذي سُمي على اسم التلميذ الذي ذهب إلى الهند، كما تقول التقاليد - أن يشير إلى تأثير التقاليد الهندية؟

تشير هذه التلميحات إلى إمكانية ذلك، إلا أن أدلتنا ليست قاطعة. وبما أن التقاليد المتوازية قد تنشأ في ثقافات مختلفة في أوقات مختلفة، فإن مثل هذه الأفكار ربما تطورت في كلا المكانين بشكل مستقل.[25] إن ما نسميه الديانات الشرقية والغربية، والتي نميل إلى اعتبارها تيارات منفصلة، لم تكن متمايزة بشكل واضح قبل 2000 عام. إن البحث في نصوص نجع حمادي لا يزال في بداياته: ونحن نتطلع إلى عمل العلماء الذين يمكنهم دراسة هذه التقاليد مقارنة لاكتشاف ما إذا كان من الممكن، في الواقع، إرجاعها إلى مصادر هندية.

ومع ذلك، فإن الأفكار التي نربطها بالأديان الشرقية ظهرت في القرن الأول من خلال الحركة الغنوصية في الغرب، ولكنها تعرضت للقمع والإدانة من قبل الجدليين مثل إيرينيئوس. ومع ذلك، فإن أولئك الذين أطلقوا على الغنوصية اسم الزندقة كانوا يتبنون - بوعي أو بغير وعي - وجهة نظر تلك المجموعة من المسيحيين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم المسيحيين الأرثوذكس. قد يكون الزنديق هو أي شخص لا يحب أو ينكر وجهة نظره شخص آخر. وفقًا للتقاليد، فإن الزنديق هو من ينحرف عن الإيمان الحقيقي. ولكن ما الذي يحدد هذا "الإيمان الحقيقي"؟ من يسميها بهذا الاسم، ولأي أسباب؟

نحن نجد هذه المشكلة مألوفة في تجربتنا الخاصة. لقد شمل مصطلح "المسيحية"، وخاصة منذ الإصلاح الديني، مجموعة مذهلة من المجموعات. يمكن أن يتراوح أولئك الذين يدعون أنهم يمثلون "المسيحية الحقيقية" في القرن العشرين من كاردينال كاثوليكي في الفاتيكان إلى واعظ أسقفي ميثودي أفريقي بدأ إحياءً دينيًا في ديترويت، أو مبشر مورموني في تايلاند، أو عضو في كنيسة قرية على ساحل اليونان. ومع ذلك فإن الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس يتفقون على أن هذا التنوع هو تطور حديث ومؤسف. وفقًا للأسطورة المسيحية، كانت الكنيسة الأولى مختلفة. ينظر المسيحيون من كل المذاهب إلى الكنيسة الأولى ليجدوا شكلاً أبسط وأنقى للإيمان المسيحي. في زمن الرسل، كان جميع أعضاء المجتمع المسيحي يتشاركون في أموالهم وممتلكاتهم؛ وكان الجميع يؤمنون بنفس التعليم، ويمارسون العبادة معًا؛ وكان الجميع يوقرون سلطة الرسل. ولم تظهر الصراعات والزندقة إلا بعد ذلك العصر الذهبي: هكذا يقول مؤلف أعمال الرسل، الذي يعرّف نفسه بأنه أول مؤرخ للمسيحية.

لكن الاكتشافات في نجع حمادي قلبت هذه الصورة رأساً على عقب. إذا اعترفنا بأن بعض هذه النصوص الاثنين والخمسين تمثل أشكالاً مبكرة من التعاليم المسيحية، فقد يتعين علينا الاعتراف بأن المسيحية المبكرة كانت أكثر تنوعًا بكثير مما توقعه أي شخص تقريبًا قبل اكتشافات نجع حمادي. [26]

في الواقع، قد تُظهر المسيحية المعاصرة، على تنوعها وتعقيدها، إجماعًا أكبر من الكنائس المسيحية في القرنين الأول والثاني. بالنسبة لجميع المسيحيين

تقريبًا منذ ذلك الوقت، سواء كانوا كاثوليك أو بروتستانت أو أرثوذكس، فقد اشتركوا في ثلاثة مبادئ أساسية. أولاً، يقبلون قانون العهد الجديد؛ ثانياً، يعترفون بالعقيدة الرسولية؛ وثالثاً، يؤكدون على أشكال محددة من مؤسسات الكنيسة. ولكن كل واحد منها - شريعة الكتاب المقدس، والعقيدة، والبنية المؤسسية - لم تظهر في شكلها الحالي إلا نحو نهاية القرن الثاني. قبل ذلك الوقت، كما يشهد إيرينيئوس وآخرون، كانت هناك أناجيل عديدة متداولة بين مختلف الجماعات المسيحية، بدءًا من أناجيل العهد الجديد، إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، إلى كتابات مثل إنجيل توما، وإنجيل فيليب، وإنجيل الحقيقة، فضلاً عن العديد من التعاليم السرية الأخرى، والأساطير، والقصائد المنسوبة إلى يسوع أو تلاميذه. ويبدو أن بعض هذه الآثار قد تم اكتشافها في نجع حمادي، بينما فقدنا الكثير منها. أولئك الذين عرّفوا أنفسهم كمسيحيين كانوا يعتنقون العديد من المعتقدات والممارسات الدينية المختلفة جذريًا. ونظمت المجتمعات المنتشرة في جميع أنحاء العالم المعروف نفسها بطرق تختلف اختلافًا كبيرًا من مجموعة إلى أخرى.

ولكن بحلول عام 200 ميلادي، تغير الوضع. لقد أصبحت المسيحية مؤسسة يرأسها هرم من ثلاث درجات من الأساقفة والكهنة والشمامسة، الذين اعتبروا أنفسهم حراس "الإيمان الحقيقي" الوحيد. رفضت أغلب الكنائس، ومن بينها كنيسة روما التي لعبت دورًا قياديًا، جميع وجهات النظر الأخرى باعتبارها زندقة. وقد استنكر الأسقف إيرينيئوس وأتباعه التنوع في الحركة السابقة، وأصروا على أنه لا يمكن أن تكون هناك إلا كنيسة واحدة، وخارج تلك الكنيسة، أعلن أنه "لا يوجد خلاص". [27] إن أعضاء هذه الكنيسة وحدهم هم مسيحيون أرثوذكسيون (حرفيًا، "مفكرون مستقيمون"). وزعم أن هذه الكنيسة يجب أن تكون كاثوليكية، أي عالمية. كل من تحدى هذا الإجماع، وجادل بدلاً من ذلك لصالح أشكال أخرى من التعليم المسيحي، أُعلن أنه زنديق، وطُرد. وعندما حصل الأرثوذكس على الدعم العسكري، بعد فترة من اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية في القرن الرابع، ارتفعت عقوبة الزندقة.

لقد أثبتت جهود الأغلبية لتدمير كل أثر للتجديف الزندقة نجاحها إلى درجة أن كل معلوماتنا تقريبًا فيما يتعلق بالأشكال البديلة للمسيحية المبكرة جاءت من الهجمات الأرثوذكسية الضخمة عليها، حتى اكتشافات نجع حمادي. على الرغم من أن الغنوصية ربما تكون أقدم البدع وأكثرها تهديدًا، إلا أن العلماء لم يعرفوا سوى عدد قليل من النصوص الغنوصية الأصلية، ولم يُنشر أي منها قبل القرن التاسع عشر. ظهرت أول نسخة من المخطوطة القبطية في عام 1763، عندما اشترى سائح اسكتلندي يدعى جيمس بروس مخطوطة قبطية بالقرب من طيبة (الأقصر الحديثة) في صعيد مصر.[28] نُشرت هذه المخطوطة في عام 1832 فقط، وتزعم أنها تسجل محادثات بين يسوع وتلاميذه - وهي المجموعة التي تضم هنا رجالاً ونساءً. في عام 1773 عثر أحد هواة جمع الكتب في إحدى مكتبات لندن على نص قديم، باللغة القبطية أيضاً، يحتوي على حوار حول "الأسرار" بين يسوع وتلاميذه.[29] وفي عام 1836 م، انتبه عالم مصريات ألماني إلى المنشورات السابقة، فاشترى في القاهرة مخطوطة احتوت، لدهشته، على إنجيل مريم (المجدلية) وثلاثة نصوص أخرى. كما تم تضمين ثلاث نسخ من أحدها، وهو أبوكريفون (الكتاب السري) ليوحنا ، ضمن المكتبة الغنوصية التي تم اكتشافها في نجع حمادي بعد خمسين عامًا.[30]

ولكن لماذا لم يتم الكشف عن هذا الاكتشاف المذهل في نجع حمادي إلا الآن للمرة الأولى؟ لماذا لم نسمع خبر اكتشاف نجع حمادي كما سمعنا عن مخطوطات البحر الميت قبل خمسة وعشرين عاماً؟ كتب البروفيسور هانز جوناس، الخبير البارز في الغنوصية، في 1962:

> وعلى النقيض من اكتشافات البحر الميت التي تعود إلى نفس السنوات، فإن الاكتشاف الغنوصي من نجع حمادي كان يعاني منذ البداية وحتى يومنا هذا من لعنة مستمرة من العوائق السياسية، والدعاوى القضائية، والأهم من ذلك كله، الغيرة العلمية و"السبّاقين" (وقد تحول العامل الأخير الآن إلى فضيحة تاريخية حقيقية في الأوساط الأكاديمية المعاصرة).[31]

لقد تم قمع الوصول إلى النصوص عمدًا ليس فقط في العصور القديمة، ولكن أيضًا لأسباب مختلفة تمامًا، على مدار أكثر من ثلاثين عامًا منذ اكتشافها.[32] في المقام الأول، كان القرويون

من صعيد مصر وكان تجار الآثار الذين كانوا يحاولون الثراء من المخطوطات يخبئونها لتجنب مصادرتها من قبل السلطات الحكومية. واتضحت قيمتها عندما رأى عالم المصريات الفرنسي جان دوريس أول المخطوطات المستعادة في عام 1947 في المتحف القبطي في القاهرة. وعندما طلب منه مدير المتحف، توغو مينا، فحصها، حدد دوريس المخطوطة وأعلن أن هذا الاكتشاف سيشكل حقبة جديدة في دراسة أصول المسيحية. ومن شدة حماسه، طلب منه مينا أن ينظر إلى مخطوطة أخرى، يحتفظ بها ألبرت عيد، تاجر الآثار البلجيكي في القاهرة. وبعد هذا اللقاء ذهب مينا إلى عيد ليخبره أنه لن يسمح أبدًا للمخطوطة بمغادرة مصر، بل يجب بيعها بسعر رمزي للمتحف.

ولكن لا يزال الجزء الأكبر من الاكتشاف مخفيًا. كان بهيج علي، وهو رجل أعور من أهل القصر، قد استولى على العديد من مخطوطات نجع حمادي وذهب إلى القاهرة ليبيعها. اشترى فوسيون تانو، تاجر الآثار، كل ما كان لديه، وذهب إلى نجع حمادي ليرى ما إذا كان بإمكانه العثور على المزيد. بينما كانت دوريس تعمل في القاهرة خلال الغارات الجوية والقصف عام 1948 لنشر مخطوطة المخطوطة الثالثة، تفاوض وزير التعليم العام لشراء مجموعة تانو للمتحف. سارع تانو إلى منع الحكومة من التدخل، قائلاً إنها تنتمي إلى طرف خاص، وهي امرأة تدعى داتاري، وهي جامعة إيطالية تعيش في القاهرة. ولكن في العاشر من يونيو عام 1949، شعرت الآنسة داتاري بالقلق عندما قرأت التقرير التالي في صحيفة القاهرة الفرنسية:

> وتجري حاليًا عملية الحصول على هذه الوثائق الثمينة من قبل الحكومة المصرية. وبحسب المتخصصين الذين تمت استشارتهم، فإن الأمر يتعلق بواحد من أكثر الاكتشافات غرابة التي لا تزال محفوظة حتى اليوم على أرض مصر، متجاوزة في الأهمية العلمية اكتشافات مذهلة مثل مقبرة توت عنخ آمون.[33]

وعندما قامت الحكومة بتأميم المجموعة في عام 1952، ادعى مسؤولون حكوميون أن المخطوطات كانت معبأة في حقيبة مختومة. لم يدفعوا للسيدة داتاري شيئًا - على الرغم من أنها طلبت

سعر بقيمة حوالي 100 ألف جنيه إسترليني. وعندما انتقمت برفع دعوى قضائية، لم تنجح إلا في تأخير البحث لمدة ثلاث سنوات من خلال الحصول على أمر قضائي ضده؛ وخسرت القضية.

ولكن الحكومة فشلت في مصادرة الجزء الذي يملكه عيد من المخطوطة الأولى. وفي عام 1949، سافر ألبرت عيد، قلقاً من تدخل الحكومة، من القاهرة إلى أمريكا. وبإدراج المخطوطة ضمن مجموعة كبيرة من المواد التصديرية، نجح في تهريبها خارج مصر. وقد عرضها على المشترين بمبلغ يصل إلى 22 ألف دولار، ولكن بما أن أحد المشترين المحتملين على الأقل رفض، خوفًا من استياء الحكومة المصرية من البيع، فقد عاد إلى بلجيكا بخيبة أمل، حيث وضعها في صندوق ودائع آمن محمي بكلمة مرور سرية.

وجهت الحكومة المصرية اتهامات لعيد بتهريب الآثار، ولكن بحلول وقت إدانته كان تاجر الآثار قد توفي. فرضت المحكمة غرامة قدرها 6,000 جنيه إسترليني على تركته. وفي هذه الأثناء، كانت أرملة عيد تتفاوض سراً لبيع المخطوطة، وربما حتى لمزايدين متنافسين. يقول البروفيسور جيل كويسبيل، الذي حث مؤسسة يونغ في ألمانيا على شرائه، إنه لم يكن يعلم أن تصديرها وبيعها كانا غير قانونيين عندما اتخذ الترتيبات اللازمة. يستمتع بسرد القصة الدرامية لانقلابه:

> في اليوم العاشر من شهر مايو، 1952، استقل أحد الأساتذة من أوتريخت قطارًا إلى بروكسل. لكن بسبب شروده، خرج من القطار في تيلبورج، معتقدًا أنه في روسندال، وبالتالي فاته قطار الترنسيت. ولكن عندما اقترب أخيراً من مكان اللقاء المحدد، وهو مقهى في مكان ما في بروكسل، بعد ساعتين من التأخير، رأى الوسيط، من سانت إيدسبالد القريبة من كوكسي على ساحل بلجيكا، لا يزال ينتظر عند النافذة ويلوح له بلطف. ثم مد الأستاذ يده وسلّم الرجل شيكًا بقيمة 35,000 شلن فرنك سويسري. في المقابل، أعطى الرجل الأستاذ حوالي 50 بردية. كيف يمكن نقلها عبر الحدود دون تعقيدات؟ لا يمكن إخفاء مثل هذه الحزمة بسهولة. لذلك يجب على المرء أن يظل صادقًا، وعندما يسأله موظف الجمارك: "ماذا يوجد في هذه الحزمة؟" عندها عليه قول الحقيقة: "مخطوطة قديمة". ويقوم موظف الجمارك بإشارة

عدم اهتمام تام ويسمح بالمرور. هكذا تم شراء مخطوطة يونغ. [34]

وبمجرد أن تم تحديد ملكية المخطوطات من قبل 1952 - اثني عشر ونصف مخطوطة في المتحف القبطي في القاهرة، ومعظم المخطوطة الثالثة عشرة في صندوق ودائع آمن في زيورخ - أصبحت النصوص، على مدى العشرين عامًا التالية، محورًا للتنافس الشخصي الشديد بين المجموعة الدولية من العلماء المتنافسين على الوصول إليها.

قرر الدكتور باهور لبيب، الذي تولى إدارة المتحف القبطي في عام 1952، الحفاظ على سيطرة صارمة على حقوق النشر. إن نشر الطبعة الأولى النهائية لأي من هذه النصوص الأصلية الاستثنائية - ناهيك عن المجموعة بأكملها - من شأنه أن يرسخ سمعة الباحث على المستوى الدولي. أما القليلون الذين سمح لهم الدكتور لبيب بالاطلاع على المخطوطات فقد حموا مصالحهم برفض السماح لأي شخص آخر بالاطلاع عليها. في عام 1961، أبلغ المدير العام لمنظمة UNESCO بالاكتشاف من قبل علماء فرنسيين، وحث على نشر الاكتشاف بأكمله واقترح تشكيل لجنة دولية لترتيب ذلك.[35] وكتب عالم الآثار الإسكندنافي تورجني سايف-سودربيرج إلى UNESCO، متحدثًا باسمه ونيابة عن العلماء الآخرين، وحث UNESCO على التدخل وإعداد طبعة كاملة من الصور الفوتوغرافية لجميع المخطوطات من أجل وضع الاكتشاف بأكمله تحت تصرف العديد من العلماء في جميع أنحاء العالم الذين كانوا متشوقين لرؤيتها.

وبعد مرور عشر سنوات، في عام 1972، ظهر أخيرًا المجلد الأول من الطبعة الفوتوغرافية. وتبعتها مجلداتي الأخرى بين عامي 1972 و 1977، مما وضع جميع المخطوطات الثلاثة عشر في المجال العام. وبما أن تنفيذ مثل هذا المشروع التقني الضخم في مصر كان ينطوي على العديد من التأخيرات، فقد قام البروفيسور جيمس روبنسون، مدير معهد الآثار والمسيحية، العضو الأمريكي الوحيد في لجنة منظمة اليونسكو، بتنظيم فريق دولي لنسخ وترجمة معظم المواد. قام روبنسون وفريقه بتوزيع هذه المادة بشكل خاص على العلماء في جميع أنحاء العالم، وبالتالي إشراك العديد من الأشخاص في البحث، وكسر الاحتكار الذي كان يسيطر على الاكتشاف.

لقد علمت لأول مرة عن اكتشافات نجع حمادي في عام 1968، عندما دخلت برنامج الدراسات العليا في جامعة هارفارد لدراسة تاريخ المسيحية. لقد أذهلني سماع هذا الاكتشاف، وسعدت للغاية في 1968 عندما تلقى البروفيسور جورج ماكراي من جامعة هارفارد النصوص المنسوخة من فريق روبنسون. وبما أن المنشورات الرسمية لم تكن قد صدرت بعد، فقد تم ختم كل صفحة بتحذير:

> هذه المادة مخصصة للدراسة الخاصة للأفراد المعينين فقط. لا يجوز إعادة إنتاج النص أو ترجمته أو نشرهما بأي شكل من الأشكال، كليًا أو جزئيًا.

شجع ماكراي وزميله البروفيسور هيلموت أويستر طلابهم على تعلم اللغة القبطية من أجل البدء في البحث عن هذا الاكتشاف الاستثنائي. وعلى قناعة من أن هذا الاكتشاف من شأنه أن يحدث ثورة في الفهم التقليدي لأصول المسيحية، كتبت أطروحتي في جامعة هارفارد وأكسفورد حول الجدل بين المسيحية الغنوصية والأرثوذكسية. بعد حصولي على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1970 وقبول منصب عضو هيئة التدريس في كلية برنارد، جامعة كولومبيا، عملت بشكل حصري تقريبًا على الغنوصية المسيحية المبكرة. وبعد نشر كتابين تقنيين حول هذا البحث [36]، حصلت على منحتين في عام 1975 (من المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية والجمعية الفلسفية الأمريكية) حتى أتمكن من دراسة المخطوطات في متحف القاهرة وحضور المؤتمر الدولي الأول للدراسات القبطية في القاهرة. هناك، مثل غيري من الباحثين، تم تعريفي بالمتحف القبطي، واندهشت عندما وجدت أن المكتبة التي تضم المخطوطات عبارة عن غرفة واحدة صغيرة من غرف المتحف القبطي. كل يوم، بينما كان الأطفال يلعبون في المكتبة وعاملات النظافة يغسلن الأرض من حولي، كنت أعمل على الطاولة، وأقوم بنسخ البرديات. بعد أن رأيت صورًا بالأبيض والأسود فقط، وجدت الصور الأصلية جميلة بشكل مدهش - كل منها مثبتة على زجاج شبكي، مكتوب عليها بحبر أسود على أوراق بنية ذهبية. في المؤتمر الدولي الأول الذي عقد في القاهرة أثناء وجودي هناك، قدمت ورقة بحثية حول إحدى المخطوطات (حوار المخلص)،[37] بل أنني التقيت بأحد

وسطاء القصر الذين كانوا يبيعون النصوص بطريقة غير شرعية في القاهرة.

وبعد انضمامي إلى فريق العلماء، شاركت في إعداد أول طبعة كاملة باللغة الإنجليزية، والتي نشرتها دار هاربر آند رو في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1977. فقط مع هذا النشر، ومع اكتمال الطبعة الفوتوغرافية المتوقعة بحلول عام 1980، تمكنا أخيرًا من التغلب على العقبات التي تعترض المعرفة العامة والتي سببها ما أسماه البروفيسور جيرارد جاريت من لوفين "التنافسات الشخصية و... ادعاءات احتكار الوثائق التي تنتمي فقط إلى العلم، أي إلى الجميع". [38]

ولكن بحلول الوقت الذي علمت فيه بهذا الاكتشاف، كانت الغنوصية قد أصبحت بالفعل محورًا لكمية كبيرة من الأبحاث. كان أول من بحث في الغنوصيين هم معاصروهم الأرثوذكس. وفي محاولة لإثبات أن الغنوصية غير مسيحية في الأساس، فقد أرجعوا أصولها إلى الفلسفة اليونانية، وعلم التنجيم، والأديان الغامضة، والسحر، وحتى المصادر الهندية. وكثيراً ما كانوا يؤكدون على العناصر الغريبة التي تظهر في بعض أشكال الأساطير الغنوصية، ويسخرون منها. سخر ترتليان من الغنوصيين لخلقهم علم الكونيات المعقد، مع سماوات متعددة الطوابق مثل المباني السكنية، "حيث الغرف متراكمة فوق الغرف، ومخصصة لكل إله بنفس عدد السلالم التي كانت توجود فيها الزندقة: لقد تحول الكون إلى غرف للإيجار!" [39] وبحلول نهاية القرن التاسع عشر، عندما تم اكتشاف المصادر الغنوصية الأصلية القليلة المذكورة أعلاه، ألهمت أبحاثًا جديدة بين العلماء. اعتبر المؤرخ الألماني الكبير أدولف فون هارناك، الذي استند في أبحاثه بشكل أساسي على آباء الكنيسة، أن الغنوصية زندقة مسيحية. وفي عام 1894، أوضح هارناك أن الغنوصيين، الذين فسروا العقيدة المسيحية من منظور الفلسفة اليونانية، أصبحوا، بمعنى ما، "أول علماء اللاهوت المسيحيين". [40] ولكن في هذه العملية، كما زعم، قاموا بتشويه الرسالة المسيحية، ونشروا أشكالاً هجينة زائفة من التعاليم المسيحية ــ ما أسماه

"الهيلينية الحادة للمسيحية".[41] واتفق الباحث البريطاني آرثر داربي موك مع هذا الرأي، إذ قال إن الغنوصية هي نوع من "الأفلاطونية الجامحة". [42]

واعترض مؤرخون آخرون للدين. قالوا إن الغنوصية، بعيدًا عن كونها زندقة مسيحية، كانت في الأصل حركة دينية مستقلة. في أوائل القرن العشرين، أعلن عالم العهد الجديد، فيلهلم بوسيه، الذي أرجع أصول الغنوصية إلى المصادر البابلية والفارسية القديمة، أن

> الغنوصية هي في المقام الأول حركة ما قبل المسيحية والتي كانت لها جذور في حد ذاتها. لذا، ينبغي فهمها... بمصطلحاتها الخاصة، وليس كفرع أو نتيجة ثانوية للدين المسيحي. [43]

وقد اتفق عالم اللغويات ريتشارد رايتزنشتاين على هذه النقطة؛ لكن رايتزنشتاين ذهب إلى القول بأن الغنوصية مستمدة من الديانة الإيرانية القديمة وتأثرت بالتقاليد الوثنية.[44] وأكد آخرون، بمن فيهم البروفيسور م. فريدلاندر، أن الغنوصية نشأت في اليهودية: وقال فريدلاندر إن الزنادقة الذين هاجمهم الحاخامات في القرنين الأول والثاني كانوا من الغنوصيين اليهود.[45]

في عام 1334م - أي قبل اكتشافات نجع حمادي بأكثر من عشر سنوات - ظهر كتابان جديدان مهمان. انتقل البروفيسور هانز جوناس من مسألة المصادر التاريخية للغنوصية إلى السؤال عن أصلها الوجودي. اقترح جوناس أن الغنوصية نشأت في "موقف معين تجاه الوجود". وأشار إلى أن الخمول السياسي والركود الثقافي للإمبراطورية الشرقية في القرنين الأولين من هذا العصر تزامن مع تدفق الأديان الشرقية إلى الثقافة الهيلينية. وبحسب تحليل جوناس، فإن العديد من الناس في ذلك الوقت شعروا بغربة عميقة عن العالم الذي يعيشون فيه، وكانوا يتوقون إلى خلاص معجزي كوسيلة للهروب من قيود الوجود السياسي والاجتماعي. وباستخدام المصادر القليلة المتاحة له، وبرؤية ثاقبة، أعاد جوناس بناء رؤية عالمية غنوصية - فلسفة تشاؤمية حول العالم مقترنة بمحاولة لتجاوز الذات.[46] لا تزال نسخة غير تقنية من كتابه، مترجمة إلى الإنجليزية، موجودة.

وحتى يومنا هذا، لا يزال هذا الكتاب يقدم مقدمة كلاسيكية.[47] وفي خاتمة أضيفت إلى الطبعة الثانية من هذا الكتاب، رسم جوناس مقارنة بين الغنوصية والوجودية في القرن العشرين، معترفًا بدينه للفلاسفة الوجوديين، وخاصة هايدغر، في صياغة تفسيره لـ "الدين الغنوصي". [48]

وفي عام 1934، نشر عالم آخر، هو والتر باور، وجهة نظر مختلفة تمامًا عن الغنوصية. أدرك باور أن الحركة المسيحية المبكرة كانت في حد ذاتها أكثر تنوعًا مما اختارت المصادر الأرثوذكسية الإشارة إليه. لذا، كتب باور،

> ربما - أكرر، ربما - بعض مظاهر الحياة المسيحية التي ينكرها مؤلفو الكنيسة باعتبارها "زندقة" لم تكن كذلك في الأصل على الإطلاق، ولكنها، على الأقل هنا وهناك، كانت الأشكال الوحيدة للدين الجديد؛ أي أنها كانت ببساطة "المسيحية" بالنسبة لتلك المناطق. ومن المحتمل أيضًا أن أتباعهم كانوا ينظرون باحتقار وازدراء إلى الأرثوذكس، الذين كانوا بالنسبة لهم مؤمنين زائفين.[49]

وقد انتقد نقاد باور، ولا سيما الباحثان البريطانيان إتش إي دبليو تيرنر [50] وسي.

هـ. روبرتس،[51] قد انتقده لتبسيطه المفرط للوضع وتجاهله للأدلة التي لم تتناسب مع نظريته. من المؤكد أن اقتراح باور بأن أولئك الذين أطلق عليهم فيما بعد "الزنادقة" شكلوا الأغلبية في بعض الجماعات المسيحية، يتجاوز حتى ادعاءات الغنوصيين أنفسهم: فقد وصفوا أنفسهم عادة بأنهم "القلة" بالنسبة للـ "الكثيرين" *(hoi polloi)*. لكن باور، مثل جوناس، فتح طرقًا جديدة للتفكير في الغنوصية.

وقد أدت الاكتشافات التي حدثت في منطقة نجع حمادي في عام 1345م، كما توقع دوريس، إلى بداية عصر جديد كلياً من الأبحاث. وكانت المهمة الأولى والأهم هي الحفاظ على النصوص نفسها وتحريرها ونشرها. تعاون فريق دولي من الباحثين، بمن فيهم الأستاذان
أ. غيومون وهـ. ش. بوتش من فرنسا، وجي. كويسبيل من هولندا، و. تيل من ألمانيا، وي. عبد المسيح من مصر، في نشر إنجيل توما في عام 1959. [52] وقد عمل العديد من نفس العلماء مع الأساتذة م. مالينين من فرنسا، و ر. آسر من ألمانيا، و ج. زاندي من ميثرلاندز، و ر. ماكل. ويلسون من اسكتلندا

لتحرير نصوص المخطوطة الأولى. قام البروفيسور جيمس م. روبنسون، سكرتير اللجنة الدولية لمخطوطات نجع حمادي، بتنظيم فريق من العلماء من أوروبا وكندا والولايات المتحدة لتحرير النسخة المطابقة للصور الفوتوغرافية [53] بالإضافة إلى طبعة علمية كاملة للاكتشاف بأكمله باللغتين القبطية والإنجليزية. أرسل روبنسون نسخًا من المخطوطات والترجمات إلى زملائه في برلين. هناك، أعضاء مجموعة *Berliner Arbeitskreis für koptisch-gnostische Schriften* (مجموعة عمل برلين للنصوص القبطية الغنوصية)، وهي دائرة تضم علماء بارزين مثل الأساتذة هـ. م. شينكي، ك. م. فيشر، ك. و. تروجر، بالتعاون مع آخرين، بما في ذلك إ. هاينشين، و. شميثالس، ك. رودولف، بإعداد إصدارات من النصوص باللغتين القبطية والألمانية، بالإضافة إلى العديد من التعليقات والكتب والمقالات.

ماذا يمكن أن تخبرنا هذه الثروة من المواد الجديدة عن الغنوصية؟ إن وفرة النصوص - وتنوعها - جعلت التعميم صعبًا، والإجماع أكثر صعوبة. وبناءً على ذلك، يتفق معظم العلماء الآن على أن ما نسميه "الغنوصية" كانت حركة واسعة الانتشار استمدت مصادرها من تقاليد مختلفة. إن بعض النصوص تصف السماوات المتعددة، ولكل واحدة منها كلمة مرور سحرية، وهو ما توقعه آباء الكنيسة الذين انتقدوا الغنوصية من قبل العلماء؛ ولكن العديد من النصوص الأخرى، على نحو مدهش، لا تحتوي على أي شيء من هذا القبيل. إن الكثير من الأدبيات التي تم اكتشافها في نجع حمادي مسيحية بشكل مميز؛ ومع ذلك، فإن بعض النصوص تظهر القليل من التأثير المسيحي أو لا تظهر أي تأثير مسيحي على الإطلاق؛ وبعضها مستمد في المقام الأول من مصادر وثنية (وقد لا تكون "غنوصية" على الإطلاق)؛ والبعض الآخر يستخدم التقاليد اليهودية على نطاق واسع. ولهذا السبب، تحدى الباحث الألماني سي. كولبي بحث المؤرخين عن "أصول الغنوصية". [54] يصر كولبي على أن هذه الطريقة تؤدي إلى تراجع لا نهائي محتمل لـ"أصول" أبعد فأبعد، دون أن تساهم كثيراً في فهمنا لما تعنيه الغنوصية في الواقع.

في الآونة الأخيرة، سعى العديد من العلماء إلى إيجاد الدافع وراء تطور الغنوصية ليس من حيث أصولها الثقافية، ولكن من خلال أحداث أو تجارب محددة. اقترح البروفيسور ر. م. غرانت أن الغنوصية نشأت كرد فعل على تحطيم

الآراء الدينية التقليدية - اليهودية والمسيحية - بعد أن دمر الرومان القدس في عام 70 م. [55] اقترح إس إس كويسبيل أن الغنوصية نشأت من "تجربة ذاتية" عالمية محتملة تم إسقاطها على الأساطير الدينية.[56] قدم إس جي جوناس مخططًا نمطيًا يصف الغنوصية كنوع محدد من النظرة الفلسفية للعالم. [57] وصف الباحث البريطاني إي. آر. دودز الغنوصية بأنها حركة مستمدة كتاباتها من التجربة الصوفية. [58] يتفق غيرشوم شوليم، الأستاذ البارز في التصوف اليهودي في الجامعة العبرية في القدس، مع دودز على أن الغنوصية تنطوي على التكهنات والممارسة الصوفية. في تتبعه للتيارات الباطنية في الدوائر الحاخامية التي كانت معاصرة لتطور الغنوصية، أطلق شوليم عليها اسم أشكال "الغنوصية اليهودية". [59]

واليوم، أصبح الباحثون في نصوص نجع حمادي أقل اهتماماً ببناء نظريات شاملة من اهتمامهم بتحليل المصادر المكتشفة في نجع حمادي بالتفصيل. هناك عدة أنواع مختلفة من الأبحاث، كل منها يبحث في المقام الأول تلك المجموعات المحددة من النصوص المناسبة لأغراض التحقيق. يركز أحد أنواع الأبحاث، المعني بعلاقة الغنوصية بالفلسفة الهيلينية، في المقام الأول على نصوص نجع حمادي التي تجسد هذه العلاقة. ومن بين المساهمين في هذا الجانب من البحث، على سبيل المثال (بالإضافة إلى هانز جوناس)، العالمان البريطانيان أ. د. موك [60] وأ. هـ. أرمسترونغ [61]، وعلماء أمريكيون مثل البروفيسور بنتلي لايتون [62] من جامعة ييل وهارولد أتريدج من جامعة ساوثرن ميثوديست. [63] ومن ناحية أخرى، يبحث البروفيسور مورتون سميث من جامعة كولومبيا، الذي يتناول بحثه الحالي تاريخ السحر، في المصادر التي تثبت الممارسة السحرية.[64]

الاتجاه الثاني للبحث هو دراسة النصوص الغنوصية من وجهة نظر أدبية ونقدية شكلية. بدأ الكثير من هذا العمل من قبل ج. م. روبنسون و هـ. كويستر في كتابهما مسارات عبر المسيحية المبكرة. [65] وقد استكشف آخرون الرمزية الغنية للنصوص الغنوصية. على سبيل المثال، قام الباحث الفرنسي م. تارديو بتحليل الأساطير الغنوصية؛ [66] وقام البروفيسور ل. شوتروف بالتحقيق في الروايات الغنوصية عن

قوى الشر.[67] كما ساهم العديد من زملائهم الأمريكيين أيضًا في التحليل الأدبي للمصادر الغنوصية. وقد بحث البروفيسور ب. بيركنز في كل من النوع [68] والصور؛ [69] وساهم البروفيسور جورج ماكراي في فهمنا للاستعارات الغنوصية،[70] والأساطير،[71] والشكل الأدبي؛[72] وقد أظهر هو وآخرون، بما في ذلك كويسبيل والبروفيسور ب. أ. بيرسون، كيف استندت بعض الأساطير الغنوصية إلى المواد التقليدية في اليهودية.[73]

ويستكشف اتجاه ثالث من البحث (الذي يتداخل في كثير من الأحيان مع الاتجاه الثاني) العلاقة بين الغنوصية وبيئتها الدينية المعاصرة. في حين أثبت شوليم، وماكري، وكويسبِل، وبيرسون (على سبيل المثال لا الحصر) أن بعض المصادر الغنوصية تشير على نطاق واسع إلى التقاليد اليهودية، فإن آخرين يدرسون السؤال التالي: ماذا تخبرنا النصوص الغنوصية عن أصول المسيحية؟ ومن بين العلماء العديدين الذين شاركوا في هذا البحث، بالإضافة إلى المذكورين أعلاه، البروفيسور ر. م. غرانت والأستاذ إي. ياموتشي في الولايات المتحدة؛ و ر. ماكل. ويلسون في اسكتلندا؛ ج. سي. ستيد وهـ. تشادويك في إنجلترا؛ و. سي. فان أونيك في ميثرلاندز؛ هـ.-تش. بوتش والدكتور
س. بيترمينت في فرنسا؛ أ. أورب في إسبانيا؛ س. أراي في اليابان؛ ج. مينارد وف. ويس في كندا؛ وفي ألمانيا، بالإضافة إلى أعضاء نقابة عمال برلين، أ. بوليج والدكتور ك. كوشوك . وبما أن بحثي الخاص يندرج ضمن هذه الفئة (أي الغنوصية والمسيحية المبكرة)، فقد اخترت في المقام الأول المصادر المسيحية الغنوصية كأساس لهذا الكتاب. بدلاً من النظر في مسألة أصول الغنوصية، أريد هنا أن أوضح كيف تتفاعل الأشكال الغنوصية للمسيحية مع الأرثوذكسية - وما يخبرنا به هذا عن أصول المسيحية نفسها.

ونظراً للكم الهائل من الأبحاث الحالية في هذا المجال، فإن هذا المخطط بالضرورة موجز وغير كامل. من يرغب في متابعة البحث بالتفصيل سيجد مساعدة لا تقدر بثمن في ببليوغرافيا نجع حمادي، التي نشرها البروفيسور د. م. شولر.[74]، والتي تم تحديثها بانتظام من خلال الملاحق المنشورة في مجلة *Novum Testamentum*، تضم ببليوغرافيا شولر حاليًا ما يقرب من 4,000 كتاب وإصدار ومقالة ومراجعة

نُشرت خلال الثلاثين سنة الماضية أبحاث حول نصوص نجع حمادي.

ومع ذلك، فإن المخطوطات الاثنين والخمسين التي تم اكتشافها في نجع حمادي لا تقدم سوى لمحة عن تعقيد الحركة المسيحية المبكرة. والآن نبدأ في رؤية أن ما نسميه المسيحية ـ وما نحدده باعتباره التقليد المسيحي ـ لا يمثل في الواقع سوى مجموعة صغيرة من المصادر المحددة، والتي تم اختيارها من بين عشرات المصادر الأخرى. من قام بهذا الاختيار، ولأي أسباب؟ لماذا تم استبعاد هذه الكتابات الأخرى وحظرها باعتبارها "زندقة"؟ ما الذي جعلهم خطرين إلى هذه الدرجة؟ وللمرة الأولى، أتيحت لنا الفرصة للتعرف على أقدم الزندقة المسيحية؛ ولأول مرة، يستطيع الزنادقة أن يتحدثوا عن أنفسهم.

لا شك أن المسيحيين الغنوصيين عبروا عن أفكار يكرهها الأرثوذكس. على سبيل المثال، تتساءل بعض هذه النصوص الغنوصية عما إذا كانت كل المعاناة والعمل والموت ناتجة عن الخطيئة البشرية، والتي، في النسخة الأرثوذكسية، شوهت الخلق المثالي الأصلي. ويتحدث آخرون عن العنصر الأنثوي في الإلهي، فيحتفلون بالله كأب وأم. ويرى آخرون أن قيامة المسيح يجب أن تُفهم رمزياً وليس حرفياً. حتى أن بعض النصوص المتطرفة تندد بالمسيحيين الكاثوليك أنفسهم باعتبارهم زنادقة، والذين على الرغم من أنهم "لا يفهمون الغموض ... يتباهون بأن سر الحقيقة ينتمي إليهم وحدهم". [75] وقد أثارت هذه الأفكار الغنوصية اهتمام المحلل النفسي كارل جورج يونغ، إذ كان يعتقد أنها تعبر عن "الجانب الآخر من العقل" ـ الأفكار التلقائية اللاواعية التي تطالب أي مذهب أرثوذكسي أتباعه بقمعها.

ومع ذلك، فإن المسيحية الأرثوذكسية، كما يحددها قانون الإيمان الرسولي، تحتوي على بعض الأفكار التي قد يجدها الكثير منا اليوم أكثر غرابة. تتطلب العقيدة، على سبيل المثال، أن يعترف المسيحيون بأن الله صالح تمامًا، ومع ذلك فقد خلق عالمًا فيه الألم والظلم والموت؛ وأن يسوع الناصري وُلد من أم عذراء؛ وأنه بعد إعدامه بأمر من الوالي الروماني بيلاطس البنطي، قام من قبره "في اليوم الثالث".

لماذا لم تكتفِ إجماع الكنائس المسيحية بقبول هذه الآراء المذهلة، بل جعلتها الشكل الحقيقي الوحيد للعقيدة المسيحية؟ تقليديا، أخبرنا المؤرخون أن الأرثوذكس اعترضوا على الآراء الغنوصية لأسباب دينية وفلسفية. بالتأكيد فعلوا ذلك؛ إلا أن التحقيق في المصادر الغنوصية المكتشفة حديثًا يشير إلى بُعد آخر للجدل. وهذا يشير إلى أن هذه المناقشات الدينية - أسئلة حول طبيعة الله، أو طبيعة المسيح - تحمل في الوقت نفسه آثارًا اجتماعية وسياسية حاسمة لتطور المسيحية كدين مؤسسي. وبعبارات مبسطة، فإن الأفكار التي تحمل مضامين تتعارض مع هذا التطور تصبح بمثابة "زندقة"؛ أما الأفكار التي تدعمه ضمناً فتصبح "أرثوذكسية".

من خلال التحقيق في نصوص نجع حمادي، إلى جانب المصادر المعروفة منذ أكثر من ألف عام من التقاليد الأرثوذكسية، يمكننا أن نرى كيف تتوافق السياسة والدين في تطور المسيحية. ونستطيع أن نرى، على سبيل المثال، التداعيات السياسية لمثل هذه العقائد الأرثوذكسية مثل القيامة الجسدية - وكيف أن وجهات النظر الغنوصية حول القيامة تحمل تداعيات معاكسة. ومن خلال هذه العملية، يمكننا أن نكتسب منظورًا جديدًا ومدهشًا حول أصول المسيحية.

THE GNOSTIC GOSPELS

I

الجدل حول قيامة المسيح:
حدث تاريخي أم رمز؟

"قام يسوع المسيح من القبر". وبهذا الإعلان بدأت الكنيسة المسيحية. ربما يكون هذا هو العنصر الأساسي للإيمان المسيحي؛ وهو بالتأكيد العنصر الأكثر تطرفًا. تحتفل الديانات الأخرى بدورات الميلاد والموت: تصر المسيحية على أنه في لحظة تاريخية فريدة، انعكست الدورة، وعاد رجل ميت إلى الحياة! بالنسبة لأتباع يسوع، كان هذا الحدث بمثابة نقطة تحول في تاريخ العالم، وعلامة نهايته القادمة. ومنذ ذلك الحين، اعترف المسيحيون الأرثوذكس في العقيدة بأن يسوع الناصري، "المصلوب والميت والمدفون"، قام "في اليوم الثالث". [1] يردد الكثيرون اليوم هذه العقيدة دون أن يفكروا فيما يقولون، ناهيك عن الإيمان بها فعلياً. في الآونة الأخيرة، قام بعض القساوسة واللاهوتيين والعلماء بتحدي الرؤية الحرفية للقيامة. ولتفسير هذه العقيدة، يشيرون إلى جاذبيتها النفسية لمخاوفنا وآمالنا العميقة؛ ولشرحها، يقدمون تفسيرات رمزية. لكن الكثير من التقاليد المبكرة تصر حرفيًا على أن رجلاً - يسوع - قد عاد إلى الحياة. إن ما يجعل هذه الروايات المسيحية

استثنائية إلى هذا الحد ليس الادعاء بأن أصدقاءه "رأوا" يسوع بعد وفاته ـ فقد كانت قصص الأشباح والهلوسة والرؤى أكثر شيوعاً في ذلك الوقت مما هي عليه الآن ـ بل إنهم رأوا إنساناً حقيقياً. في البداية، بحسب لوقا، فإن التلاميذ أنفسهم، في دهشتهم ورعبهم من ظهور يسوع بينهم، افترضوا على الفور أنهم يرون شبحه. ولكن يسوع تحداهم قائلا: "اُنْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ. جُسُّونِي وَانْظُرُوا فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي".[2] وبما أنهم ظلوا في حالة من عدم التصديق، طلب شيئًا ليأكله، وبينما كانوا ينظرون إليه في دهشة، أكل قطعة من السمك المشوي. النقطة واضحة: لا يمكن لأي شبح أن يفعل ذلك.

ولو أنهم قالوا إن روح يسوع بقيت على قيد الحياة، ونجت من التحلل الجسدي، لكان معاصروهم قد اعتقدوا أن قصصهم ذات معنى. قبل خمسمائة عام من ذلك الوقت، ادعى تلاميذ سقراط أن روح معلمهم خالدة. لكن ما قاله المسيحيون كان مختلفًا، وفي المصطلحات العادية، كان غير معقول تمامًا. إن نهائية الموت، التي كانت دائمًا جزءًا من التجربة الإنسانية، يتم تحويلها. يقارن بطرس بين داود الذي مات ودُفن، وكان قبره معروفًا جيدًا، ويسوع الذي، على الرغم من قتله، قام من القبر، "لأنه لم يكن ممكنًا أن يُمسك به" - أي بالموت.[3] يقول لوقا أن بطرس استبعد التفسير المجازي للحدث الذي قال إنه شهده: "(فأكلنا وشربنا معه بعد قيامته من بين الأموات)". [4]

ترتليان، الكاتب الموهوب للغاية (130م)، يتحدث باسم الأغلبية، فيحدد الموقف الأرثوذكسي: كما قام المسيح جسديًا من القبر، كذلك يجب على كل مؤمن أن يتوقع قيامة الجسد. لا يترك مجالا للشك. إنه لا يتحدث، كما يقول، عن خلود الروح: "أعتقد أن خلاص الروح لا يحتاج إلى نقاش: لأن جميع الزنادقة تقريبًا، بأي طريقة يقبلونه، على الأقل لا ينكرونه". [5] "إن ما يتم رفعه هو "هذا اللحم، الممزوج بالدم، المبني بالعظام، المتشابك مع الأعصاب، المتشابك مع الأوردة، (لحم) الذي ... ولد، و ... يموت، بلا شك إنسانيًا". [6] ويتوقع ترتليان أن فكرة معاناة المسيح وموته

وقيامته ستصدم قراءه؛ ويصر على أنه "يجب أن نؤمن بها، لأنها سخيفة!" "[7]

ومع ذلك فإن بعض المسيحيين -أولئك الذين يسميهم بالزناذقة- يعارضون هذا الرأي. دون أن ينكروا القيامة، فإنهم يرفضون التفسير الحرفي؛ ويجده البعض "مثيرًا للاشمئزاز، ومستفز للغاية، ومستحيلًا". يفسر المسيحيون الغنوصيون القيامة بطرق مختلفة. يقول البعض أن من يعيش القيامة لا يلتقي بالمسيح المقام جسديًا إلى الحياة، بل يلتقي بالمسيح على المستوى الروحي. قد يحدث هذا في الأحلام، أو في غيبوبة النشوة، أو في الرؤى، أو في لحظات التنوير الروحي. ولكن الأرثوذكس يدينون كل هذه التفسيرات؛ فيعلن ترتليان أن كل من ينكر قيامة الجسد هو زنذيق، وليس مسيحياً.

لماذا تبنى التقليد الأرثوذكسي الرؤية الحرفية للقيامة؟ ويصبح السؤال أكثر حيرة عندما ننظر إلى ما يقوله العهد الجديد عن هذا الموضوع. بعض الروايات، مثل القصة التي لاحظناها من لوقا، تحكي كيف ظهر يسوع لتلاميذه بالشكل الذي عرفوه من حياته الأرضية؛ كان يأكل معهم، ويدعوهم إلى لمسه، ليثبت لهم أنه "ليس شبحًا". ويروي يوحنا قصة مماثلة: إذ يعلن توما أنه لن يصدق أن يسوع قام فعلاً من القبر إلا إذا استطاع أن يراه ويلمسه شخصياً. عندما ظهر يسوع، قال لتوما: "هَاتِ إِصْبِعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِناً".[8] لكن هناك قصص أخرى، متجاورة مباشرة مع هذه القصص، تشير إلى وجهات نظر مختلفة بشأن القيامة. يروي كل من لوقا ومرقس أن يسوع ظهر "في شكل آخر"[3]- ليس شكله الأرضي السابق - لتلميذين بينما كانا يسيران على الطريق إلى عمواس. يقول لوقا أن التلاميذ، الذين كانوا في حالة من القلق الشديد بسبب موت يسوع، تحدثوا مع الغريب، على ما يبدو لعدة ساعات. فدعوه إلى العشاء، فلما جلس معهم ليبارك الخبز، عرفوه فجأة أنه يسوع. وفي تلك اللحظة "اختفى عن أنظارهم". [10] ويضع يوحنا أيضًا مباشرة قبل قصة "توما الشكاك" قصة أخرى من نوع مختلف تمامًا: مريم

المجدلية، التي كانت حزينة على يسوع بالقرب من قبره، ترى رجلاً تعتقد أنه البستاني. وعندما ينادي باسمها، تدرك فجأة وجود يسوع، لكنه يأمرها ألا تلمسه.[11]

فإذا كانت بعض قصص العهد الجديد تصر على رؤية حرفية للقيامة، فإن قصصًا أخرى تفتح المجال لتفسيرات مختلفة. يمكننا أن نقول أن بعض الأشخاص، في لحظات التوتر العاطفي الشديد، شعروا فجأة أنهم عاشوا حضور يسوع. يمكن قراءة تجربة بولس بهذه الطريقة. وبينما كان يسير على طريق دمشق، عازماً على القبض على المسيحيين، "فجأة أشرق حوله نور من السماء". "فسقط على الأرض" عندما سمع صوت يسوع يوبخه على الاضطهاد الذي كان ينوي أن يقوم به.[12] تقول إحدى روايات هذه القصة: "أما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا يبصرون أحداً"؛[13] وتقول رواية أخرى العكس (كما يروي لوقا أن بولس قال: "الذين كانوا معي رأوا النور ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كان يكلمني").[14] وبطبيعة الحال، دافع بولس نفسه في وقت لاحق عن التعليم المتعلق بالقيامة باعتباره أساسياً للإيمان المسيحي. ولكن على الرغم من أن نقاشه يُقرأ غالبًا على أنه حجة للقيامة الجسدية، إلا أنه ينتهي بالكلمات "فَأَقُولُ هَذَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ: إِنَّ لَحْماً وَدَماً لاَ يَقْدِرَانِ أَنْ يَرِثَا مَلَكُوتَ اللهِ وَلاَ يَرِثُ الْفَسَادُ عَدَمَ الْفَسَادِ." [15] يصف بولس الرسول القيامة بأنها "سر"، [16] التحول من الوجود الجسدي إلى الوجود الروحي.

إذا كانت روايات العهد الجديد قادرة على دعم مجموعة من التفسيرات، فلماذا أصر المسيحيون الأرثوذكس في القرن الثاني على الرؤية الحرفية للقيامة ورفضوا كل التفسيرات الأخرى باعتبارها زندقة؟ أعتقد أننا لا نستطيع الإجابة على هذا السؤال بشكل كافٍ طالما أننا ننظر إلى العقيدة من حيث محتواها الديني فقط. ولكن عندما ندرس تأثيرها العملي على الحركة المسيحية، يمكننا أن نرى، على نحو متناقض، أن عقيدة القيامة الجسدية تخدم أيضًا وظيفة سياسية أساسية: فهي تضفي الشرعية على سلطة بعض الرجال الذين يزعمون ممارسة القيادة الحصرية على الكنائس باعتبارهم خلفاء الرسول بطرس.

منذ القرن الثاني،

خدم هذا المبدأ في إثبات الخلافة الرسولية للأساقفة، والتي تشكل أساس السلطة البابوية حتى يومنا هذا. إن المسيحيين الغنوصيين الذين يفسرون القيامة بطرق أخرى لديهم ادعاء أقل بالسلطة: عندما يطالبون بالأولوية على الأرثوذكس، يتم إدانتهم باعتبارهم زنادقة.

لقد تطورت هذه السلطة السياسية والدينية بطريقة ملحوظة للغاية. وكما لاحظنا، ازدهرت أشكال مختلفة من المسيحية في السنوات الأولى للحركة المسيحية. ادعى مئات المعلمين المتنافسين أنهم يعلمون "العقيدة الحقيقية للمسيح" وأدانوا بعضهم البعض باعتبارهم محتالين. انقسم المسيحيون في الكنائس المنتشرة من آسيا الصغرى إلى اليونان والقدس وروما إلى فصائل، وتجادلوا حول قيادة الكنيسة. وقد ادعى الجميع أنهم يمثلون "التقليد الأصيل".

فكيف يستطيع المسيحيون حل مثل هذه الإدعاءات المتناقضة؟ وكان يسوع نفسه هو السلطة الوحيدة التي اعترفوا بها جميعًا. حتى خلال حياته، بين المجموعة الصغيرة التي سافرت معه عبر فلسطين، لم يتحدَّ أحد سلطة يسوع نفسه، ولم يضاهيه أحد. وعلى الرغم من كونه قائدًا مستقلًا وحازمًا، فقد نبذ يسوع مثل هذه الصفات بين أتباعه. يروي مرقس أنه عندما جاء إليه يعقوب ويوحنا على انفراد ليطلبا مناصب خاصة في إدارته، تحدث بشدة ضد طموحهما:

> وأنتم تعلمون أن الذين يفترض أنهم يحكمون الأمم يسودون عليهم، وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. ولكن لا يكون الأمر كذلك بينكم، بل من أراد أن يكون عظيماً فيكم فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون الأول فيكم فليكن للجميع عبداً. [17]

بعد إعدام يسوع، تشتت أتباعه، حزنًا ورعبًا على حياتهم. افترض معظمهم أن أعداءهم كانوا على حق، وأن الحركة ماتت مع سيدهم. فجأة، أخبار مذهلة هزت المجموعة. يقول لوقا إنهم سمعوا أن "الرب قام حقاً وظهر لسمعان (بطرس)!" [18]ماذا قال لبطرس؟ وتشير رواية لوقا إلى المسيحيين في الأجيال اللاحقة أنه سمى بطرس ابنًا له.

خليفة، يفوض إليه القيادة. يقول متى إنه خلال حياته، كان يسوع قد قرر بالفعل أن بطرس، "الصخرة"، هو الذي سيؤسس المؤسسة المستقبلية.[19] ويوحنا وحده يدعي أنه يروي ما قاله المسيح القائم: لقد أخبر بطرس أنه سيأخذ مكان يسوع كـ"راعي" للقطيع.[20]

ومهما كانت صحة هذا الادعاء، فإننا لا نستطيع التحقق منه أو دحضه على أسس تاريخية فحسب. ليس لدينا سوى شهادة من مصادر أخرى من المؤمنين الذين يؤكدون ذلك، والمتشككين الذين ينكرونه. ولكن ما نعرفه كحقيقة تاريخية هو أن بعض التلاميذ - وأبرزهم بطرس - زعموا أن القيامة حدثت. والأهم من ذلك أننا نعرف النتيجة: بعد وقت قصير من وفاة يسوع، تولى بطرس قيادة المجموعة كزعيم ومتحدث باسمها. وبحسب يوحنا، فقد تلقى سلطته من المصدر الوحيد الذي تعرفت عليه المجموعة، أي من يسوع نفسه، الذي كان يتكلم الآن من وراء القبر.

ما الذي يربط المجموعة التي اجتمعت حول يسوع بالمنظمة العالمية التي تطورت بعد 170 عامًا من وفاته إلى هرم من ثلاث درجات من الأساقفة والكهنة والشمامسة؟ أكد المسيحيون في الأجيال اللاحقة أن الادعاء بأن يسوع نفسه قد عاد إلى الحياة! يقول الباحث الألماني هانز فون كامبنهاوزن إنه بما أن "بطرس كان أول من ظهر له يسوع بعد قيامته"،[21] أصبح بطرس أول زعيم للمجتمع المسيحي. يمكن للمرء أن يجادل في ادعاء كامبنهاوزن على أساس أدلة العهد الجديد: إنجيلي مرقس ويوحنا يذكران مريم المجدلية، وليس بطرس، كأول شاهد على القيامة.[22] لكن الكنائس الأرثوذكسية التي ترجع أصولها إلى بطرس طورت التقليد - الذي استمر حتى يومنا هذا بين الكنائس الكاثوليكية وبعض الكنائس البروتستانتية - بأن بطرس كان "الشاهد الأول على القيامة"، وبالتالي الزعيم الشرعي للكنيسة. منذ وقت مبكر من القرن الثاني، أدرك المسيحيون العواقب السياسية المحتملة لـ "رؤية الرب القائم": في القدس، حيث نجح يعقوب، شقيق يسوع، في منافسة سلطة بطرس، أكدت إحدى التقاليد أن يعقوب، وليس بطرس (وبالتأكيد ليس مريم المجدلية) كان "الشاهد الأول للقيامة".

تشير أدلة العهد الجديد إلى أن يسوع ظهر للعديد من الأشخاص الآخرين إلى جانب بطرس - يقول بولس أنه ظهر ذات مرة لخمسمائة شخص في وقت واحد. ولكن منذ القرن الثاني، طورت الكنائس الأرثوذكسية وجهة نظر مفادها أن ظهورات القيامة معينة فقط هي التي تمنح السلطة لأولئك الذين تلقوها. كانت هذه ظهورات يسوع لبطرس وللأحد عشر (التلاميذ باستثناء يهوذا الإسخريوطي الذي خان يسوع وانتحر).[23] لاحظ الأرثوذكس الرواية في إنجيل متى، التي تروي كيف أعلن يسوع القائم من بين الأموات للأحد عشر أن سلطته وصلت الآن إلى أبعاد كونية: "لقد أعطي لي كل سلطان في السماء وعلى الأرض". ثم فوّض هذه السلطة إلى "الأحد عشر تلميذاً". [24]ويشير لوقا أيضًا إلى أنه على الرغم من أن كثيرين آخرين عرفوا يسوع، بل وشهدوا قيامته، فإن "الأحد عشر" وحدهم احتلوا منصب الشهود الرسميين، ومن ثم أصبحوا قادة رسميين للمجتمع بأكمله. يروي لوقا أن بطرس، بصفته المتحدث باسم المجموعة، اقترح أنه بما أن يهوذا الإسخريوطي قد انشق، فيجب الآن على الرجل الثاني عشر أن "يتولى المنصب" الذي تركه، ويعيد المجموعة إلى وضعها السابق باعتبارها "الاثني عشر". [25] "ولكن لكي يشترك في سلطة التلاميذ، أعلن بطرس أنه ينبغي

> أن يكون واحداً من الرجال الذين رافقونا طوال الزمان الذي فيه دخل الرب يسوع وخرج بيننا، منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا، أن يكون واحد من هؤلاء الرجال معنا شاهداً على قيامته."[26]

ماتياس، الذي استوفى هذه المؤهلات، تم اختياره و"تم تسجيله مع الرسل الأحد عشر". [27]

وبعد أربعين يومًا، وبعد أن أكمل نقل السلطة، سحب الرب القائم من بين الأموات فجأة حضوره الجسدي عنهم، وصعد إلى السماء بينما كانوا يشاهدونه بدهشة.[28] يرى لوقا، الذي يروي القصة، هذا الحدث كحدث عظيم. ومن الآن فصاعدًا، طوال مدة العالم، لن يتمكن أحد أبدًا من تجربة الحضور الفعلي للمسيح كما عاشها التلاميذ الإثني عشر أثناء حياته - وأربعين يومًا بعد وفاته. وبعد

ذلك الوقت، كما يروي لوقا، لم يتلق الآخرون سوى أشكال أقل مباشرة من التواصل مع المسيح. يعترف لوقا بأن استفانوس رأى رؤيا عن يسوع "واقفًا عن يمين الله"[29]؛ وأن بولس التقى بيسوع لأول مرة في رؤية درامية، ثم في غيبوبة[30] (يزعم لوقا أنه سجل كلماته: "ولما رجعت إلى أورشليم وكنت أصلي في الهيكل، وقعت في غيبة فرأيته يكلمني"[31]). ومع ذلك، فإن رواية لوقا تشير إلى أن هذه الحوادث لا يمكن مقارنتها بالأحداث الأصلية التي شهد بها الاثنا عشر. في المقام الأول، فقد حدثت هذه الأمور لأشخاص غير مدرجين ضمن الاثني عشر. ثانياً، لم تحدث إلا بعد صعود يسوع بجسده إلى السماء. ثالثًا، على الرغم من أن الرؤى والأحلام والغيبوبة النشوانية أظهرت آثارًا للحضور الروحي للمسيح، إلا أن تجربة الاثني عشر كانت مختلفة تمامًا. إنهم وحدهم، بعد أن عرفوا يسوع طوال حياته، استطاعوا أن يشهدوا على تلك الأحداث الفريدة التي عرفوها عن كثب - وعلى قيامة من مات، وعلى حضوره الجسدي الكامل معهم.[32]

مهما كان رأينا في تاريخية الرواية الأرثوذكسية، فإننا نستطيع أن نعجب ببراعتها. إن هذه النظرية - التي تقول بأن كل السلطة مستمدة من تجربة بعض الرسل مع المسيح القائم من بين الأموات، وهي تجربة انتهت الآن إلى الأبد - تحمل آثاراً هائلة على البنية السياسية للمجتمع. أولا، كما أشار الباحث الألماني آرل هول، فإن هذا النص يقيد دائرة القيادة بمجموعة صغيرة من الأشخاص الذين يقف أعضاؤهم في موقع سلطة لا تقبل الجدل.[33] ثانياً، يشير هذا النص إلى أن الرسل فقط كان لهم الحق في تنصيب القادة المستقبليين خلفاء لهم.[34] استخدم المسيحيون في القرن الثاني رواية لوقا لوضع الأساس لإنشاء سلاسل قيادة محددة ومقيدة لجميع الأجيال المستقبلية من المسيحيين. أي زعيم محتمل للمجتمع يجب أن يستمد، أو يدعي أنه يستمد، السلطة من نفس الرسل. ومع ذلك، وفقًا للرأي الأرثوذكسي، لا يمكن لأحد أن يدعي أبدًا أنه يعادل سلطتهم - ناهيك عن تحديها. إن ما عاشه الرسل وشهد به خلفاؤهم لا يمكن أن يتحقق بأنفسهم؛ بل عليهم فقط أن يؤمنوا بشهادة الرسل ويحموها وينقلوها إلى الأجيال القادمة. [35]

لقد حققت هذه النظرية نجاحا باهرا: فعلى مدى ما يقرب من ألفي عام، قبل المسيحيون الأرثوذكس وجهة النظر القائلة بأن الرسل وحدهم يمتلكون السلطة الدينية النهائية، وأن ورثتهم الشرعيين الوحيدين هم الكهنة والأساقفة، الذين يعود تاريخ تعيينهم إلى نفس الخلافة الرسولية. وحتى اليوم، يعزو البابا فضله - وأولويته التي يدّعيها على الباقين - إلى بطرس نفسه، "أول الرسل"، لأنه كان "الشاهد الأول على القيامة".

لكن المسيحيين الغنوصيين رفضوا نظرية لوقا. أطلق بعض الغنوصيين على الرؤية الحرفية للقيامة اسم "إيمان الحمقى". [36] أصرّوا على أن القيامة لم تكن حدثًا فريدًا في الماضي: بل إنها ترمز إلى كيفية إمكانية تجربة حضور المسيح في الحاضر. إن ما يهم ليس الرؤية الحرفية، بل الرؤية الروحية.[37] وأشاروا إلى أن كثيرين ممن شهدوا أحداث حياة يسوع ظلوا عمى عن معناها. إن التلاميذ أنفسهم كثيراً ما أساءوا فهم ما قاله يسوع: أولئك الذين أعلنوا أن سيدهم الميت قد عاد جسدياً إلى الحياة أخطأوا في فهم حقيقة روحية على أنها حدث حقيقي.[38] ولكن التلميذ الحقيقي ربما لم ير يسوع الأرضي قط، لأنه ولد في الوقت الخطأ، كما قال بولس عن نفسه.[33] ومع ذلك فإن هذه الإعاقة الجسدية قد تصبح ميزة روحية: مثل هؤلاء الأشخاص، مثل بولس، قد يلتقون بالمسيح أولاً على مستوى الخبرة الداخلية.

كيف نعيش حضور المسيح؟ ويفسر مؤلف إنجيل مريم، وهو أحد النصوص الغنوصية القليلة التي اكتشفت قبل نجع حمادي، ظهورات القيامة على أنها رؤى وردت في الأحلام أو في غيبوبة نشوة. يذكرنا هذا الإنجيل الغنوصي بالتقاليد المسجلة في مرقس ويوحنا، بأن مريم المجدلية كانت أول من رأى المسيح القائم.[40] ويقول يوحنا أن مريم رأت يسوع في صباح قيامته، وأنه ظهر للتلاميذ الآخرين فقط في وقت لاحق، في مساء نفس اليوم.[41] ووفقًا لإنجيل مريم، فإن مريم المجدلية، عندما رأت الرب في رؤيا، سألته: "كيف يرى الذي يرى الرؤيا؟" (من خلال) النفس، (أو) من خلال الروح؟ [42] فأجاب بأن الرائي يدرك بالعقل. تحكي لنا رؤيا بطرس، التي اكتُشفت في نجع حمادي، كيف

رأى بطرس، وهو في حالة ذهول، المسيح، الذي أوضح له: "أنا الروح العقلاني الممتلئ بالنور الساطع". [43] تذكر الروايات الغنوصية في كثير من الأحيان كيف يستجيب المتلقون لحضور المسيح بمشاعر مكثفة - الرعب والرهبة والضيق والفرح.

ومع ذلك فإن هؤلاء الكتاب الغنوصيين لا يرفضون الرؤى باعتبارها خيالات أو هلوسات. إنهم يحترمون - بل ويجلون - مثل هذه التجارب التي من خلالها تكشف الحدس الروحي عن بصيرة في طبيعة الواقع. يقول أحد المعلمين الغنوصيين، الذي عُثر في نجع حمادي على أطروحته عن البعث، وهي رسالة إلى ريجينوس، تلميذه: "لا تظن أن البعث هو شبح (*phantasia*؛ حرفيًا، "خيال"). إنه ليس شبحًا، بل هو شيء حقيقي. ويتابع قائلاً: "بدلاً من ذلك، ينبغي علينا أن نؤكد أن العالم هو مجرد ظهور، وليس قيامة". [44] كمعلم بوذي، يواصل معلم ريجينوس، الذي لم يذكر اسمه، شرحه بأن الوجود البشري العادي هو موت روحي. لكن القيامة هي لحظة التنوير: "إنها... الكشف عما هو موجود حقًا... والهجرة (*metabole* - التغيير، الانتقال) إلى الجديد". [45] من يدرك هذا يصبح حيًا روحياً. وهذا يعني، كما يعلن، أنه يمكنك "القيامة من بين الأموات" الآن: "هل أنت - أنت الحقيقي - مجرد فساد؟ ... لماذا لا تفحص نفسك وترى أنك قمت؟" [46]ويعبر نص ثالث من نجع حمادي، وهو إنجيل فيليب، عن نفس الرأي، ويسخر من المسيحيين الجهلة الذين يأخذون القيامة حرفيًا. "إن الذين يقولون إنهم سيموتون أولاً ثم يقومون هم على خطأ." [47] بل يجب عليهم أن "ينالوا القيامة وهم أحياء". يقول المؤلف ساخرًا إنه بمعنى ما، من الطبيعي إذن "أن نقوم 'في هذا الجسد'، لأن كل شيء موجود فيه!" [48]

إن ما أثار اهتمام هؤلاء الغنوصيين أكثر من الأحداث الماضية المنسوبة إلى "يسوع التاريخي" هو إمكانية لقاء المسيح القائم في الوقت الحاضر.[49] ويوضح إنجيل مريم التناقض بين وجهتي النظر الأرثوذكسية والغنوصية. وتذكر القصة ما رواهُ مرقس:

> وبعد أن قام باكراً في أول الأسبوع ظهر أولاً لمريم المجدلية... ذهبت وأخبرت

> الذين كانوا معه، إذ كانوا ينوحون ويبكون. ولكن لما سمعوا أنه حي وأنها رأته لم يصدقوا. [50]

مع فتح إنجيل مريم، كان التلاميذ يندبون موت يسوع ويشعرون بالرعب على حياتهم. ثم وقفت مريم المجدلية لتشجعهم، متذكرة حضور المسيح الدائم معهم: "لا تبكوا، ولا تحزنوا، ولا تشكوا، لأن نعمته ستكون معكم بالكامل، وستحميكم". [51] يدعو بطرس مريم "اخبرينا بأقوال المخلص التي تتذكرينها". [52] ولكن لدهشة بطرس، لم تروي مريم حكايات من الماضي؛ بل أوضحت أنها رأت الرب للتو في رؤية استقبلتها من خلال العقل، ثم استمرت في إخبار ما كشفه لها. وعندما انتهت مريم،

> صمتت، لأن المخلص كان قد تكلم معها في هذه اللحظة. فأجاب أندراوس وقال للإخوة: "قولوا ما تريدون بشأن ما قالته". أنا، على الأقل، لا أعتقد أن المخلص قال هذا. فمن المؤكد أن هذه التعاليم هي أفكار غريبة! "[53]

يتفق بطرس مع أندراوس، ساخرًا من فكرة أن مريم رأت الرب بالفعل في رؤيتها. ثم تستمر القصة،

> فبكت مريم وقالت لبطرس: يا أخي بطرس، ماذا تظن؟ هل تعتقد أنني فكرت في هذا بنفسي في قلبي؟ هل تعتقد أنني أكذب بشأن المخلص؟ فأجاب لاوي وقال لبطرس: يا بطرس، أنت دائمًا حاد الطبع... إذا كان المخلص قد جعلها جديرة، فمن أنت حتى ترفضها؟ [54]

وأخيرًا، انضمت مريم إلى الرسل الآخرين عندما خرجوا للتبشير. يبدو أن بطرس، الذي يمثل الموقف الأرثوذكسي، ينظر إلى الأحداث الماضية، متشككًا في أولئك الذين "يرون الرب" في الرؤى: أما مريم، التي تمثل الغنوصي، فتزعم أنها تشعر بوجوده المستمر. [55]

أدرك هؤلاء الغنوصيون أن نظريتهم، مثل النظرية الأرثوذكسية، تحمل دلالات سياسية. وهذا يشير إلى أن من "يرى الرب" من خلال الرؤية الداخلية يستطيع أن يدعي أن سلطته/سلطتها

تساوي، أو تتجاوز، سلطة الاثني عشر - وخلفائهم. تأملوا في التداعيات السياسية لإنجيل مريم: بطرس وأندراوس، اللذان يمثلان هنا زعماء الجماعة الأرثوذكسية، يتهمان مريم -الغنوصية- بالتظاهر بأنها رأت الرب من أجل تبرير الأفكار الغريبة والخيالات والأكاذيب التي تخترعها وتنسبها إلى الوحي الإلهي. إن مريم تفتقر إلى المؤهلات المناسبة للقيادة، من وجهة النظر الأرثوذكسية: فهي ليست واحدة من "الاثني عشر". ولكن كما وقفت مريم في وجه بطرس، فإن الغنوصيين الذين يعتبرونها نموذجاً لهم يتحدون سلطة هؤلاء الكهنة والأساقفة الذين يدعون أنهم خلفاء بطرس.

ونحن نعلم أن المعلمين الغنوصيين تحدوا الأرثوذكس بهذه الطريقة على وجه التحديد. بينما، وفقًا لهم، اعتمد الأرثوذكس فقط على التعاليم العلنية الظاهرة التي قدمها المسيح والرسل "للكثيرين"، ادعى المسيحيون الغنوصيون أنهم قدموا، بالإضافة إلى ذلك، تعاليمهم السرية، التي لا يعرفها إلا القليل.[56] يشير المعلم والشاعر الغنوصي فالانتينوس (حوالي 140) إلى أنه حتى خلال حياته، شارك يسوع تلاميذه بعض الأسرار، والتي أبقاها سرية عن الغرباء. [57] وفقًا لإنجيل مرقس في العهد الجديد، قال يسوع لتلاميذه،

> . . . "لقد أعطي لكم سر ملكوت الله، وأما الذين هم من خارج فكل شيء لهم بالأمثال، حتى يبصروا ولا يبصروا، ويسمعوا ولا يفهموا، لئلا يرجعوا فيغفر لهم." [58]

ويروي متى أيضًا أن يسوع عندما تكلم علنًا، كان يتكلم بالأمثال فقط؛ وعندما سأله تلاميذه عن السبب، أجاب: "لقد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات، وأما أولئك فلم يُعط لهم". [59]وفقًا للغنوصيين، فإن بعض التلاميذ، باتباع تعليماته، احتفظوا بتعاليم يسوع الباطنية سرًا: لقد علموها بشكل خاص فقط، لبعض الأشخاص الذين أثبتوا نضجهم الروحي، والذين

تأهلوا لـ"للتأهل في الغنوص" - أي في المعرفة السرية.

بعد الصلب، يزعمون أن المسيح القائم واصل الكشف عن نفسه لبعض التلاميذ، فاتحًا لهم، من خلال الرؤى، رؤى جديدة في الأسرار الإلهية. يقول بولس، مشيرًا إلى نفسه بشكل غير مباشر بصيغة الغائب، إنه "اختُطف إلى السماء الثالثة، أفي الجسد أم خارج الجسد، لست أعلم". هناك، في غيبوبة من النشوة، سمع "أشياء لا يمكن أن تُقال، ولا يجوز للإنسان أن ينطق بها". [60]يقول بولس إنه اكتشف من خلال تواصله الروحي مع المسيح "أسرارًا خفية" و"حكمة سرية"، ويوضح أنه لا يشاركها إلا مع هؤلاء المسيحيين الذين يعتبرهم "ناضجين"[61] ولكن ليس مع الجميع. لقد اتبع العديد من علماء الكتاب المقدس المعاصرين، والذين هم أنفسهم من أتباع العقيدة الأرثوذكسية، رودولف بولتمان، الذي أصر على أن بولس لم يكن يعني ما يقوله في هذه الرسالة. [62] وهم يزعمون أن بولس لم يدع أن لديه تقليدًا سريًا؛ ومن الواضح أن مثل هذا الادعاء من شأنه أن يجعل بولس يبدو "غنوصيًا" للغاية. ومؤخراً اتخذ البروفيسور روبن سكروجز وجهة نظر معاكسة، مشيراً إلى أن بولس يقول بوضوح إنه يمتلك حكمة سرية.[63] وقد توصل المسيحيون الغنوصيون في العصور القديمة إلى نفس النتيجة. حتى أن فالانتينوس، الشاعر الغنوصي الذي سافر من مصر للتدريس في روما (حوالي عام 140)، ادعى أنه تعلم بنفسه تعاليم بولس السرية من ثيوداس، أحد تلاميذ بولس نفسه.

ويقول أتباع فالانتينوس أن أناجيلهم ورؤاهم فقط هي التي تكشف تلك التعاليم السرية. تروي هذه الكتابات قصصًا لا حصر لها عن المسيح القائم - الكائن الروحي الذي مثله يسوع - وهي شخصية أبهرتهم أكثر بكثير من مجرد يسوع البشري، الحاخام الغامض من الناصرة. ولهذا السبب، فإن الكتابات الغنوصية غالبًا ما تعكس نمط أناجيل العهد الجديد. بدلاً من سرد تاريخ يسوع من خلال السيرة الذاتية، من الولادة إلى الموت، تبدأ الروايات الغنوصية حيث تنتهي الروايات الأخرى - بقصص عن ظهور المسيح الروحي لتلاميذه. على سبيل المثال، تبدأ قصة الكتاب السري ليوحنا عندما يروي يوحنا كيف خرج بعد الصلب في "حزن شديد":

"وفي الحال... انفتحت السماوات، وأشرقت الخليقة التي تحت السماء، وتزعزع العالم." (كنت خائفًا، ورأيت في النور طفلًا... وبينما كنت أنظر أصبح مثل رجل عجوز.) فتغيرت صورته مرة أخرى، فصار مثل العبد... رأيتُ... صورةً بأشكالٍ متعددةٍ في الضوء...، [64]

وبينما كان مندهشًا، تحدث الحاضر:

"يوحنا، يوحنا، لماذا تشك، ولماذا أنت خائف؟ أنت لست غريبًا على هذا النموذج، أليس كذلك؟ . . . . لا تَكُنْ خائفاً! أنا الذي (معك) دائمًا... (جئتكم لأعلمكم ما هو كائن وما كان وما سيكون)..."[65]

وتروي رسالة بطرس إلى فيليب، التي اكتشفت أيضًا في نجع حمادي، أنه بعد وفاة يسوع، كان التلاميذ يصلون على جبل الزيتون عندما

ظهر نور عظيم حتى أن الجبل أشرق من أمام الذي ظهر. ونادى عليهم صوت قائلا: "اسمعوا... أنا يسوع المسيح، الذي هو معكم إلى الأبد." [66]

ثم عندما سأله التلاميذ عن أسرار الكون، "خرج صوت من النور" يجيبهم. وتحكي حكمة يسوع المسيح قصة مماثلة. وهنا مرة أخرى يجتمع التلاميذ على الجبل بعد موت يسوع، عندما "ظهر لهم الفادي، ليس في صورته الأصلية، بل في الروح غير المنظور". "ولكن ظهوره كان كمظهر ملاك نور عظيم." ردًا على دهشتهم ورعبهم، ابتسم وعرض عليهم أن يعلمهم "أسرار (*mysteria*؛ حرفيًا، "أسرار"] الخطة المقدسة" للكون ومصيره. [67]

ولكن التناقض مع النظرة الأرثوذكسية صارخ. [68] هنا لا يظهر يسوع في الشكل البشري العادي الذي يعرفه التلاميذ - وبالتأكيد ليس في شكل جسدي. إما أنه يظهر كحضور مضيء يتحدث من النور، أو أنه يحول نفسه إلى أشكال متعددة. يتناول إنجيل فيليب نفس الموضوع:

> فأمسكهم يسوع جميعاً خفية، لأنه لم يظهر نفسه بالطريقة التي هو عليها، بل بالطريقة التي يستطيعون أن يروه بها. لقد كشف عن نفسه لهم جميعا. "فأظهر نفسه للكبير عظيمًا... وللصغير صغيرًا."[69]

بالنسبة للتلميذ غير الناضج، يبدو يسوع كطفل؛ وبالنسبة للتلميذ الناضج، كرجل عجوز، رمز للحكمة. كما يقول المعلم الغنوصي ثيودوتوس، "كل شخص يتعرف على الرب بطريقته الخاصة، وليس الجميع على حد سواء". [70]

واتهم الزعماء الأرثوذكس، ومن بينهم إيرينيئوس، الغنوصيين بالاحتيال. وقد أثبتت نصوص مثل تلك التي اكتشفت في نجع حمادي - إنجيل توما، وإنجيل فيليب، ورسالة بطرس إلى فيليب، وكتاب يوحنا السري - بحسب إيرينيئوس، أن الزنادقة كانوا يحاولون تمرير ما اخترعوه على أنه "رسولي". ويصرح بأن أتباع المعلم الغنوصي فالانتينوس، كونهم "متهورين تمامًا"،

> يقدمون مؤلفاتهم الخاصة، في حين يتفاخرون بأن لديهم أناجيل أكثر مما هو موجود بالفعل... إنهم في الحقيقة لا يملكون إنجيلًا خاليًا من التجديف. فإن ما نشروه... يختلف تمامًا عما نُقل إلينا من الرسل. [71]

ويقول إيرينيئوس إن ما يثبت صحة الأناجيل الأربعة هو أنها في الواقع كتبت من قبل تلاميذ يسوع وأتباعهم، الذين شهدوا شخصياً الأحداث التي وصفوها. وقد تحدى بعض علماء الكتاب المقدس المعاصرين هذا الرأي: إذ يعتقد قليلون اليوم أن معاصري يسوع هم الذين كتبوا بالفعل أناجيل العهد الجديد. ورغم أن إيرينيئوس، في دفاعه عن شرعيتها الحصرية، أصر على أنها كتبت على يد أتباع يسوع أنفسهم، فإننا لا نعرف شيئاً تقريباً عن الأشخاص الذين كتبوا الأناجيل التي نسميها متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. كل ما نعرفه هو أن هذه الكتابات تنسب إلى الرسل (متى ويوحنا) أو أتباع الرسل (مرقس ولوقا).

وبنفس الطريقة، نسب المؤلفون الغنوصيون كتاباتهم السرية إلى تلاميذ مختلفين. مثل أولئك الذين كتبوا أناجيل

العهد الجديد، ربما تكون قد تلقت بعض مادتها من التقاليد المبكرة. ولكن في حالات أخرى، فإن الاتهام بأن الغنوصيين اخترعوا ما كتبوه يحتوي على بعض الحقيقة: فقد اعترف بعض الغنوصيين علانية بأنهم استمدوا معرفتهم من تجربتهم الخاصة.

فكيف يستطيع مسيحي يعيش في القرن الثاني، على سبيل المثال، أن يكتب كتاب يوحنا السري؟ يمكننا أن نتخيل المؤلف في الوضع الذي ينسبه إلى يوحنا في بداية الكتاب: مضطربًا بالشكوك، يبدأ في التأمل في معنى رسالة يسوع ومصيره. وفي عملية التساؤل الداخلي هذه، قد تظهر الإجابات للعقل بشكل تلقائي؛ وقد تظهر أنماط متغيرة من الصور. إن الشخص الذي يفهم هذه العملية ليس من منظور علم النفس الحديث، كنشاط للخيال أو اللاوعي، ولكن من منظور ديني، يمكنه أن يختبرها كأشكال من التواصل الروحي مع المسيح. وبما أن المؤلف يرى في تواصله مع المسيح استمرارًا لما استمتع به التلاميذ، فإنه عندما يصوغ "الحوار" في شكل أدبي، قد يتمكن من إعطائهم دور السائلين. قليلون من معاصريه - باستثناء الأرثوذكس الذين يعتبرهم "حرفيين" - يتهمونه بالتزوير؛ بل إن عناوين هذه الأعمال تشير إلى أنها كتبت "بروح" يوحنا، أو مريم المجدلية، أو فيليب، أو بطرس.

إن نسب الكتابة إلى رسول معين قد يحمل أيضًا معنى رمزيًا. يشير عنوان إنجيل مريم إلى أن وحيه جاء من خلال اتصال مباشر وحميم مع المخلص. إن الإشارة إلى وجود علاقة جنسية بينه وبين مريم المجدلية قد تشير إلى ادعاءات بالتواصل الصوفي؛ فعبر التاريخ، اختار الصوفيون من العديد من التقاليد الاستعارات الجنسية لوصف تجاربهم. قد يوحي عنوانا إنجيل توما وكتاب توما المزعوم (المنسوب إلى "الأخ التوأم" ليسوع) بأنك "أيها القارئ، الأخ التوأم ليسوع". من يفهم هذه الكتب يكتشف، مثل توما، أن يسوع هو "توأمه"، "ذاته الروحية الأخرى". إن كلمات يسوع لتوما موجهة إلى القارئ:

> "بما أنه قيل أنك توأم روحي ورفيقي الحقيقي، فافحص نفسك حتى تتمكن من فهم من أنت..." أنا معرفة الحقيقة. فبينما أنت ترافقني، على الرغم من أنك لا تفهم (ذلك)، فقد عرفته بالفعل، وسوف تُدعى "الشخص الذي يعرف نفسه". فمن لم يعرف نفسه لم يعرف شيئًا، أما من عرف نفسه فقد اكتسب في الوقت نفسه معرفة عمق كل شيء. [72]

مثل دوائر الفنانين اليوم، اعتبر الغنوصيون أن الإبداع والابتكار الأصلي هو علامة أي شخص يصبح حيًا روحانيًا. كان كل واحد منهم، مثل طلاب الرسام أو الكاتب، يتوقع أن يعبر عن تصوراته الخاصة من خلال مراجعة وتحويل ما تعلمه. من كان يكرر كلام معلمه فقط كان يعتبر غير ناضج. يشكو الأسقف إيرينيئوس من أن

> كل واحد منهم ينتج شيئًا جديدًا كل يوم، وفقًا لقدراته؛ فلا أحد يعتبر مبتدئًا (أو "ناضجًا") بينهم ما لم يطور بعض الخيالات الضخمة! [73]

ويتهمهم بأنهم "يتفاخرون بأنهم مكتشفو ومخترعو هذا النوع من الخيال العلمي"، ويتهمهم بخلق أشكال جديدة من الشعر الأسطوري. لا أشك في أنه على حق: فالأدب الغنوصي في القرنين الأول والثاني يتضمن بعض القصائد الرائعة، مثل "رقصة الصليب المستديرة"[74]و"الرعد، العقل المثالي". الأمر الأكثر إساءة، من وجهة نظره، هو أنهم يعترفون بأن لا شيء يدعم كتاباتهم سوى حدسهم الخاص. عندما يتم تحديهم، "فإنهم إما يذكرون المشاعر الإنسانية المجردة، أو يشيرون إلى الانسجام الذي يمكن رؤيته في الخلق":[75]

> إنهم مسؤولون عن... وصف المشاعر الإنسانية، والعواطف، والميول العقلية... ونسب ما يحدث للبشر، وما يدركون أنهم يمرون به، إلى الكلمة الإلهية. [76]

وعلى هذا الأساس، فإنهم، مثل الفنانين، يعبرون عن رؤيتهم الخاصة - معرفتهم الخاصة - من خلال خلق أساطير جديدة، وقصائد، وطقوس، و"حوارات" مع المسيح، واكتشافات، وروايات لرؤاهم.

مثل المعمدانيين، والكويكرز، وكثيرين غيرهم، يعتقد الغنوصي أن من يتلقى الروح يتواصل مباشرة مع الإلهي. يقول أحد تلاميذ فالانتينوس، المعلم الغنوصي هرقليون (حوالي 160)، إن "الناس يؤمنون في البداية بسبب شهادة الآخرين..." ولكن بعد ذلك "يصلون إلى الإيمان من الحقيقة نفسها". [77] لذلك ادعى معلمه، فالانتينوس، أنه تعلم أولاً تعاليم بولس السرية؛ ثم شهد رؤية أصبحت مصدر غنوصه الخاص:

> رأى طفلاً حديث الولادة، وعندما سأله من هو، أجاب الطفل: "أنا الكلمة (الوغس)". [78]

ماركوس، وهو تلميذ آخر لفالانتينوس (حوالي 150)، والذي أصبح فيما بعد معلمًا، يروي كيف توصل إلى معرفته المباشرة للحقيقة. يقول أن الرؤية

> نزلت عليه... في صورة امرأة... وشرحت له وحده طبيعتها الخاصة، وأصل الأشياء، وهو ما لم يكشفه لأحد قط، إلهيًا كان أو بشريًا. [79]

فقال له الحاضر:

> "أريد أن أريك الحقيقة نفسها؛ لأنني أنزلتها من الأعلى، حتى تتمكن من رؤيتها بدون حجاب، وتفهم جمالها." [80]

ويضيف ماركوس أن هذه هي الطريقة التي جاءت بها "الحقيقة العارية" إليه في شكل امرأة، وكشفت له أسرارها. ويتوقع ماركوس، بدوره، أن كل من يتأهل في الغنوص سوف يتلقى أيضًا مثل هذه التجارب. في طقوس التأهيل، بعد استحضار الروح، يأمر المرشح بالتحدث بالنبوة،[81] لإثبات أن الشخص قد تلقى اتصالاً مباشراً مع الإلهي.

ما الذي يميز هؤلاء الغنوصيين عن أولئك الذين ادعوا، طوال تاريخ المسيحية، تلقي رؤى وإيحاءات خاصة، والذين عبروا عنها بالفن،

الشعر والأدب الصوفي؟ يتوقع المسيحيون الذين ينتمون إلى التقليد الأرثوذكسي، الكاثوليك والبروتستانت، أن الوحي الذي يتلقونه سوف يؤكد (من حيث المبدأ على الأقل) التقليد الرسولي: وهذا، يتفقون عليه، يحدد حدود الإيمان المسيحي. إن تعليم الرسل الأصلي يظل هو المعيار؛ وكل ما ينحرف عنه فهو زندقة. ويصرح الأسقف إيرينيئوس أن الرسل،

مثل رجل غني (يودع أمواله) في البنك، يضع في الكنيسة كل ما ينتمي إلى الحقيقة بالكامل: حتى يتمكن كل شخص، من يشاء، من أن يستمد منها ماء الحياة. [82]

يؤمن المسيحي الأرثوذكسي "بالحقيقة الوحيدة من الرسل، والتي تنتقل عن طريق الكنيسة". وهو لا يقبل أي أناجيل سوى الأناجيل الأربعة في العهد الجديد التي تشكل الشريعة (حرفيًا، "المبادئ التوجيهية") لقياس كل العقائد والممارسات المستقبلية.

ولكن المسيحيين الغنوصيين، الذين عارضهم إيرينيئوس، افترضوا أنهم قد ذهبوا إلى ما هو أبعد بكثير من تعليم الرسل الأصلي. وكما يفترض كثير من الناس اليوم أن أحدث التجارب في العلوم أو علم النفس سوف تتفوق على التجارب السابقة، كذلك توقع الغنوصيون أن الحاضر والمستقبل سوف يؤديان إلى زيادة مستمرة في المعرفة. ويرى إيرينيئوس أن هذا دليل على غطرستهم:

إنهم يعتبرون أنفسهم "ناضجين"، بحيث لا يمكن مقارنة أحد بهم في عظمة غنوصهم، حتى لو ذكرت بطرس أو بولس أو أي من الرسل الآخرين... إنهم يتصورون أنهم اكتشفوا أكثر مما اكتشفه الرسل، وأن الرسل بشروا بالإنجيل وهم لا يزالون تحت تأثير الآراء اليهودية، ولكنهم أنفسهم أكثر حكمة وذكاءً من الرسل. [83]

والذين يعتبرون أنفسهم "أكثر حكمة من الرسل" يعتبرون أنفسهم أيضًا "أكثر حكمة من الكهنة". [84] فما يقوله الغنوصيون عن الرسل ـ وخاصة عن الاثني عشر ـ يعبر عن موقفهم تجاه الكهنة والأساقفة الذين يزعمون أنهم يقفون في الخلافة الرسولية الأرثوذكسية.

ولكن على الرغم من تأكيدهم على الإبداع الحر، فإن بعض المعلمين الغنوصيين

يزعمون - بشكل غير متسق إلى حد ما - أن لديهم مصادرهم السرية الخاصة "بالتقليد الرسولي". وبذلك فإنهم يزعمون أنهم قادرون على الوصول إلى خطوط مختلفة من الخلافة الرسولية عن تلك المقبولة عمومًا في الكنائس. يشرح المعلم الغنوصي بطليموس لفلورا، وهي امرأة يراها مؤهلة محتملة، أننا "تلقينا نحن أيضًا" تقليدًا رسوليًا من سلسلة من المعلمين - وهو ما يقول إنه يقدم إضافة باطنية إلى المجموعة الكنسية لكلمات يسوع. [85]

غالبًا ما ينسب المؤلفون الغنوصيون تقاليدهم الخاصة إلى أشخاص يقفون خارج دائرة الاثني عشر - بولس، ومريم المجدلية، ويعقوب. يصر البعض على أن الاثني عشر -بما فيهم بطرس- لم يتلقوا الغنوص عندما شهدوا لأول مرة لقيامة المسيح. وتقول مجموعة أخرى من الغنوصيين، الذين يطلق عليهم اسم السيثيين لأنهم عرفوا أنفسهم بأنهم أبناء سيث، الطفل الثالث لآدم وحواء، إن التلاميذ، الذين خدعوا "بخطأ عظيم جدًا"، تصوروا أن المسيح قام من بين الأموات في صورة جسدية. ولكن المسيح القائم ظهر "لبعض هؤلاء التلاميذ، الذين أدرك أنهم قادرون على فهم مثل هذه الأسرار العظيمة"،[86] وعلمهم أن يفهموا قيامته من الناحية الروحية، وليس الجسدية. علاوة على ذلك، وكما رأينا، يُصوِّر إنجيل مريم المجدلية (التي لم يُقرّها الأرثوذكس قطّ رسولةً) على أنها صاحبة الرؤى والبصيرة التي تفوق بطرس بكثير. ويُشيد بها حوار المخلص ليس فقط كصاحبة رؤى، بل كرسولة تفوقت على الجميع. إنها "المرأة التي عرفت الكل". [87]يزعم فالانتينوس أن تقليده الرسولي يأتي من بولس - وهو شخص آخر من خارج الكنيسة الاثني عشر، ولكنه واحد من أعظم السلطات في الكنيسة الأرثوذكسية، وبعد لوقا، المؤلف الأكثر تمثيلاً في العهد الجديد.

ويوضح الغنوصيون الآخرون أن بعض أعضاء الاثني عشر تلقوا فيما بعد رؤى و وحي خاص، وبالتالي بلغوا التنوير. يصف سفر رؤيا بطرس كيف اختبر بطرس، وهو في حالة غيبوبة عميقة، حضور المسيح، الذي فتح عينيه على البصيرة الروحية:

> قال لي (المخلص)... "ضع يديك على عينيك... وقل ما ترى!" ولكن عندما

> فعلت ذلك، لم أر شيئا. قلت: "لا أحد يرى (بهذه الطريقة)". وقال لي مرة أخرى: "افعلها مرة أخرى". فجاء إليّ خوف وفرح، لأني رأيت نورًا جديدًا أعظم من نور النهار. ثم نزل على المخلص. وأخبرته بالأشياء التي رأيتها. [88]

يخبرنا كتاب يعقوب السري كيف أن "التلاميذ الاثني عشر كانوا جميعًا جالسين معًا، يتذكرون ما قاله المخلص لكل واحد منهم، سواء كان ذلك سرًا أو علانية، ويرتبونه في الكتب". [89]ولكن عندما ظهر المسيح، اختار بطرس ويعقوب، واختارهما من بين الباقين ليخبرهما بما لم يكن ينبغي للآخرين أن يعرفوه. إن أي نسخة من هذه النظرية تحمل نفس الدلالة: فهي تؤكد تفوق الأشكال الغنوصية للتقاليد السرية - وبالتالي المعلمين الغنوصيين - على أشكال الكهنة والأساقفة، الذين لا يستطيعون تقديم سوى التقليد "المشترك". وعلاوة على ذلك، ولأن التقاليد السابقة، من وجهة النظر هذه، كانت في أحسن الأحوال غير مكتملة، وفي أسوأ الأحوال زائفة بكل بساطة، فقد استعان المسيحيون الغنوصيون باستمرار بخبراتهم الروحية الخاصة - غنوصهم الخاص - لمراجعتها وتحويلها.

ولكن ما احتفل به الغنوصيون باعتباره دليلاً على النضج الروحي، ندد به الأرثوذكس باعتباره "انحرافًا" عن التقليد الرسولي.
يرى ترتليان أنه من المثير للغضب أن

> كل واحد منهم، كما يناسب مزاجه الخاص، يعدل التقاليد التي تلقاها، تمامًا كما عدلها الذي سلمها، عندما شكلها وفقًا لإرادته الخاصة. [90]

إن كونهم "يختلفون في أمور محددة، حتى فيما يتعلق بمؤسسيهم أنفسهم" يعني في نظر ترتليان أنهم "غير مخلصين" للتقاليد الرسولية. كان تنوع التعليم هو العلامة الحقيقية للزندقة:

> على أي أساس يعتبر الزنادقة غرباء وأعداء للرسل، إذا لم يكن ذلك بسبب اختلاف تعليمهم، الذي تقدم به أو تلقاه كل فرد بمحض إرادته؟ [91]

التوافق العقائدي هو ما يحدد الإيمان الأرثوذكسي. ويصرح الأسقف إيرينيئوس بأن الكنيسة الكاثوليكية

تؤمن بهذه النقاط من العقيدة كما لو كانت لها روح واحدة وقلب واحد، وهي تعلنها وتعلمها في انسجام تام... فبالرغم من أن لغات العالم مختلفة، إلا أن معنى التقليد واحد. "فإن الكنائس التي أُنشئت في ألمانيا لا تؤمن ولا تنقل أي شيء مختلف، وكذلك الكنائس في إسبانيا، ولا تلك الموجودة في بلاد الغال، ولا تلك الموجودة في الشرق، ولا تلك الموجودة في مصر، ولا تلك الموجودة في أفريقيا، ولا تلك التي أُنشئت في المناطق الوسطى من العالم.[92]

ماذا سيحدث لو نشأت خلافات بين هذه الكنائس المتفرقة؟ من الذي يجب أن يقرر أي التقاليد لها الأولوية؟ ويتأمل إيرينيئوس هذا السؤال:

ولكن كيف الحال؟ "النفترض أن نزاعًا يتعلق بمسألة مهمة ينشأ بيننا؛ ألا ينبغي لنا أن نلجأ إلى أقدم الكنائس، التي كان الرسل على اتصال مستمر بها، ونتعلم منها ما هو واضح ومؤكد فيما يتعلق بالمسألة الحالية؟ [93].

يوصي إيرينيئوس بإنهاء أي خلاف.

"بالإشارة إلى ذلك التقليد المستمد من الرسل، للكنيسة العظيمة جدًا والقديمة جدًا والمعروفة عالميًا والتي أسسها ونظمها في روما الرسولان المجيدان بطرس وبولس... وبالإشارة إلى الإيمان... الذي وصل إلى عصرنا عن طريق خلافة الأساقفة." فمن الضروري أن تتفق كل كنيسة مع هذه الكنيسة، نظرًا لسلطتها البارزة. [94]

وبما أنه لا يمكن لأحد من الأجيال اللاحقة أن يصل إلى المسيح كما فعل الرسل، أثناء حياته وعند قيامته، فيجب على كل مؤمن أن ينظر إلى الكنيسة في روما، التي أسسوها، وإلى الأساقفة للحصول على السلطة.

بعض المسيحيين الغنوصيين قاموا بهجوم مضاد. تروي لنا رؤيا بطرس، التي ربما كانت من بين أحدث الكتابات التي اكتُشفت في نجع حمادي (حوالي 200-300 ميلادي)، مدى ذهول بطرس عندما سمع

أن العديد من المؤمنين "سيقعون في اسم خاطئ" و"سيُحكم عليهم بالزندقة".[95] يشرح المسيح القائم لبطرس أن أولئك الذين "يسمون أنفسهم أسقفًا وشمامسة أيضًا، كما لو أنهم تلقوا سلطتهم من الله"، هم في الواقع "قنوات بلا ماء".[96] مع أنهم "لا يفهمون السر"، إلا أنهم "يتفاخرون بأن السر الحقيقي ملك لهم وحدهم".[97] ويتهمهم المؤلف بإساءة تفسير تعاليم الرسل، وبالتالي إقامة "كنيسة مقلدة" في مكان "الأخوة" المسيحية الحقيقية.[98] ولم يعترض الغنوصيون الآخرون، ومن بينهم أتباع فالانتينوس، على حق الأسقف في الحفاظ على التقليد الرسولي المشترك. ولم يعارضوا من حيث المبدأ قيادة الكهنة والأساقفة. ولكن بالنسبة لهم، فإن تعاليم الكنيسة ومسؤوليها لم يتمكنوا أبدًا من حمل السلطة النهائية التي منحها لهم المسيحيون الأرثوذكس.[99] ويقولون إن كل من تلقى الغنوص تجاوز تعاليم الكنيسة وتجاوز سلطة هرمها.

لقد أثبت الجدل حول القيامة أنه أمر حاسم في تشكيل الحركة المسيحية إلى دين مؤسسي. اتفق جميع المسيحيين من حيث المبدأ على أن المسيح نفسه فقط - أو الله - يمكن أن يكون المصدر النهائي للسلطة الروحية. لكن السؤال المباشر، بطبيعة الحال، كان السؤال العملي: من الذي يدير هذه السلطة في الوقت الحاضر؟

فأجاب فالانتينوس وأتباعه: كل من يأتي في اتصال مباشر وشخصي مع "الحي". لقد زعموا أن تجربة الشخص الشخصية فقط هي التي تقدم المعيار النهائي للحقيقة، وتأخذ الأسبقية على كل الشهادات غير المباشرة وكل التقاليد - حتى التقاليد الغنوصية! لقد احتفلوا بكل أشكال الإبداع والابتكار كدليل على أن الشخص أصبح حيًا روحياً. وفقًا لهذه النظرية، لا يمكن أبدًا تثبيت هيكل السلطة في إطار مؤسسي: بل يجب أن يظل عفويًا، وكاريزميًا، ومفتوحًا.

لقد زعم أولئك الذين رفضوا هذه النظرية أن جميع الأجيال المستقبلية من المسيحيين يجب أن يثقوا بشهادة الرسل، أكثر من ثقتهم بتجاربهم الشخصية. فكما اعترف ترتليان،

من يحكم من خلال التجربة التاريخية العادية سيجد أن الادعاء بأن رجلاً عاد جسديًا من القبر أمر لا يصدق. يقول ترتليان: "إن ما لا يمكن إثباته أو التحقق منه في الوقت الحاضر، يجب أن نصدقه، لأنه سخيف". ومنذ وفاة الرسل، أصبح على المؤمنين أن يقبلوا كلام الكهنة والأساقفة، الذين زعموا منذ القرن الثاني أنهم الورثة الشرعيون الوحيدون لهم.

إن إدراك التداعيات السياسية لعقيدة القيامة لا يفسر تأثيرها الاستثنائي على التجربة الدينية للمسيحيين. ومن يشكك في هذا التأثير، فما عليه إلا أن يتذكر أيًا من اللوحات التي استحضرها لفنانين متنوعين مثل ديليا فرانشيسكا، ومايكل أنجلو، ورامبرانت، ودالي، أو الموسيقى التي كتبها حول هذا الموضوع ملحنون من العصور القديمة، مرورًا بباخ، وموتسارت، وهاندل، وماهلر.

إن الاعتقاد بأن الرجل الذي مات عاد إلى الحياة هو بالطبع مفارقة. ولكن هذه المفارقة ربما تحتوي على سر جاذبيتها القوية، فبينما تتناقض مع تجربتنا التاريخية الخاصة، فإنها تتحدث لغة المشاعر الإنسانية. إنها تتناول ما قد يكون أعمق مخاوفنا، وتعبر عن شوقنا للتغلب على الموت.

ويقترح عالم اللاهوت المعاصر يورغن مولتمان أن النظرة الأرثوذكسية للقيامة عبرت أيضًا، بلغة رمزية، عن قناعة مفادها أن الحياة البشرية لا تنفصل عن التجربة الجسدية: حتى لو عاد رجل إلى الحياة من بين الأموات، فلا بد أن يعود جسديًا.[100] ويؤكد كل من إيرينيئوس وترتليان على أن توقع القيامة الجسدية يتطلب من المؤمنين أن يأخذوا على محمل الجد الآثار الأخلاقية لأفعالهم. من المؤكد أن الغنوصيين الذين سخروا من فكرة القيامة الجسدية كثيراً ما قللوا من قيمة الجسد، واعتبروا أفعاله (الأفعال الجنسية، على سبيل المثال) غير مهمة بالنسبة للشخص "الروحي". على سبيل المثال، وفقًا لإنجيل توما، يقول يسوع:

> "إذا كانت الروح جاءت إلى الوجود بسبب الجسد، فهي عجيبة من عجيبات العجائب. إني لأعجب كيف أن هذه الثروة العظيمة (الروح) جعلت موطنها في هذا الفقر (الجسد)". [101]

لقد وقف الغنوصيون بالقرب من التقاليد الفلسفية اليونانية (وفي هذا الصدد، بالقرب من التقاليد الهندوسية والبوذية) التي تنظر إلى الروح البشرية على أنها تقيم "في" الجسد - كما لو كان الشخص الفعلي نوعًا من الكائنات غير المجسدة التي تستخدم الجسد كأداة ولكنها لا تتعرف عليه. قد يجد أولئك الذين يتفقون مع مولتمان، إذن، أن العقيدة الأرثوذكسية في القيامة، بعيدًا عن نفي التجربة الجسدية، أكدتها باعتبارها الحقيقة المركزية في الحياة البشرية.

ولكن من حيث النظام الاجتماعي، كما رأينا، كان للتعليم الأرثوذكسي بشأن القيامة تأثير مختلف: فقد شرّع التسلسل الهرمي للأشخاص الذين من خلال سلطتهم يجب على جميع الآخرين أن يقتربوا من الله. كان التعليم الغنوصي، كما أدرك إيرينيئوس وترتليان، مزعزعًا لهذا النظام: إذ زعم أنه يوفر لكل متأهل إمكانية الوصول المباشر إلى الله، وهو ما قد يجهله الكهنة والأساقفة أنفسهم. [102]

II

"إله واحد، أسقف واحد":
سياسات التوحيد

تبدأ عقيدةكريستيام بعبارة "أنا أؤمن بإله واحد، الأب القدير، خالق السماء والأرض". يقترح بعض العلماء أن هذا البيان العقائدي صيغ في الأصل لاستبعاد أتباع الزنديق مرقيون (حوالي 140) من الكنائس الأرثوذكسية. كان مرقيون مسيحيًا من آسيا الصغرى، وقد تأثر بما رآه من تناقض بين الإله الخالق في العهد القديم، الذي يطالب بالعدالة ويعاقب على كل انتهاك لشريعته، والأب الذي أعلنه يسوع - إله العهد الجديد، إله الغفران والمحبة. لماذا، كما تساءل، قد يخلق إله "قدير" - كلي القدرة - عالماً يشمل المعاناة والألم والمرض - حتى البعوض والعقارب؟ وخلص مرقيون إلى أن هذين الإلهين لابد وأن يكونا مختلفين. وقد أدانت أغلبية المسيحيين في وقت مبكر هذه النظرة باعتبارها ثنائية، وعرّفوا أنفسهم بأنهم أرثوذكسيون من خلال الاعتراف بإله واحد، وهو "الأب القدير" و"خالق السماء والأرض".

عندما واجه دعاة العقيدة الأرثوذكسية تحديًا آخر - الغنوصيون - هاجموهم غالبًا باعتبارهم "مرقيونيين" و

"ثنائيون." يذكر إيرينيئوس أن شكواه الرئيسية ضد الغنوصيين هي أنهم، مثل المرقيونيين، يقولون "إن هناك إلهًا آخر غير الخالق". وتؤكد بعض النصوص المكتشفة حديثًا روايته. وفقًا لأقنوم الأركونات، فإن ادعاء الخالق الباطل[1] بأنه يمتلك احتكارًا حصريًا للقوة الإلهية يُظهر أنه

أعمى... (بسبب قوته وجهله (وغروره) قال...، "أنا هو الله؛ ليس هناك أحد (غيري)". فلما قال هذا أخطأ في حق (الله) . فخرج صوت من فوق مملكة السلطة المطلقة، قائلاً: "أنت مخطئ يا سمائل"، الذي يعني "إله العميان". [2]

ويروي نص آخر اكتُشف في نفس المخطوطة في نجع حمادي، بعنوان "أصل العالم"، نسخة مختلفة من نفس القصة:

... كان يفتخر دائمًا قائلاً (للملائكة) ... "أنا الله، ولا أحد غيري موجود." "ولكن عندما قال هذه الأشياء، أخطأ في حق جميع الخالدين... عندما رأى الإيمان عدم تقوى الحاكم الرئيسي، غضب وقال: "لقد أخطأت يا سمائل (أي "الإله الأعمى")."
"إن الإنسانية المستنيرة والخالدة (الأنثروبوس) موجودة أمامك!" [3]

ويروي نص ثالث مُدرج في نفس المجلد، وهو كتاب يوحنا السري، كيف

في جنونه... قال: "أنا الله، وليس هناك إله آخر غيري"، لأنه يجهل... المكان الذي جاء منه. و فلما رأى الخليقة التي حوله والجموع من الملائكة حوله الخارجة منه، قال لهم: أنا إله غيور، وليس هناك إله آخر غيري." ولكن بإعلانه هذا أشار إلى الملائكة أن هناك إلهًا آخر؛ لأنه إذا لم يكن هناك إله آخر، فمن الذي يغار منه؟ [4]

وعندما تروي هذه المصادر نفسها قصة جنة عدن، فإنها تصف هذا الإله بالسيد الغيور، الذي

علم الثعبان (الذي كان في كثير من الأحيان، في العصور القديمة، رمزًا للحكمة الإلهية) آدم وحواء مقاومة طغيانه:

> . . . وأعطى الله آدم أمراً: "من كل شجرة تأكل منها، ولكن من الشجرة التي في وسط الجنة لا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت". ولكن الثعبان كان أحكم من كل الحيوانات التي في الفردوس، فأقنع حواء قائلا: "في اليوم الذي تأكلان فيه من الشجرة التي في وسط الفردوس، تنفتح عيون عقولكما". فأطاعت حواء... وأكلت وأعطت زوجها أيضًا. [5]

بعد أن لاحظ المؤلف الغنوصي أن وعد الثعبان قد تحقق - فقد انفتحت أعينهم - ولكن تهديد الله بالموت الفوري لم يتحقق، استمر في اقتباس كلمات الله من سفر التكوين 3: 22، مضيفًا تعليقًا تحريريًا:

> . . . "هوذا آدم قد صار كواحد منا عارفًا الشر والخير." ثم قال: "النخرجه من الفردوس، لئلا يأخذ من شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد". ولكن ما هو هذا الإله؟ أولاً، حسد آدم لأنه يأكل من شجرة المعرفة... لقد أظهر أنه حسود خبيث. [6]

وكما يشير الباحث الأمريكي بيرجر بيرسون، فإن المؤلف يستخدم تورية آرامية لمساواة الثعبان بالمعلم ("الثعبان، هيويا؛ "أن يُعلّم، هاوا").[7] وتضيف روايات غنوصية أخرى تورية رباعية تتضمن حواء (هاوا): فبدلاً من إغواء آدم، أعطته الحياة وعلّمته:

> وبعد يوم الراحة، أرسلت صوفيا (حرفيًا "الحكمة"] ابنتها، التي تدعى حواء، كمعلمة لتربية آدم... عندما رأت حواء آدم مطروحًا، أشفقت عليه وقالت: "يا آدم، عش!" انهض على الأرض! على الفور أصبحت كلمتها عملا. لأنه عندما قام آدم، فتح عينيه على الفور. فلما رآها قال: "ستُدعَينَ أُمَّ الأَحْيَاءِ لأَنَّكِ أَنْتَ الَّتِي أَحْيَيْتِنِي". [8]

يصف أقنوم الأركونات حواء بأنها المبدأ الروحي في البشرية الذي يرفع آدم من حالته المادية البحتة:

فجاءت المرأة الروحانية إلى آدم وكلمته قائلة: "قم يا آدم." فلما رآها قال: "أنت التي أعطيتني الحياة، "أنت تدعى أم الأحياء"- لأنها أمي. "إنها هي الطبيبة، والمرأة، وهي التي ولدت."... ثم جاء المبدأ الروحي الأنثوي في الثعبان، المعلم، وعلمهم قائلاً: "... لن تموتوا، لأنه قال لكم هذا من باب الغيرة". بل تنفتح أعينكم وتصيرون مثل الآلهة، تعرفون الشر والخير. ولعن الحاكم المتكبر المرأة... (و)... الثعبان. [3]

يرى بعض العلماء اليوم أن الغنوصية مرادفة للثنائية الميتافيزيقية، أو حتى لتعدد الآلهة. لقد ندد إيرينيئوس بهذه الصور الكاريكاتورية التي تعبر عن القناعة الأساسية للكتاب المقدس العبري بأن "الرب إلهك هو إله واحد"، باعتبارها تجديفًا. ولكن إكليمندس الإسكندري، المعاصر لإيرينيئوس، يخبرنا أن هناك "غنوصية أحادية"؛ كما تكشف الاكتشافات في نجع حمادي أيضًا أن الغنوصية الفالنتينية - الشكل الأكثر تأثيرًا وتطورًا للتعليم الغنوصي، والأكثر تهديدًا للكنيسة على الإطلاق - تختلف جوهريًا عن الثنائية. يسيطر موضوع وحدانية الله على القسم الافتتاحي من الرسالة الثلاثية، وهي رسالة فالنتينية من نجع حمادي تصف أصل كل الكائنات. يصف المؤلف الله بأنه

رب وإله واحد... لأنه غير مولود ... وبالمعنى الصحيح، فإن الآب والإله الوحيد هو الذي لم يولده أحد آخر. وأما الكون فهو الذي أنشأه وخلقه. [10]

يتحدث شرح الفالنتينية عن الله الذي هو

(جذر) الكل، الواحد (الذي لا يوصف والذي) يسكن في الموناد. (إنه يعيش وحيدًا] في صمت... لأنه، بعد كل شيء، (كان) مونادًا، ولم يكن أحد قبله... [11]

وفقًا لنص الفالنتينية ثالث، وهو تفسير المعرفة، علّم المخلص أن "أبوكم الذي في السموات هو واحد". [12]

ويخبرنا إيرينيئوس نفسه أن العقيدة التي نجحت في عزل المرقيونيين عن الكنيسة أثبتت عدم جدواها ضد الفالنتينيين. وعلى غرار المسيحيين الآخرين، كانوا يرددون العقيدة الأرثوذكسية. لكن إيرينيئوس يوضح أنه على الرغم من أنهم "اعترفوا لفظيًا بإله واحد"، إلا أنهم فعلوا ذلك مع تحفظات ذهنية خاصة، "يقولون شيئًا ويفكرون شيئًا آخر". [13] في حين أن المرقيونيين جدفوا على الخالق علانية، فإن الفالنتينيين، كما يصر، فعلوا ذلك سراً:

> هؤلاء الأشخاص، في ظاهرهم، أغنام، لأنهم يبدون مثلنا، مما يقولونه في العلن، ويكررون نفس الكلمات (الاعتراف) التي نكررها؛ ولكنهم في الداخل ذئاب. [14]

الأمر الذي أزعج إيرينيئوس أكثر هو أن غالبية المسيحيين لم يعتبروا أتباع فالانتينوس زنادقة. لم يتمكن معظم الناس من التمييز بين التعاليم الفالنتينية والتعاليم الأرثوذكسية؛ بعد كل شيء، كما يقول، لا يستطيع معظم الناس التمييز بين الزجاج المقطوع والزمرد أيضًا! ولكنه يقول: "على الرغم من أن لغتهم تشبه لغتنا"، فإن آراءهم "ليست مختلفة تمامًا فحسب، بل إنها في جميع النقاط مليئة بالتجديف". [15] إن التشابه الظاهري مع التعاليم الأرثوذكسية جعل هذه الزندقة أكثر خطورة - مثل السم المتنكر في صورة حليب. لذلك كتب خمسة مجلدات من كتابه الضخم "دحض وإسقاط ما يسمى بالمعرفة الزائفة" لتعليم الغافلين التمييز بين الحقيقة التي تنقذ المؤمنين، والتعليم الغنوصي الذي يدمرهم في "هاوية الجنون والتجديف". [16]

فبينما اعترف الفالنتينيون علنًا بإيمانهم بإله واحد،[17] أصرّوا في اجتماعاتهم الخاصة على التمييز بين الصورة الشائعة لله - باعتباره السيد والملك والرب والخالق والقاضي - وما تمثله تلك الصورة - وهو ما فهمه الله على أنه المصدر النهائي لكل الوجود.[18] ويسمي فالانتينوس ذلك المصدر "العمق"؛[13] ويصفه أتباعه بأنه مبدأ بدائي غير مرئي،

وغير مفهوم.[20] ولكن معظم المسيحيين، كما يقولون، يخطئون في اعتبار مجرد صور الله حقيقة.[21] ويشيرون إلى أن الكتاب المقدس يصور الله أحيانًا على أنه مجرد صانع، أو قاضي منتقم، أو ملك يحكم في السماء، أو حتى سيد غيور. ولكن هذه الصور، كما يقولون، لا يمكن مقارنتها بتعاليم يسوع بأن "الله روح" أو "أبو الحقيقة". [22] يشير فالنتيني آخر، مؤلف إنجيل فيليب، إلى أن الأسماء يمكن أن تكون

> خادعة للغاية، لأنها تحول أفكارك مما هو دقيق إلى ما هو غير دقيق. وهكذا فإن من يسمع كلمة "الله" لا يدرك ما هو صحيح، بل يدرك ما هو غير صحيح. وهكذا أيضًا مع "الآب"، و"الابن"، و"الروح القدس"، و"الحياة"، و"النور"، و"القيامة"، و"الكنيسة"، وكل ما سواها - فالناس لا يدركون ما هو صحيح، بل يدركون ما هو غير صحيح... [23]

وقد أجرى عالم اللاهوت البروتستانتي بول تيليش مؤخرا تمييزا مماثلا بين الإله الذي نتخيله عندما نسمع هذا المصطلح، و"الإله الذي وراء الله"، أي "أساس الوجود" الذي تقوم عليه كل مفاهيمنا وصورنا.

ما الذي جعل موقفهم زندقة؟ لماذا وجد إيرينيئوس أن مثل هذا التعديل في التوحيد أمر بالغ الأهمية - بل ومذموم تمامًا - إلى درجة أنه حث إخوانه المؤمنين على طرد أتباع فالانتينوس من الكنائس باعتبارهم زنادقة؟ واعترف بأن هذا السؤال حير الغنوصيين أنفسهم:

> "ويتساءلون، عندما يعترفون بنفس الأشياء ويشاركون في نفس العبادة ... كيف يمكننا، بدون سبب، أن نبقى بعيدين عنهم؛ وكيف عندما يعترفون بنفس الأشياء، ويتمسكون بنفس العقائد، نسميهم زنادقة!" [24]

وأقترح هنا مرة أخرى أننا لا نستطيع الإجابة على هذا السؤال بشكل كامل طالما أننا ننظر إلى هذا النقاش من منظور الحجج الدينية والفلسفية فقط. ولكن عندما نبحث في كيفية عمل عقيدة الله فعليًا في الكتابات الغنوصية والأرثوذكسية، يمكننا أن نرى كيف يتضمن هذا السؤال الديني أيضًا

القضايا الاجتماعية والسياسية. وعلى وجه التحديد، بحلول الجزء الأخير من القرن الثاني، عندما أصر الأرثوذكس على "إله واحد"، فقد أقروا في الوقت نفسه نظام الحكم الذي يحكم فيه "أسقف واحد" الكنيسة. وقد تم اعتبار التعديل الغنوصي للتوحيد - وربما كان المقصود منه - بمثابة هجوم على هذا النظام. فعندما ناقش المسيحيون الغنوصيون والأرثوذكس طبيعة الله، كانوا في نفس الوقت يناقشون قضية السلطة الروحية.

تسيطر هذه القضية على واحدة من أقدم الكتابات التي لدينا من كنيسة روما - وهي رسالة منسوبة إلى إكليمندس، الملقب بأسقف روما (حوالي 30-100). وباعتباره المتحدث باسم الكنيسة الرومانية، كتب إكليمندس إلى المجتمع المسيحي في كورنثوس في وقت الأزمة: لقد تم تجريد بعض قادة كنيسة كورنثوس من السلطة. يقول إكليمندس إن "قلة من الناس المتهورين والمتعجرفين" طردوهم من مناصبهم: "ثار أولئك الذين لا سمعة لهم ضد ذوي السمعة، والحمقى ضد الحكماء، والشباب ضد الشيوخ". [25] ويستخدم لغة سياسية ليصف هذا بأنه "تمرد"[26] ويصر على إعادة الزعماء المعزولين إلى سلطتهم: ويحذر من أنه يجب الخوف منهم واحترامهم وطاعتهم.

على أي أساس؟ يزعم إكليمندس أن الله، إله إسرائيل، هو وحده الذي يحكم كل شيء:[27] فهو الرب والسيد الذي يجب على الجميع طاعته؛ وهو القاضي الذي يضع القانون، ويعاقب المتمردين ويكافئ المطيعين. ولكن كيف يتم تطبيق حكم الله فعليا؟ وهنا يصبح لاهوت إكليمندس عمليًا: يقول إن الله يفوض "سلطانه في الحكم" إلى "الحكام والقادة على الأرض". [28] من هم هؤلاء الحكام المعينون؟ فيجيب إكليمندس بأنهم أساقفة وكهنة وشمامسة. من يرفض "إخضاع الرقبة"[23] وطاعة قادة الكنيسة فهو مذنب بالعصيان ضد المعلم الإلهي نفسه. وقد انجرف إكليمندس في حجته، فحذر من أن كل من يعصي السلطات الإلهية "سيتلقى عقوبة الموت! "[30]

تمثل هذه الرسالة لحظة دراماتيكية في تاريخ المسيحية. ولأول مرة، نجد هنا حجة لتقسيم الجماعة المسيحية بين "رجال الدين" و"العامة". ينبغي تنظيم الكنيسة وفقًا لنظام صارم

بين الرؤساء والمرؤوسين. حتى داخل رجال الدين، يصر إكليمندس على تصنيف كل عضو، سواء كان أسقفًا أو كاهنًا أو شماسًا، "حسب نظامه الخاص":[31] يجب على كل فرد أن يلتزم "بالقواعد والوصايا" الخاصة بمنصبه في جميع الأوقات.

لقد حيرت هذا الرسالة العديد من المؤرخين.[32] ويتساءلون: ما هو أساس النزاع في كورنثوس؟ ما هي القضايا الدينية التي كانت على المحك؟ الرسالة لا تخبرنا بذلك بشكل مباشر. ولكن هذا لا يعني أن المؤلف يتجاهل مثل هذه القضايا. أقترح أن يوضح وجهة نظره الدينية بشكل كامل: كان ينوي تأسيس كنيسة كورنثوس على نموذج السلطة الإلهية. كما أن الله يحكم في السماء كسيد ورب وقائد وقاضي وملك، فإنه على الأرض يفوض حكمه لأعضاء التسلسل الهرمي للكنيسة، الذين يعملون كجنرالات يقودون جيشًا من المرؤوسين؛ ملوك يحكمون "الشعب"؛ قضاة يترأسون مكان الله.

ربما كان إكليمندس ببساطة يذكر ما اعتبره المسيحيون الرومان أمراً مسلماً به [33] - وما كان المسيحيون خارج روما، في أوائل القرن الثاني، يقبلونه. ومن غير المستغرب أن يكون المؤيدين الرئيسيين لهذه النظرية هم الأساقفة أنفسهم. وبعد جيل واحد فقط، دافع أسقف آخر، وهو إغناطيوس الأنطاكي في سوريا، على بعد أكثر من ألف ميل من روما، عن نفس المبدأ بشغف. لكن إغناطيوس ذهب إلى أبعد من إكليمندس. دافع عن الرتب الثلاث - الأسقف، والكهنة، والشمامسة - باعتبارها نظامًا هرميًا يعكس التسلسل الإلهي في السماء. وبما أن هناك إله واحد فقط في السماء، كما يعلن إغناطيوس، فلا يمكن أن يكون هناك إلا أسقف واحد في الكنيسة. "إله واحد، أسقف واحد" - هذا أصبح الشعار الأرثوذكسي. يحذر إغناطيوس "العامة" من احترام الأسقف وتكريمه وطاعته "كما لو كان إلهًا". فالأسقف، الذي يقف على قمة التسلسل الهرمي للكنيسة، يرأس "في مكان الله". [34]من، إذن، يقف تحت الله ؟ المجمع الإلهي، يجيب إغناطيوس. وكما أن الله يحكم هذا المجلس في السماء، فإن الأسقف على الأرض يحكم مجلس الكهنة. وبدوره، يقف المجلس الإلهي السماوي فوق الرسل؛ وهكذا، على الأرض، يحكم الكهنة الشمامسة - وكل هؤلاء الثلاثة يحكمون "العامة". [35]

هل كان إغناطيوس يحاول فقط تضخيم

منصبه؟ قد يشتبه المراقب المتشائم في أنه يخفي سياسات القوة وراء خطاب ديني. ولكن التمييز بين الدين والسياسة، والذي أصبح مألوفاً لنا في القرن العشرين، كان غريباً تماماً عن فهم إغناطيوس. بالنسبة له، كما هو الحال بالنسبة لمعاصريه، الوثنيين والمسيحيين على حد سواء، فإن المعتقدات الدينية تنطوي بالضرورة على علاقات سياسية - والعكس صحيح. ومن المفارقات أن إغناطيوس نفسه شارك هذا الرأي مع المسؤولين الرومان الذين حكموا عليه بالموت، واعتبروا قناعاته الدينية دليلاً على الخيانة ضد روما. بالنسبة لإغناطيوس، كما هو الحال بالنسبة للوثنيين الرومان، كانت السياسة والدين يشكلان وحدة لا تنفصل. كان يعتقد أن الله أصبح في متناول البشرية من خلال الكنيسة، وتحديدًا من خلال الأساقفة والكهنة والشمامسة الذين يديرونها: "بدون هؤلاء، لا يوجد شيء يمكن تسميته كنيسة!" [36] ومن أجل خلاصهم الأبدي حث الناس على الخضوع للأسقف والكهنة. وعلى الرغم من أن إغناطيوس وإكليمندس قد صورا بنية رجال الدين بطرق مختلفة،[37] إلا أن كلا الأسقفين اتفقا على أن هذا النظام البشري يعكس السلطة الإلهية في السماء. لا شك أن آرائهم الدينية كانت تحمل دلالات سياسية؛ ولكن في الوقت نفسه، كانت الممارسة التي حثوا عليها تستند إلى معتقداتهم حول الله.

ماذا سيحدث لو تحدى أحدهم عقيدتهم عن الله - باعتباره الشخص الذي يقف على قمة التسلسل الهرمي الإلهي ويشرع البناء بأكمله؟ لا داعي للتخمين: يمكننا أن نرى ما حدث عندما ذهب فالانتينوس من مصر إلى روما (حوالي عام 140). حتى أعداؤه تحدثوا عنه باعتباره رجلاً لامعًا وبليغًا:[38] معجبوه كانوا يقدسونه باعتباره شاعرًا ومعلمًا روحيًا. تنسب إليه إحدى التقاليد إنجيل الحقيقة الشعري المثير الذي تم اكتشافه في نجع حمادي. يزعم فالانتينوس أنه بالإضافة إلى تلقيه التقليد المسيحي الذي يشترك فيه جميع المؤمنين، فقد تلقى من ثيوداس، أحد تلاميذ بولس، مبادرة في عقيدة سرية عن الله.[39] ويقول إن بولس نفسه علم هذه الحكمة السرية، ليس للجميع، وليس علنًا، بل فقط لقلة مختارة اعتبرها ناضجة روحياً.[40] ويعرض فالانتينوس، بدوره، لتأهيل

"الذين هم ناضجون"[41] في حكمته، لأنه ليس كل شخص قادر على فهمها.

ما يكشفه هذا التقليد السري هو أن الذي يعبده معظم المسيحيين بسذاجة باعتباره الخالق والإله والأب هو في الواقع مجرد صورة الإله الحقيقي. وفقًا لفالانتينوس، فإن ما ينسبه إكليمندس وإغناطيوس عن طريق الخطأ إلى الله ينطبق في الواقع على الخالق فقط.[42] يستخدم فالانتينوس، على غرار أفلاطون، المصطلح اليوناني لـ "الخالق" (ديميورج)،[43] مما يوحي بأنه كائن إلهي أدنى يعمل كأداة للقوى العليا.[44] ويوضح أنه ليس الله، بل الديميورج هو الذي يحكم كملك وسيد،[45] الذي يعمل كقائد عسكري،[46] الذي يعطي القانون ويحكم على أولئك الذين ينتهكونه[47] - باختصار، هو "إله إسرائيل".

من خلال التأهيل التي يقدمها فالانتينوس، يتعلم المرشح رفض سلطة الخالق وكل مطالبه باعتبارها حماقة. ما يعرفه الغنوصيون هو أن الخالق يدعي القوة بشكل كاذب ("أنا الله، وليس هناك غيره")[48] والتي تنبع من جهله. يتطلب تحقيق الغنوص التعرف على المصدر الحقيقي للقوة الإلهية، ألا وهو "عمق" كل الوجود. من عرف هذا المصدر عرف نفسه في الوقت نفسه واكتشف أصله الروحي: لقد عرف أباه وأمه الحقيقيين.

من يصل إلى هذه الغنوص - هذه البصيرة - يكون مستعدًا لاستقبال السر السري المسمى الفداء (*apolytrosis*؛ حرفيًا، "التحرير").[49] قبل الحصول على الغنوص، كان المرشح يعبد الديميورج، معتقدًا أنه الإله الحقيقي: الآن، من خلال سر الفداء، يشير المرشح إلى أنه قد حرر من قوة الديميورج. في هذه الطقوس يخاطب الديميورج، معلنًا استقلاله، ومُبلغًا أنه لم يعد ينتمي إلى نطاق سلطة الديميورج وحكمه،[50] بل إلى ما يتجاوزه:

> أنا ابن الآب، الآب الذي هو موجود مسبقًا. أنا مستمد
> الوجود من الذي هو موجود مسبقًا، وأعود إلى مكاني الذي خرجت منه. [51]

ما هي الآثار العملية، وحتى السياسية، لهذه النظرية الدينية؟ فكر في كيفية رد فالانتينوس أو أحد المتأهلين على ادعاء إكليمندس بأن الأسقف يحكم المجتمع "كما يحكم الله في السماء" - كسيد وملك وقاضي ورب. ألا يحتمل أن يرد المتأهل على مثل هذا الأسقف قائلاً: "أنت تدعي أنك تمثل الله، ولكنك في الحقيقة تمثل فقط الديميورج، الذي تخدمه وتطيعه بشكل أعمى. "لكنني تجاوزت نطاق سلطته، وبالتالي، في هذا الصدد، تجاوزت نطاق سلطتك!"

لقد أدرك إيرينيئوس، باعتباره أسقفًا، الخطر الذي يهدد السلطة الدينية. إن طقوس الفداء، التي غيرت بشكل جذري علاقة المتأهل بالديميورج، غيرت في الوقت نفسه علاقته بالأسقف. في السابق، كان المؤمن يُعلَّم أن يخضع للأسقف "كما يخضع لله نفسه"، لأنه كان يُقال له إن الأسقف يحكم ويأمر ويحكم "في مكان الله". ولكنه الآن يرى أن مثل هذه القيود لا تنطبق إلا على المؤمنين السذج الذين ما زالوا يخافون الديميورج ويخدمونه.[52] إن الغنوص لا يقدم أقل من مبرر لاهوتي لرفض طاعة الأساقفة والكهنة! الآن يرى المتأهل أنهم "الحكام والقوى" الذين يحكمون على الأرض باسم الديميورج. يعترف الغنوصي بأن الأسقف، مثل الديميورج، يمارس سلطة شرعية على معظم المسيحيين - أولئك الذين هم غير مؤهلين. [53] ولكن مطالب الأسقف وتحذيراته وتهديداته، مثل مطالب الديميورج نفسه وتحذيراته وتهديداته، لم تعد قادرة على المساس بمن "افتُدي". يشرح إيرينيئوس تأثير هذه الطقوس:

> يزعمون أنهم وصلوا إلى ارتفاع يتجاوز كل قوة، وبالتالي فهم أحرار في كل شيء في التصرف كما يحلو لهم، وليس لديهم أحد يخشونه في أي شيء. لأنهم يزعمون أنه بسبب الفداء... لا يمكن اعتقالهم، أو حتى إدراكهم، من القاضي. [54]

يتلقى المرشح من خلال تأهيله في الغنوص علاقة جديدة تمامًا بالسلطة الروحية. إنه يعلم أن التسلسل الهرمي الديني يستمد سلطته من الديميورج وليس من الآب. عندما يأمر أسقف مثل إكليمندس

المؤمن بأن "يخاف الله" أو أن "يعترف بأن له ربًا"، أو عندما يحذر إيرينيئوس من أن "الله سوف يحكم" على الخاطئ، قد يسمع الغنوصي كل هذا على أنها محاولتهم لإعادة تأكيد الادعاءات الكاذبة لقوة الديميورج، وممثليه الأرضيين، على المؤمن. في ادعاء الديميورج السخيف بأن "أنا الله، وليس هناك إله آخر"، يمكن للغنوصي أن يسمع ادعاء الأسقف بممارسة السلطة الحصرية على المجتمع. في تحذيره "أنا إله غيور"، قد يدرك الغنوصي غيرة الأسقف على أولئك الذين هم خارج سلطته. وبدوره، يسخر الأسقف إيرينيئوس من أسلوبهم المثير والمغري:

> إذا استسلم أحد لهم كالخروف الصغير، وتبع ممارساتهم وفداءهم، فإن مثل هذا الشخص يصبح منتفخًا جدًا حتى أنه
> ... يمشي بخطى متبخترة ووجه متغطرس، ويمتلك كل مظاهر الغرور التي يتمتع بها الديك! [55]

ويرى ترتليان أن سبب هذه الغطرسة يعود إلى مثال معلمهم فالانتينوس، الذي رفض، كما يقول، الخضوع للسلطة العليا لأسقف روما. ما السبب؟ يقول ترتليان أن فالانتينوس أراد أن يصبح أسقفًا بنفسه. ولكن عندما تم اختيار رجل آخر بدلاً منه، امتلأ بالحسد والطموح المحبط، وقطع نفسه عن الكنيسة ليؤسس جماعة منافسة خاصة به. [56]

قليل من المؤرخين يصدقون قصة ترتليان. في المقام الأول، فإنه يتبع جدلاً نموذجيًا ضد الزندقة والذي يؤكد أن الحسد والطموح يقودان الزنادقة إلى الانحراف عن الإيمان الحقيقي. ثانياً، بعد حوالي عشرين عاماً من هذه الحادثة المزعومة، اعتبر أتباع فالانتينوس أنفسهم أعضاء كاملين في الكنيسة، وقاوموا بسخط محاولات الأرثوذكس لطردهم. [57] وهذا يشير إلى أن الأرثوذكس، وليس أولئك الذين أطلقوا عليهم اسم الزنادقة، هم الذين بدأوا الانفصال.

ومع ذلك، فإن قصة ترتليان، حتى لو كانت غير صحيحة - وربما بشكل خاص - فإنها توضح ما اعتبره العديد من المسيحيين أحد مخاطر الزندقة: فهي تشجع على العصيان أمام السلطة الدينية. ويبدو أن الأرثوذكس كانوا على حق. يخبرنا الأسقف إيرينيئوس أن أتباع فالانتينوس "يجتمعون في اجتماعات غير مرخصة"[58] —

أي في الاجتماعات التي لم يأذن بها هو بنفسه، بصفته أسقفًا. وفي هذه الاجتماعات حاولوا إثارة الشكوك في أذهان المستمعين: هل تعليم الكنيسة يرضيهم حقًا أم لا؟ [59] هل الأسرار التي تقدمها الكنيسة - المعمودية والقربان المقدس - أعطتهم بداية كاملة للإيمان المسيحي، أم مجرد الخطوة الأولى؟ [60] واقترح أعضاء الدائرة الداخلية أن ما علمه الأسقف والكهنة علناً لم يكن سوى عقائد أولية. لقد زعموا أنهم يقدمون المزيد - الأسرار السرية، والتعاليم العليا.

وقد حدث هذا الخلاف في نفس الوقت الذي كانت فيه أشكال القيادة الكنسية المتنوعة السابقة تفسح المجال لتسلسل هرمي موحد للكنيسة. [61] ولأول مرة، كانت بعض المجتمعات المسيحية تنظم نفسها في نظام صارم من "الرتب" التابعة للأساقفة والكهنة والشمامسة والعامة. في العديد من الكنائس، برز الأسقف، لأول مرة، باعتباره "ملكًا" (حرفيًا، "الحاكم الوحيد"). وبشكل متزايد، ادعى أنه يمتلك القدرة على التصرف كمؤدب وقاضي على من أسماهم "العامة". فهل يمكن لبعض الحركات الغنوصية أن تمثل مقاومة لهذه العملية؟ هل يمكن للغنوصيين أن يقفوا ضمن النقاد الذين عارضوا تطور التسلسل الهرمي للكنيسة؟ وتشير الأدلة من نجع حمادي إلى أنهم فعلوا ذلك. لقد لاحظنا سابقًا كيف يسخر كاتب سفر رؤيا بطرس من ادعاءات مسؤولي الكنيسة:

> آخرون... خارج نطاقنا... يسمون أنفسهم أساقفةً وشمامسةً أيضًا، كما لو أنهم تلقوا سلطتهم من الله. أولئك
>
> الناس قنوات بلا ماء.[62]

الرسالة الثلاثية، التي كتبها أحد أتباع فالانتينوس، تقارن بين أولئك الذين هم من الغنوصيين، "أبناء الآب"، وأولئك الذين ليسوا متأهلين، أبناء الديميورج.[63] ويقول إن أبناء الآب ينضمون معًا كأنداد، يتمتعون بالحب المتبادل، ويساعدون بعضهم بعضًا بشكل عفوي. لكن أبناء الديميورج - المسيحيون العاديون - "أرادوا أن يأمروا بعضهم بعضاً، ويتفوقون على بعضهم البعض في طموحاتهم الفارغة"؛

لقد تضخمت لديهم "شهوة السلطة"، "كل واحد منهم يتخيل أنه متفوق على الآخرين". [64]

إذا كان المسيحيون الغنوصيون قد انتقدوا تطور التسلسل الهرمي للكنيسة، فكيف يمكنهم هم أنفسهم تشكيل منظمة اجتماعية؟ إذا رفضوا مبدأ الرتبة، وأصروا على أن الجميع متساوون، فكيف يمكنهم حتى عقد اجتماع؟ ويحدثنا إيرينيئوس عن ممارسة إحدى المجموعات التي يعرفها من جماعته في ليون - المجموعة التي يقودها ماركوس، أحد تلاميذ فالانتينوس. [65] تم تكريس كل عضو في المجموعة: وهذا يعني أن كل شخص قد تم "تحريره" من قوة الديميورج. ولهذا السبب تجرأوا على الاجتماع دون سلطة الأسقف، الذي اعتبروه المتحدث باسم الخالق - إيرينيئوس نفسه! ثانيًا، كان يُفترض أن كل متأهل قد تلقى، من خلال طقوس التأهيل، الهدية الكاريزمية للإلهام المباشر من خلال الروح القدس.[66]

كيف كان أعضاء هذه الدائرة من "الروحانيين" (حرفيًا، "أولئك الذين هم روحانيون") يديرون اجتماعاتهم؟ يخبرنا إيرينيئوس أنه عندما اجتمعوا، شارك جميع الأعضاء أولاً في السحب. [67] من حصل على قرعة معينة كان يُعيَّن على ما يبدو لتولي دور الكاهن؛ وكان آخر يقدم الأسرار المقدسة، كأسقف؛ وكان آخر يقرأ الكتاب المقدس للعبادة، وكان آخرون يخاطبون المجموعة كأنبياء، ويقدمون تعليمًا روحيًا مرتجلًا. في المرة التالية التي تجتمع فيها المجموعة، يقومون بإجراء قرعة مرة أخرى بحيث يتغير الأشخاص الذين يتولون كل دور بشكل مستمر.

لقد أدت هذه الممارسة فعليًا إلى إنشاء هيكل مختلف تمامًا للسلطة. في وقت كان المسيحيون الأرثوذكس يميزون فيه بشكل متزايد بين رجال الدين والعامة، أظهرت هذه المجموعة من المسيحيين الغنوصيين أنهم، فيما بينهم، يرفضون الاعتراف بمثل هذه التمييزات. وبدلاً من تصنيف أعضائهم إلى "مراتب" أعلى وأسفل ضمن التسلسل الهرمي، فقد اتبعوا مبدأ المساواة الصارمة. شارك جميع المتأهلين، رجالاً ونساءً على حد سواء، على قدم المساواة في السحب؛ حيث يمكن اختيار أي شخص ليخدم ككاهن أو أسقف أو نبي. وعلاوة على ذلك، نظرًا لأنهم يلقون بالقرعة في كل اجتماع، فإن التمييزات

التي يتم تحديدها بالقرعة لا يمكن أن تصبح أبدًا "رتبًا" دائمة. وأخيرًا ــ وهو الأهم ــ كانوا يعتزمون من خلال هذه الممارسة إزالة عنصر الاختيار البشري. قد يفترض المراقب في القرن العشرين أن الغنوصيين تركوا هذه الأمور للصدفة العشوائية، ولكن الغنوصيين نظروا إلى الأمر بشكل مختلف. كانوا يعتقدون أن الله هو الذي يدير كل شيء في الكون، وأن طريقة وقوع القرعة تعبر عن اختياره.

وقد دفعت هذه الممارسات ترتليان إلى مهاجمة "سلوك الزنذقة":

> كم هو تافه، وكم هو دنيوي، وكم هو مجرد إنساني، بدون جدية، وبدون سلطة، وبدون انضباط، كما يتناسب مع إيمانهم! بادئ ذي بدء، من غير المؤكد من هو الموعوظ، ومن هو المؤمن: فجميعهم لديهم إمكانية الوصول على قدم المساواة، ويستمعون على قدم المساواة، ويصلون على قدم المساواة - حتى الوثنيين، إذا جاء أي منهم. إنهم يشاركون أيضًا قبلة السلام مع
> كل من يأتي، لأنهم لا يهتمون بمدى اختلاف تعاملهم مع المواضيع، إذا اجتمعوا معًا لاقتحام قلعة الحقيقة الوحيدة. كلهم
> متكبرون... كلهم يقدمون لك الغنوص.[68]

من المؤكد أن مبدأ المساواة في الوصول، والمشاركة المتساوية، والمطالبة المتساوية بالمعرفة قد أثار إعجاب ترتليان. ولكنه اعتبر هذا دليلاً على أن الزنادقة "يقلبون الانضباط": فالانضباط السليم، في رأيه، يتطلب درجات معينة من التمييز بين أعضاء المجتمع. احتج ترتليان بشكل خاص على مشاركة "هؤلاء النساء بين الزناذقة" اللاتي شاركن الرجال في مناصب السلطة: "إنهم يعلمون، ويشاركون في المناقشات؛ ويطردون الأرواح الشريرة؛ يعالجون" [69]- ويشتبه في أنهم ربما يعمدون، مما يعني أنهم عملوا أيضًا كأساقفة!" واعترض ترتليان أيضًا على حقيقة

> أن تعيينهن يُدار بشكل غير مدروس ومتقلب. في وقت ما، وضعوا المبتدئين في مناصبهم؛ وفي وقت آخر، وضعوا أشخاصًا مرتبطين بوظائف دنيوية. لا يوجد مكان يكون فيه الترقية أسهل من
> معسكر المتمردين، حيث أن مجرد التواجد هناك يعد خدمة أساسية. فاليوم رجل أسقف وغدًا آخر؛ من هو

> شماس اليوم، غدًا قارئ؛ من هو كاهن اليوم، غدًا من العامة؛ لأنه حتى على العامة يفرضون وظائف الكهنوت! [70]

يكشف هذا المقطع الرائع عن التمييزات التي اعتبرها ترتليان أساسية لنظام الكنيسة - التمييز بين الوافدين الجدد والمسيحيين ذوي الخبرة؛ بين النساء والرجال؛ بين رجال الدين المحترفين والأشخاص المنشغلين بالعمل الدنيوي؛ بين القراء والشمامسة والكهنة والأساقفة - وفوق كل شيء، بين رجال الدين والعامة. ومن ناحية أخرى، اتبع المسيحيون الفالنتينيون ممارسة تضمن المساواة بين جميع المشاركين. لم يسمح نظامهم بتكوين أي تسلسل هرمي، ولا بتشكيل "رتب" ثابتة لرجال الدين. وبما أن دور كل شخص كان يتغير كل يوم، فقد تم تقليل فرص الحسد ضد الشخصيات البارزة.

كيف كان الأسقف الذي حدد دوره في المصطلحات الرومانية التقليدية، كحاكم ومعلم وقاضي للكنيسة، أن يستجيب لهذا النقد الغنوصي؟ رأى إيرينيئوس أنه، باعتباره أسقفًا، قد وُضع في موقف مزدوج. كان بعض أفراد رعيته يجتمعون دون سلطته في جلسات خاصة؛ وكان ماركوس، الزعيم المعين ذاتيًا، والذي يسخر منه إيرينيئوس باعتباره "خبيرًا في الخدع السحرية"،[71] قد دربهم على ممارسة الأسرار المقدسة السرية وشجعهم على تجاهل التحذيرات الأخلاقية للأسقف. وعلى النقيض من أوامره، كما يقول، فقد أكلوا اللحوم التي ذُبح للأصنام؛ وشاركوا بحرية في المهرجانات الوثنية، وانتهكوا تحذيراته الصارمة بشأن الامتناع عن ممارسة الجنس والزواج الأحادي.[72] وما وجده إيرينيئوس أكثر إزعاجًا من كل شيء هو أنه بدلًا من التوبة أو حتى تحدي الأسقف علنًا، ردوا على احتجاجاته بحجج لاهوتية ماكرة ذكية:

> إنهم يطلقون علينا لقب "غير روحانيين"، و"عاديين"، و"كنسيين". ولأننا لا نقبل ادعاءاتهم الشنيعة، فإنهم يقولون إننا نستمر في العيش في هيبدمد (المناطق السفلى)، وكأننا لا نستطيع أن نرفع عقولنا إلى الأمور العليا، ولا أن نفهم الأمور التي في الأعالي. [73]

لقد غضب إيرينيئوس من ادعائهم بأنهم، كونهم روحانيين، قد تحرروا من القيود الأخلاقية التي سعى هو، بصفته مجرد خادم للديميورج، إلى فرضها عليهم بجهل. [74]

ولكي يدافع إيرينيئوس عن الكنيسة ضد هؤلاء الذين يسمون أنفسهم علماء لاهوت، أدرك أنه يجب عليه أن يصنع أسلحة لاهوتية. كان يعتقد أنه إذا استطاع هدم تعليم الزنذقة القائل بوجود "إله آخر غير الخالق"، فإنه يستطيع تدمير إمكانية تجاهل أو تحدي سلطة "الكنيسة الكاثوليكية الواحدة" وأسقفها - على أسس لاهوتية مزعومة. مثل معارضيه، اعتبر إيرينيئوس الارتباط بين بنية السلطة الإلهية والسلطة البشرية في الكنيسة أمرًا مسلمًا به. إذا كان الله واحدًا، فلا يمكن أن تكون هناك إلا كنيسة واحدة حقيقية، وممثل واحد فقط لله في المجتمع - الأسقف.

ولذلك أعلن إيرينيئوس أن المسيحيين الأرثوذكس يجب أن يؤمنوا قبل كل شيء بأن الله واحد - الخالق، والأب، والرب، والقاضي. وحذر من أن هذا الإله الواحد هو الذي أسس الكنيسة الكاثوليكية، وهو الذي "يرأس أولئك الذين يمارسون الانضباط الأخلاقي"[75] داخلها. ولكنه وجد صعوبة في مناقشة اللاهوت مع الغنوصيين: فقد زعموا أنهم يتفقون مع كل ما قاله، لكنه كان يعلم أنهم في سرهم كانوا يستبعدون كلماته باعتبارها صادرة عن شخص غير روحي. لذا فقد شعر بأنه مضطر إلى إنهاء أطروحته بدعوة رسمية للحكم:

> "فليُعترف بأولئك الأشخاص الذين يجدفون على الخالق... كما يفعل الفالنتينية وكل من يسمون أنفسهم زوراً "الغنوصيين"، على أنهم عملاء للشيطان من قبل كل من يعبدون الله." ومن خلال عملهم، أصبح الشيطان حتى الآن يتكلم ضد الله، ذلك الإله الذي أعد نارًا أبدية لكل أنواع الردة.[76]

ولكننا سنكون مخطئين إذا افترضنا أن هذا الصراع يقتصر على أعضاء العامة الذين يدعون الإلهام الكاريزمي، والذين يتصارعون ضد هرم منظم بلا روح من الكهنة والأساقفة. ويشير إيرينيئوس بوضوح إلى العكس. وكان العديد ممن انتقدهم لنشرهم التعاليم الغنوصية، أعضاء بارزين في التسلسل الهرمي للكنيسة. في إحدى الحالات كتب إيرينيئوس

إلى فيكتور، أسقف روما، ليحذره من أن بعض الكتابات الغنوصية كانت متداولة بين رعيته.[77]اعتبر هذه الكتابات خطيرة بشكل خاص لأن مؤلفها، فلورينوس، ادعى هيبة كونه كاهنًا. ومع ذلك، يحذر إيرينيئوس فيكتور من أن هذا الكاهن هو أيضًا، سرًا، متأهل غنوصي. لقد حذر إيرينيئوس جماعاته من أن "أولئك الذين يعتقد الكثيرون أنهم كهنة... ولكنهم لا يضعون مخافة الله فوق كل اعتبار... يمتلئون بالفخر بسبب مكانتهم البارزة في المجتمع". وأوضح أن هؤلاء الأشخاص هم من الغنوصيين السريين، الذين "يفعلون الشر في السر، قائلين: لا أحد يرانا". "[78]يوضح إيرينيئوس أنه كان ينوي فضح أولئك الذين يتصرفون ظاهريًا مثل المسيحيين الأرثوذكس، ولكنهم كانوا في السر أعضاء في دوائر غنوصية.

كيف يستطيع المسيحي العادي أن يفرق بين الكهنة الحقيقيين والكهنة الكاذبين؟ ويصرح إيرينيئوس بأن الأرثوذكسيين سوف يتبعون خط الخلافة الرسولية:

> يجب طاعة الكهنة الذين في الكنيسة، أي... أولئك الذين يمتلكون الخلافة من الرسل. لأنهم ينالون في نفس الوقت مع الخلافة الأسقفية هبة الحقيقة الأكيدة. [79]

ويوضح أن الزنادقة يخرجون عن التقليد الشائع ويجتمعون دون موافقة الأسقف:

> يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الآخرين الذين يبتعدون عن الخلافة البدائية، ويتجمعون في أي مكان على الإطلاق. هؤلاء يجب أن نعتبرهم زنادقة... أو منشقين... أو منافقين. كل هؤلاء سقطوا من الحقيقة.[80]

يُصدر إيرينيئوس حكمًا أسقفيًا رسميًا. يزعم الغنوصيون أن لديهم مصدرين للتقاليد، أحدهما مفتوح والآخر سري. يتفق إيرينيئوس معهم بشكل ساخر على أن هناك مصدرين للتقاليد - ولكنه يعلن أنه بما أن الله واحد، فإن واحدًا فقط من هذه المصادر ينبع من الله - وهو المصدر الذي تتلقاه الكنيسة من خلال المسيح ورسله المختارين، وخاصة بطرس. أما الآخر فيأتي من الشيطان، ويعود إلى المعلم الغنوصي سمعان المجوسي (حرفيًا، "الساحر")، عدو بطرس اللدود،

الذي حاول شراء القوة الروحية للرسول ونال لعنته. وكما كان بطرس على رأس الخلافة الحقيقية، فكذلك كان سمعان يجسد الخلافة الزائفة المستوحاة من الشيطان للزندقة؛ فهو "أبو كل زندقة":

> كل أولئك الذين يفسدون الحقيقة بأي شكل من الأشكال، ويضرون بتعاليم الكنيسة، هم تلاميذ وخلفاء سمعان المجوسي السامري.
> . . . إنهم يطرحون اسم يسوع المسيح كنوع من الإغراء، لكنهم في كثير من الأحيان يقدمون كفر سمعان... وينشرون بين مستمعيهم السم المرير والخبيث للثعبان العظيم (الشيطان)، المسبب الأكبر للردة. [81]

وأخيرًا، يحذر من أن "بعض الذين يعتبرون من بين الأرثوذكس"[82] لديهم الكثير مما يخشونه في الدينونة القادمة ما لم يتوبوا الآن (وهذه هي النقطة العملية الرئيسية لديه) وينبذوا تعاليم "إله آخر"، ويسلموا أنفسهم للأسقف، ويقبلوا "الانضباط المتقدم"[83] الذي سيطبقه عليهم لتجنيبهم الهلاك الأبدي.

هل كانت قناعات إيرينيئوس الدينية مجرد مبادئ سياسية مقنعة؟ أم على العكس من ذلك، هل كانت سياساته خاضعة لمعتقداته الدينية؟ كل من هذه التفسيرات يبسط الوضع بشكل مبالغ فيه. لقد أثرت قناعات إيرينيئوس الدينية وموقفه - مثل قناعات خصومه الغنوصيين - على بعضها البعض بشكل متبادل. إذا عارض بعض الغنوصيين تطور التسلسل الهرمي للكنيسة، فلا ينبغي لنا أن نختزل الغنوصية إلى حركة سياسية نشأت كرد فعل على هذا التطور. كان أتباع فالانتينوس يشتركون في رؤية دينية لطبيعة الله وجدوها غير متوافقة مع حكم الكهنة والأساقفة الذي كان ناشئًا في الكنيسة الكاثوليكية - ولذلك قاوموها. وعلى العكس من ذلك، كانت قناعات إيرينيئوس الدينية تتوافق مع بنية الكنيسة التي دافع عنها.

إن هذه الحالة ليست فريدة من نوعها: يمكننا أن نرى عبر تاريخ المسيحية كيف أن المعتقدات المختلفة حول طبيعة الله تحمل حتماً آثاراً سياسية مختلفة. بعد أكثر من 1300 عام، شعر مارتن لوثر بالحافز من خلال تجربته الدينية وفهمه المتغير لله

لتحدي الممارسات التي أقرها رؤساؤه في الكنيسة الكاثوليكية، وأخيرًا رفض نظامها البابوي والكهنوتي بأكمله. لقد تأثر جورج فوكس، صاحب الرؤية الراديكالية الذي أسس حركة الكويكرز، بمواجهته "اللنور الداخلي" فقام بإدانة البنية الكاملة للسلطة التطهيرية - القانونية والحكومية والدينية. أعلن بول تيليش مبدأ "الله ما وراء الله" حيث انتقد الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية إلى جانب الحكومات القومية والفاشية.

وكما أن عقيدة قيامة المسيح الجسدية تؤسس الإطار الأولي للسلطة الدينية، فإن عقيدة "الإله الواحد" تؤكد، بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس، المؤسسة الناشئة لـ"الأسقف الواحد" كملك ("الحاكم الوحيد") للكنيسة. ولا ينبغي لنا أن نتفاجأ، إذن، عندما نكتشف كيف أن الوصف الأرثوذكسي لله (مثل "الأب القدير"، على سبيل المثال) يساعد في تحديد من هم المشمولون - ومن هم المستبعدون - من المشاركة في سلطة الكهنة والأساقفة.

III

الله الآب / الله الأم

وعلى النقيض من العديد من معاصريه من آلهة الشرق الأدنى القديم، لم يشارك إله

إسرائيل قوته مع أي إلهة أنثوية، ولم يكن الزوج الإلهي أو الحبيب لأية إلهة.[1] ولا يمكن وصفه إلا بألقاب ذكورية: الملك، والسيد، والقاضي، والأب.[2] والواقع أن غياب الرمزية الأنثوية للإله يميز اليهودية والمسيحية والإسلام في تناقض صارخ مع التقاليد الدينية الأخرى في العالم، سواء في مصر وبابل واليونان وروما، أو في أفريقيا والهند وأمريكا الشمالية، التي تزخر بالرمزية الأنثوية. يسارع علماء الدين اليهود والمسيحيون والإسلاميون اليوم إلى الإشارة إلى أنه لا ينبغي النظر إلى الله من منظور جنسي على الإطلاق.[3] ومع ذلك فإن اللغة الفعلية التي يستخدمونها يوميًا في العبادة والصلاة تنقل رسالة مختلفة: من الذي نشأ في ظل التقاليد اليهودية أو المسيحية، نجا من الانطباع الواضح بأن الله مذكر؟ وبينما يقدس الكاثوليك مريم باعتبارها أم يسوع، فإنهم لا يعتبرونها إلهية في حد ذاتها: إذا كانت "أم الله"، فهي ليست "الله الأم" على قدم المساواة مع الله الآب!

ومن المؤكد أن المسيحية أضافت مصطلحات التثليث إلى الوصف اليهودي لله. ومع ذلك، من بين "الأشخاص" الإلهية الثلاثة،

اثنان - الآب والابن - يوصفان بصيغة المذكر، والثالث - الروح - يشير إلى عدم وجود جنس في المصطلح اليوناني المحايد للروح، *pneuma*. من يدرس التاريخ المبكر للمسيحية (المجال المسمى "علم آباء الكنيسة" - أي دراسة "آباء الكنيسة") سيكون مستعدًا للمقطع الذي يختتم إنجيل توما:

> قال لهم سمعان بطرس (التلاميذ): "دعوا مريم تتركنا، لأن النساء لسن أهلاً للحياة." قال يسوع: "أنا سأقودها بنفسي، لكي أجعلها ذكرًا، حتى تصير هي أيضًا روحًا حية، تشبهكم أيها الذكور. "فكل امرأة تجعل نفسها ذكرًا ستدخل مملكة السماء." [4]

قد يبدو هذا الأمر غريبًا، ولكنه ببساطة يوضح ما يفترضه الخطاب الديني: أن الرجال يشكلون الهيئة الشرعية للمجتمع، بينما يُسمح للنساء بالمشاركة فقط عندما يمتزجن بالرجال. وتظهر نصوص أخرى اكتشفت في نجع حمادي فرقًا واضحًا بين هذه المصادر "الزنذيقية" والمصادر الأرثوذكسية: فالمصادر الغنوصية تستخدم الرمزية الجنسية باستمرار لوصف الله. قد يتوقع المرء أن تظهر هذه النصوص تأثير التقاليد الوثنية القديمة للإلهة الأم، ولكن في الغالب، فإن لغتهم مسيحية على وجه التحديد، ترتبط بشكل لا لبس فيه بالتراث اليهودي. ومع ذلك، بدلاً من وصف إله واحد ومذكر، فإن العديد من هذه النصوص تتحدث عن الله باعتباره ثنائيًا يضم عناصر ذكورية وأنثوية.

تزعم إحدى مجموعات المصادر الغنوصية أنها تلقت تقليدًا سريًا من يسوع من خلال يعقوب ومريم المجدلية. كان أعضاء هذه المجموعة يصلون إلى كل من الآب والأم الإلهيين: "منك أيها الآب، ومن خلالك أيها الأم، الاسمان الخالدان، والدا الكائن الإلهي، وأنت، ساكن السماء، البشرية، صاحب الاسم العظيم..." [5]وتشير نصوص أخرى إلى أن مؤلفيها تساءلوا عمن اقترح عليه إله واحد مذكر، "النصنع الإنسان (آدم) على صورتنا كشبهنا" (سفر التكوين 1: 26). وبما أن رواية سفر التكوين تقول إن البشرية خُلقت "ذكرًا و

"أنثى" (1: 27)، استنتج البعض أن الله الذي خلقنا على صورته يجب أن يكون أيضًا مذكرًا وأنثى - كلا من الأب والأم.

كيف تصف هذه النصوص الأم الإلهية؟ لا أجد إجابة بسيطة، لأن النصوص نفسها متنوعة للغاية. ومع ذلك، يمكننا أن نحدد ثلاثة خصائص أساسية. في المقام الأول، تصف العديد من المجموعات الغنوصية الأم الإلهية كجزء من زوجين أصليين. يبدأ فالانتينوس، المعلم والشاعر، بمبدأ مفاده أن الله لا يمكن وصفه أساسًا. ولكنه يقترح أن الإلهي يمكن تصوره كثنائي؛ يتكون في جزء منه من الذي لا يوصف، والعمق، والأب الأزلي؛ وفي جزء آخر من النعمة، والصمت، والرحم، و"أم الكل". [6] يرى فالانتينوس أن الصمت هو المكمل المناسب للأب، حيث يصف الأول بأنه مؤنث والثاني بأنه مذكر بسبب الجنس النحوي للكلمات اليونانية. ويستمر في وصف كيف يستقبل الصمت، كما في الرحم، بذرة المصدر الذي لا يوصف؛ ومن هذا تولد كل انبعاثات الوجود الإلهي، مرتبة في أزواج متناغمة من الطاقات الذكورية والأنثوية.

كان أتباع فالانتينوس يصلون إليها طلبًا للحماية باعتبارها الأم، و"الصمت الأبدي الصوفي". [7] على سبيل المثال، يدعوها الساحر ماركوس باسم نعمة (باليونانية، المصطلح المؤنث "*charis*"): "التملأك تلك التي هي قبل كل شيء، النعمة التي لا يمكن إدراكها ولا وصفها، وتزيد فيك معرفتها". [8] في احتفاله السري بالقداس، يعلّم ماركوس أن النبيذ يرمز إلى دمها. وعندما يُقدَّم كأس الخمر، يصلي أن "تتدفق النعمة"[3] إلى كل من يشرب منه. يعتبر ماركوس نفسه نبيًا وصاحب رؤية، ويطلق على نفسه اسم "رحم الصمت ومتلقيه"[10] (كما هي الحال بالنسبة للآب). ويقول إن الرؤى التي تلقاها عن الكائن الإلهي ظهرت له في شكل أنثى.

هناك كتاب غنوصي آخر، يسمى "الإعلان العظيم"، استشهد به هيبوليتوس في كتابه "دحض كل الزندقة"، يشرح أصل الكون على النحو التالي: "ومن قوة الصمت ظهرت "قوة عظيمة، عقل الكون، الذي يدير

كل الأشياء، وهو ذكر... والآخر... ذكاء عظيم... هو أنثى تنتج كل الأشياء".[11]من خلال اتباع جنس الكلمتين اليونانيتين اللتين تعنيان "العقل" (*nous* - مذكر) و"الذكاء" (*epinoia* - مؤنث)، يشرح هذا المؤلف أن هذه القوى، عندما تتحد في اتحاد، "تكتشف أنها ثنائية... "هذا هو العقل في الذكاء، وهما منفصلان عن بعضهما البعض، ومع ذلك فهما واحد، ويوجدان في حالة من الثنائية." وهذا يعني، كما يوضح المعلم الغنوصي، أن

> هناك في كل إنسان (قوة إلهية) موجودة في حالة كامنة... هذه قوة واحدة مقسمة من الأعلى إلى الأسفل؛ تولد نفسها، وتنمي نفسها، وتبحث عن نفسها، وتجد نفسها، وتكون أمًا لنفسها، وأبًا لنفسها، وأختًا لنفسها، وزوجة لنفسها، وابنة لنفسها، وابنة لنفسها - أمًا، وأبًا، ووحدة، وتكون مصدرًا لدائرة الوجود بأكملها. [12]

كيف أراد هؤلاء الغنوصيون أن يفهم معناهم؟ اختلف المعلمون المختلفون. أصر البعض على أن الإلهي يجب أن يُعتبر مذكرًا/أنثويًا - "القوة العظيمة للذكر/الأنثى". وزعم آخرون أن المصطلحات كانت مجرد استعارات، لأن الإله في الواقع ليس ذكرًا ولا أنثى.[13]واقترحت مجموعة ثالثة أنه يمكن وصف المصدر الأساسي إما بمصطلحات ذكورية أو أنثوية، اعتمادًا على الجانب الذي ينوي المرء التأكيد عليه. اتفق أنصار هذه الآراء المتنوعة على أن الإلهي ينبغي فهمه من حيث العلاقة الديناميكية المتناغمة بين الأضداد - وهو مفهوم قد يكون أقرب إلى النظرة الشرقية للين واليانغ، لكنه يظل غريبًا عن اليهودية والمسيحية الأرثوذكسية.

إن التوصيف الثاني للأم الإلهية هو وصفها بالروح القدس. يروي سفر يوحنا غير القانوني كيف خرج يوحنا بعد الصلب "بحزن شديد" وكانت له رؤية صوفية عن الثالوث. بينما كان يوحنا في حالة حزن، قال:

> فانفتحت السماوات، وأشرقت الخليقة كلها التي تحت السماء، وارتجف العالم. (وكنت خائفًا، ورأيت في النور... شبهًا بأشكال متعددة... وكان للشبه ثلاثة أشكال.)[14]

على سؤال يوحنا تجيب الرؤية: "قال لي: يا يوحنا، لماذا تشك ولماذا أنت خائف؟ ..." أنا الذي معك دائمًا. أنا (الأب)؛ أنا الأم؛ أنا الابن.[15] قد يفاجئنا هذا الوصف الغنوصي لله - باعتباره الآب والأم والابن - في البداية، ولكن عند التأمل، يمكننا أن ندرك أنه نسخة أخرى من الثالوث. المصطلح اليوناني للثالوث، والذي يتضمن المصطلح المحايد للروح (*pneuma*)، يتطلب عمليًا أن يكون "الشخص" الثالث من الثالوث لاجنسيًا. لكن مؤلف الكتاب السري كان في ذهنه المصطلح العبري للروح، *ruah*، وهي كلمة مؤنثة؛ وبالتالي استنتج أن "الشخص" المؤنث المرتبط بالآب والابن يجب أن يكون الأم. ويستمر الكتاب السري في وصف الأم الإلهية:

. . . (إنها) ... صورة الروح غير المرئية، العذراء، الكاملة ... لقد أصبحت أمًا لكل شيء، لأنها كانت موجودة قبلهم جميعًا، الأم- الأب (*matropater*)... [16]

وفي إنجيل العبرانيين أيضًا يتحدث يسوع عن "أمي، الروح القدس".[17] في إنجيل توما، يقارن يسوع بين والديه الأرضيين، مريم ويوسف، وأبيه الإلهي - أبو الحقيقة - وأمه الإلهية، الروح القدس. يفسر المؤلف قولاً محيرًا ليسوع من العهد الجديد ("من لا يكره أباه وأمه لا يستطيع أن يكون تلميذي") بإضافة أن "أمي (الأرضية) (أعطتني الموت)، لكن (أمي) الحقيقية أعطتني الحياة".[18] وهكذا، بحسب إنجيل فيليب، فإن كل من يصبح مسيحياً يكسب "أباً وأماً"[19] لأن الروح (*ruah*)هي "أم لكثيرين".[20]

يشير عمل منسوب إلى المعلم الغنوصي سمعان المجوسي إلى معنى صوفيّ للجنة، المكان الذي بدأت فيه الحياة البشرية:

> اجعل الفردوس رحمًا؛ لأن الكتاب المقدس يعلمنا أن هذا افتراض صحيح عندما يقول: "أنا هو الذي صورتك في بطن أمك" (إشعياء 44: 2)... موسى... مستخدمًا المجاز، أعلن أن الجنة هي الرحم... وأن عدن هي المشيمة...[21]

النهر الذي يتدفق من عدن يرمز إلى السرة التي تغذي الجنين. ويزعم سمعان أن الخروج، بالتالي، يدل على الخروج من الرحم، وأن "عبور البحر الأحمر يشير إلى الدم". يشرح الغنوصيون السيثيون

> أن السماء والأرض لهما شكل يشبه الرحم... وإذا... أراد أحد التحقيق في هذا، فليفحص بعناية الرحم الحامل لأي كائن حي، وسوف يكتشف صورة للسماء والأرض. [22]

ويؤكد ماركوس أن الدليل على مثل هذه الآراء يأتي مباشرة من "صرخة المولود الجديد"، وهي صرخة عفوية من الثناء على "مجد الكائن البدائي، حيث تحتضن القوى العليا في انسجام وتناغم". [23]

إذا كانت بعض المصادر الغنوصية تشير إلى أن الروح القدس يشكل العنصر الأمومي في الثالوث، فإن إنجيل فيليب يقدم اقتراحًا جذريًا بنفس القدر حول العقيدة التي تطورت لاحقًا باسم الميلاد العذراوي. وهنا أيضًا، الروح القدس هي الأم والعذراء، النظير والقرين للآب السماوي: "هل يجوز أن ننطق بسر؟ "أب كل شيء متحدًا بالعذراء التي نزلت"[24] ـ أي بالروح القدس النازل إلى العالم. ولكن لأن هذه العملية يجب أن تُفهم رمزياً، وليس حرفياً، فإن الروح تبقى عذراء. ويستمر المؤلف في الشرح قائلاً: كما أن "آدم جاء إلى الوجود من عذراءين، من الروح ومن الأرض العذراء"، فإن "المسيح، بالتالي، ولد من عذراء [25] (أي من الروح)." لكن المؤلف يسخر من هؤلاء المسيحيين الحرفيين الذين ينسبون ولادة العذراء إلى مريم أم يسوع، كما لو أنها حملت بعيدًا عن يوسف: "إنهم لا يعرفون ماذا يقولون". متى حملت المرأة من امرأة؟ [26]وبدلاً من ذلك، يجادل بأن الولادة العذراء تشير إلى ذلك الاتحاد الغامض بين القوتين الإلهيتين، الآب السماوي والروح القدس.

بالإضافة إلى الصمت الأبدي الصوفي والروح القدس، يقترح بعض الغنوصيين توصيفًا ثالثًا للأم الإلهية: الحكمة. هنا المصطلح اليوناني المؤنث لـ

"الحكمة"، صوفيا، ترجمة لمصطلح عبري مؤنث، *hokhmah*. كان المفسرون الأوائل قد تأملوا في معنى بعض الآيات الكتابية، على سبيل المثال، القول في سفر الأمثال: "الله خلق العالم بالحكمة". هل يمكن أن تكون الحكمة هي القوة الأنثوية التي تم بها "تصور" خلق الله؟ وفقًا لأحد المعلمين، فإن المعنى المزدوج لمصطلح التصور - الجسدي والعقلي - يشير إلى هذا الاحتمال: "صورة الفكر (ennoia) أنثوية، لأنها قوة الحمل". [27] تحكي قصة آدم، التي اكتُشفت في نجع حمادي، عن قوة أنثوية أرادت أن تحمل بنفسها:

> ... من بين التسع الميوزات، واحدة انفصلت. فجاءت إلى جبل عالٍ وقضت وقتًا جالسة هناك، حتى رغبت في أن تكون وحدها حتى تصبح خنثى. فحققت رغبتها، وحملت من رغبتها... [28]

يستخدم الشاعر فالانتينوس هذا الموضوع ليحكي أسطورة شهيرة عن الحكمة: فقد رغبت في الحمل بنفسها، بعيدًا عن نظيرها الذكري، ونجحت، وأصبحت "القوة الإبداعية العظيمة التي تنشأ منها كل الأشياء"، والتي غالبًا ما تسمى حواء، "أم كل الأحياء". ولكن بما أن رغبتها انتهكت الاتحاد المتناغم بين الأضداد المتأصل في طبيعة الكائن المخلوق، فإن ما أنتجته كان إجهاضًا ومعيبًا؛[29] ومن هذا، كما يقول فالانتينوس، نشأ الرعب والحزن الذي يفسد الوجود البشري.[30] ولتشكيل وإدارة خلقها، أنتجت الحكمة الديميورج، إله إسرائيل الخالق، كوكيل لها.[31]

إن الحكمة، إذن، تحمل عدة دلالات في المصادر الغنوصية. بالإضافة إلى كونها "الخالق العالمي الأول"،[32] الذي أنتج كل المخلوقات، فهي أيضًا تنير البشر وتجعلهم حكماء. ولذلك صلى أتباع فالانتينوس وماركوس إلى الأم باعتبارها "الصمت الأبدي الصوفي" و"النعمة، التي هي قبل كل شيء"، و"الحكمة غير القابلة للفساد"[33] من أجل البصيرة (الغنوص). وينسب إليها غيرهم من الغنوصيين النعم التي نالها آدم وحواء في الجنة. أولاً، علمتهم الوعي الذاتي؛ ثانياً، أرشدتهم إلى البحث عن الطعام؛ ثالثاً، ساعدتهم في إنجاب طفليهما الثالث والرابع، اللذين كانا، وفقاً لهذه الرواية، ابنهما الثالث، سيث، وابنتهما

الأولى، موريا.[34]بل أكثر من ذلك: عندما غضب الخالق على الجنس البشري

لأنهم لم يعبدوه ولم يكرموه كأب وإله، أرسل عليهم طوفانًا ليهلكهم جميعًا. ولكن الحكمة عارضته... ونُجِّيَ نوح وعائلته في الفلك بفضل رشة النور التي خرجت منها، ومن خلالها امتلأ العالم مرة أخرى بالبشرية.[35]

هناك نص آخر تم اكتشافه حديثًا من نجع حمادي، وهو *Trimorphic Protennoia* (حرفيًا، "الفكر البدائي الثلاثي الشكل")، يحتفل بالقوى الأنثوية للفكر والذكاء والاستبصار. يبدأ النص بشخصية إلهية تتحدث:

(أنا) (Protennoia) الفكر الذي (يسكن) في (النور).↤(هي
الموجودة] قبل الكل... أنا أتحرك في كل مخلوق، أنا الخفي
ضمن الكل [36]

وتتابع: "أنا الإدراك والمعرفة، وأنطق بصوت من خلال الفكر. (أنا) الصوت الحقيقي. "أصرخ في كل شخص، وهم يعلمون أن هناك بذرة تسكن في داخلهم." [37] القسم الثاني يتحدث به شخص ثاني الشكل الإلهي، يبدأ بالكلمات

أنا الصوت... (أنا الذي أتحدث داخل كل مخلوق ↤ أنا الآن
جئتُ ثانيةً في صورةِ أنثى، وتكلمتُ معهم. لقد كشفتُ عن نفسي في فكرِ شبهِ
رجولتي.[38]

وفي وقت لاحق، يشرح الصوت:

أنا خنثى. (أنا الأم والأب، لأنني أجامع نفسي ... (ومع من يحبونني ...) أنا الرحم (الذي يعطي الشكل) للكل ... أنا Me(iroth]ea، مجد الأم. [33]

والأكثر إثارة للدهشة هو القصيدة الغنوصية المسماة "الرعد، العقل المثالي". يحتوي هذا النص على وحي نطقت به قوة أنثوية:

أنا الأول والأخير. أنا المكرمة والمحتقرة. أنا العاهرة والمقدسة. أنا

الزوجة والعذراء. أنا (الأم) وابنتي. . . . . أنا التي عرسها عظيم ولم أتخذ زوجا... أنا المعرفة والجهل... أنا بلا خجل، أنا بخجل. أنا القوة، وأنا الخوف... أنا حمقاء، وأنا حكيمة، وأنا كافرة، وأنا ممن إلهه عظيم. [40]

ماذا يعني استخدام مثل هذه الرمزية لفهم الطبيعة البشرية؟ أحد النصوص، بعد أن وصف المصدر الإلهي سابقًا بأنه "قوة ثنائية الجنس"، يواصل القول بأن "ما نشأ من تلك القوة - أي البشرية، كونها واحدة - اكتُشف أنه اثنان: كائن ذكر وأنثى يحمل الأنثى في داخله". [41] يشير هذا إلى قصة "ميلاد" حواء من ضلع آدم (لذا فإن آدم، كونه واحدًا، "يُكتشف أنه اثنان"، أي خنثى "يحمل الأنثى في داخله"). ومع ذلك فإن هذه الإشارة إلى قصة الخلق في سفر التكوين 2 (وهي رواية تعكس عملية الولادة البيولوجية، وبالتالي تنسب إلى الذكر الوظيفة الإبداعية للأنثى) غير عادية في المصادر الغنوصية. في أغلب الأحيان، يشير الكتاب الغنوصيون إلى رواية الخلق الأولى في سفر التكوين 1: 26-27 ("ثم قال الله: نعمل الإنسان (آدم) على صورتنا، كشبهنا... على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم"). كان الحاخامات في العصر التلمودي يعرفون نسخة يونانية من المقطع الذي اقترح على الحاخام صموئيل بار ماخمان، المتأثر بأسطورة أفلاطون عن الخنوثة، أنه

عندما خلق الله الإنسان لأول مرة، خلقه بوجهين

، مجموعتين من الأعضاء التناسلية، أربعة أذرع وأرجل، ظهرًا لظهر. ثم شق آدم نصفين، وجعل له ظهرين، من كل جانب ظهرًا.[42]

وقد تبنى بعض الغنوصيين هذه الفكرة، وعلّموا أن سفر التكوين 1: 26-27 يروي قصة خلق مزدوج الجنس. لا يستنتج ماركوس (الذي وردت صلاته للأم أعلاه) من هذا السرد أن الله ثنائي ("دعونا نصنع البشرية") فحسب، بل يستنتج أيضًا أن "البشرية، التي تشكلت وفقًا لصورة ومثال الله (الأب والأم) كانت ذكورية وأنثوية". [43] يشرح معاصره، الغنوصي ثيودوتس (حوالي 160)، أن

قول "على صورة الله خلقهم، ذكرًا وأنثى خلقهم" يعني أن "العنصرين الذكري والأنثوي معًا يشكلان أروع إنتاج للأم، الحكمة". [44] المصادر الغنوصية التي تصف الله باعتباره ثنائيًا تشمل طبيعته عناصر ذكورية وأنثوية غالبًا ما تقدم وصفًا مشابهًا للطبيعة البشرية.

ومع ذلك، فإن جميع المصادر المذكورة حتى الآن - الأناجيل السرية، والرؤى، والتعاليم الصوفية - هي من بين تلك التي لم يتم تضمينها في القائمة المختارة التي تشكل مجموعة العهد الجديد. لقد تم حذف كل النصوص السرية التي كانت الجماعات الغنوصية تحترمها من المجموعة الكنسية، ووصمها بالزندقة من قبل أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم اسم المسيحيين الأرثوذكس. وبحلول الوقت الذي انتهت فيه عملية فرز الكتابات المختلفة ـ ربما في وقت متأخر من عام 200 ـ كانت كل الصور الأنثوية التي تصور الله قد اختفت تقريبا من التقاليد المسيحية الأرثوذكسية.

ما سبب هذا الرفض التام؟ وقد طرح الغنوصيون أنفسهم هذا السؤال على خصومهم من أتباع المذهب الأرثوذكسي، وتفكروا فيه فيما بينهم. وتوصل البعض إلى أن إله إسرائيل نفسه هو الذي بدأ الجدل الذي قام به أتباعه باسمه. فقد زعموا أن هذا الخالق كان مجرد قوة مشتقة، مجرد قوة آلية خلقتها الأم لإدارة الكون، ولكن مفهومه عن ذاته كان أكثر عظمة. يقولون إنه كان يعتقد أنه صنع كل شيء بنفسه، ولكن في الحقيقة، كان قد خلق العالم لأن الحكمة، أمه، "منحته الطاقة" وزرعت فيه أفكارها الخاصة. ولكنه كان أحمقًا، وتصرف دون وعي، غير مدرك أن الأفكار التي استخدمها جاءت منها؛ "حتى أنه كان يجهل أمه". [45] اقترح أتباع فالانتينوس أن الأم نفسها شجعت إله إسرائيل على الاعتقاد بأنه كان يتصرف بشكل مستقل، ولكن، كما يشرحون، "كان ذلك لأنه كان أحمق وجاهلاً بأمه لدرجة أنه قال، "أنا الله؛ ليس هناك أحد غيري". "[46] وفقًا لرواية أخرى، تسبب الخالق في حزن أمه بخلق كائنات أدنى، لذلك تركته بمفرده وانسحبت إلى المناطق العليا من السماوات. "منذ رحيلها، تخيل أنه الكائن الوحيد الموجود؛

ولذلك قال: أنا إله غيور، وليس غيري أحد. "[47]ويتفق آخرون على أن الدافع الأكثر شراً هو الغيرة. وفقًا لكتاب يوحنا السري:

... قال... "أنا إله غيور، وليس هناك إله آخر غيري". ولكن بإعلانه هذا أشار إلى الملائكة... أن هناك إلهًا آخر موجودًا؛ لأنه إذا لم يكن هناك إله آخر، فمن الذي يغار منه؟... ثم بدأت الأم تشعر بالضيق.[48]

وأعلن آخرون أن والدته رفضت التسامح مع مثل هذا الافتراض:

(الخالق) إذ افتخر بروحه، تباهى بكل ما هو دونه، وقال: أنا أب، وأنا إله، وليس فوقي أحد." ولكن أمه، عندما سمعته يتكلم بهذا، صرخت عليه قائلة: "لا تكذب يا إلداباوث..." [49]

في كثير من الأحيان، في هذه النصوص الغنوصية، يتم توبيخ الخالق بسبب غطرسته - في الغالب دائمًا من قبل قوة أنثوية متفوقة. وفقًا لمخطوطة أقنوم الأركونات، التي تم اكتشافها في نجع حمادي، اعترضت كل من الأم وابنتها عندما

أصبح متكبرًا قائلًا: أنا هو الله، وليس هناك إله آخر غيري"... فخرج صوت من فوق مملكة السلطة المطلقة قائلاً: أنت مخطئ يا سمائل (الذي يعني "إله العميان"). وقال: "إن كان شيء آخر موجودا أمامي فليظهر لي!" وعلى الفور، مدت صوفيا ("الحكمة") إصبعها، وأدخلت الضوء إلى المادة، وتبعته إلى منطقة الفوضى. ثم قال لنسله أيضًا: أنا هو الذي
هو إله الجميع." فصرخت الحياة، ابنة الحكمة، وقالت له: "أنت مخطئ يا ساكلس!" [50]

يصف المعلم الغنوصي جوستينوس صدمة الرب ورعبه وقلقه "عندما اكتشف أنه ليس إله الكون". تدريجيًا، تحولت صدمته إلى دهشة، و

وأخيرًا جاء ليرحب بما علمته إياه الحكمة. ويختتم المعلم حديثه قائلاً: "هذا هو معنى المثل القائل: "مخافة الرب هي بداية الحكمة." "[51]

ولكن كل هذه تفسيرات أسطورية. هل يمكننا أن نجد أي أسباب حقيقية وتاريخية لقمع هذه الكتابات الغنوصية؟ وهذا يثير سؤالاً أكبر بكثير: بأي وسيلة، ولأي أسباب، تم تصنيف بعض الأفكار على أنها زندقة، وبعضها الآخر على أنها أرثوذكسية، بحلول بداية القرن الثالث؟ ربما نجد دليلاً واحداً على الإجابة إذا سألنا ما إذا كان المسيحيون الغنوصيون يستمدون أي نتائج عملية واجتماعية من مفهومهم عن الله - وعن الإنسانية - من حيث تضمين العنصر الأنثوي. هنا، بوضوح، الجواب هو نعم.

ويشير الأسقف إيرينيئوس بقلق إلى أن النساء بشكل خاص ينجذبن إلى جماعات الزناذقة. "حتى في منطقتنا في وادي الرون"، يعترف، كان المعلم الغنوصي ماركوس قد اجتذب "العديد من النساء الجاهلات" من جماعته، بما في ذلك زوجة أحد شمامسة إيرينيئوس.[52] وهو يدعي أنه في حيرة من أمره بشأن الجاذبية التي كانت تتمتع بها مجموعة ماركوس، فإنه يقدم تفسيراً واحداً فقط: أن ماركوس نفسه كان مغوياً ماهراً شيطانياً، ساحراً قام بتركيب منشطات جنسية خاصة "لخداع فريسته واستغلالها وتدنيسها". لا أحد يعلم ما إذا كانت اتهاماته لها أي أساس واقعي. ولكن عندما يصف تقنيات ماركوس في الإغواء، يشير إيرينيئوس إلى أنه يتحدث مجازيًا. لأنه، كما يقول، "يخاطبهم ماركوس بكلمات مغرية" مثل صلواته إلى النعمة، "التي هي قبل كل شيء"،[53] وإلى الحكمة والصمت، العنصر الأنثوي للكائن الإلهي. ثانيًا، يقول إن ماركوس أغوى النساء "بأمرهن بالتنبؤ"[54] - وهو ما كان ممنوعًا عليهن تمامًا في الكنيسة الأرثوذكسية، وعندما كان يؤهل امرأة، اختتم ماركوس صلاة التأهيل بالكلمات "ها هي النعمة قد حلت عليكِ؛ افتحي فمكِ وتنبأي". [55] ثم، كما وصفها الأسقف بغضب، فإن "ضحية ماركوس المخدوعة... تنطق بكل وقاحة ببعض الهراء"، و"تعتبر نفسها من الآن فصاعدًا نبية!" والأسوأ من ذلك كله، من وجهة نظر إيرينيئوس، أن ماركوس دعا

النساء ليقومن بدور الكهنة في الاحتفال بالقداس الإلهي معه: فهو "يسلم الكؤوس للنساء"[56] ليقدمن صلاة القداس الإلهي، وينطقن كلمات التكريس.

ويعرب ترتليان عن غضب مماثل إزاء مثل هذه الأفعال التي يرتكبها المسيحيون الغنوصيون:

> هؤلاء النساء الزنادقة - ما أشد جرأتهم! إنهم لا يملكون أي تواضع؛ بل لديهم الجرأة الكافية للتدريس، والانخراط في الجدال، وطرد الأرواح الشريرة، والقيام بالعلاجات، وربما حتى التعميد! [57]

ووجه ترتليان هجومًا آخر ضد "تلك الأفعى"[58] - وهي معلمة كانت تقود جماعة في شمال أفريقيا. وقد وافق هو نفسه على ما أسماه "مبادئ الانضباط الكنسي فيما يتعلق بالنساء"، والتي حددت:

> لا يجوز للمرأة أن تتكلم في الكنيسة، ولا يجوز لها أن تُعلِّم، ولا أن تُعمِّد، ولا أن تُقدِّم (القربان المقدس)، ولا أن تدَّعي لنفسها مساهمة في أي وظيفة ذكورية، ناهيك عن أي وظيفة كهنوتية.[59]

في الواقع، كان أحد الأهداف الرئيسية لترتليان، وهو الزنديق مرقيون، قد أثار فضيحة بين معاصريه الأرثوذكس بتعيينه نساء على قدم المساواة مع الرجال ككهنة وأساقفة. سافرت المعلمة الغنوصية مارسيلينا إلى روما لتمثل جماعة الكاربوقراطيين،[60] التي ادعت أنها تلقت تعاليم سرية من مريم وسالومي ومرثا. وقد كرّم المونتانيون، وهم دائرة نبوية راديكالية، امرأتين، بريسكا وماكسيميلا، باعتبارهما مؤسستين للحركة.

تشير أدلتنا، إذن، بوضوح إلى وجود ارتباط بين النظرية الدينية والتغيير الاجتماعي. [61] ومن بين الجماعات الغنوصية مثل الفالنتينية، كانت النساء يُعتبرن مساويات للرجال؛ وكان يُبجل بعضهن كأنبياء؛ وعملت أخريات كمعلمات، ومبشرات متجولات، ومعالجات، وكهنة، وربما حتى أساقفة. ومع ذلك، فإن هذه الملاحظة العامة لا تنطبق على الجميع. على الأقل ثلاث دوائر زنذقية احتفظت بصورة ذكورية لله شملت نساء تولين مناصب قيادية - المرقيونيون، والمونتانيون، والكاربوكراتيون. ولكن منذ

عام 200، لم يكن لدينا أي دليل على أن النساء تولين أدوارًا نبوية أو كهنوتية أو أسقفية في الكنائس الأرثوذكسية.

وهذا تطور غير عادي، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن الحركة المسيحية أظهرت في سنواتها الأولى انفتاحاً ملحوظاً تجاه المرأة. لقد انتهك يسوع نفسه الأعراف اليهودية عندما تحدث علانية مع النساء، وكان يضمهن إلى رفاقه. حتى إنجيل لوقا في العهد الجديد يخبرنا جوابه عندما تشتكي له مارثا، مضيفته، من أنها تقوم بالأعمال المنزلية بمفردها بينما تجلس أختها مريم تستمع إليه: "أما تبالي بأن أختي تركتني أخدم وحدي؟ "أطلب منها إذن أن تساعدني." ولكن بدلاً من أن يدعمها، يوبخ يسوع مارثا لأنها تحملت على عاتقها الكثير من الهموم، معلناً أن "أمرا واحدا هو المطلوب: اختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها". [62] بعد وفاة يسوع بعشرة إلى عشرين سنة، تولت بعض النساء مناصب قيادية في الجماعات المسيحية المحلية؛ وعملت النساء كأنبياء ومعلمات ومبشرات. يقترح البروفيسور واين ميكس أنه في التأهيل المسيحي، يعلن الشخص الذي يرأس الطقوس بشكل طقسي أنه "في المسيح... لا يوجد ذكر ولا أنثى". [63] يقتبس بولس هذا القول، ويؤيد عمل النساء اللواتي يعترف بهن كشمامسة وزميلات في العمل؛ حتى أنه يحيي إحداهن، على ما يبدو، باعتبارها رسولة بارزة، أكبر منه سناً في الحركة.[64]

ومع ذلك، فإن بولس يعبر أيضًا عن التناقض فيما يتعلق بالآثار العملية للمساواة بين البشر. في مناقشته للنشاط العام للنساء في الكنائس، يجادل من منظوره الخاص - اليهودي التقليدي - عن إله واحد ذكوري لتسلسل هرمي مُقدّس من التبعية الاجتماعية: كما أن الله سلطة على المسيح، كما يعلن، مستشهدًا بسفر التكوين 2-3، كذلك للرجل سلطة على المرأة:

> ... الرجل ... هو صورة الله ومجده، أما المرأة فهي مجد الرجل. (لأن الإنسان لم يخلق من المرأة، بل المرأة خلقت من الرجل. (ولم يُخلق الرجل من أجل المرأة، بل خلقت المرأة من أجل الرجل.) [65]

في حين اعترف بولس بالنساء باعتبارهن مساوين له "في المسيح"، وسمح لهن بمجموعة أوسع من الأنشطة مقارنة بالتقليدية

أما بالنسبة للجماعات اليهودية، فلم يكن بوسعه أن يدافع عن مساواتهم من الناحية الاجتماعية والسياسية. لقد فتح هذا التناقض الطريق أمام التصريحات الواردة في رسالة كورنثوس الأولى 14، 34 وما بعدها، سواء كتبها بولس أو أضافها شخص آخر: "... ينبغي للنساء أن يصمتن في الكنائس". "لأنه لا يجوز لهن الكلام، بل يجب أن يكنّ خاضعات... من العار على المرأة أن تتكلم في الكنيسة."

تعكس هذه المواقف المتناقضة تجاه المرأة فترة من التحول الاجتماعي، فضلاً عن تنوع التأثيرات الثقافية على الكنائس المنتشرة في جميع أنحاء العالم المعروف. [66] في اليونان وآسيا الصغرى، شاركت النساء مع الرجال في العبادات الدينية، وخاصة عبادة الأم العظيمة والإلهة المصرية إيزيس.[67] وبينما كانت الأدوار القيادية محجوزة للرجال، شاركت النساء في الخدمات والمهن. واتجهت بعض النساء إلى التعليم والفنون والمهن مثل الطب. وفي مصر، وصلت المرأة، بحلول القرن الأول الميلادي، إلى مرحلة متقدمة نسبياً من التحرر، اجتماعياً وسياسياً وقانونياً. في روما، تغيرت أشكال التعليم، حوالي عام 200 قبل الميلاد، لتقديم نفس المنهج الدراسي للفتيات كما هو الحال بالنسبة للأولاد لبعض الأطفال من الطبقة الأرستقراطية. وبعد مرور مائتي عام، وفي بداية العصر المسيحي، بدأت أشكال الزواج الرومانية القديمة الأبوية تفسح المجال بشكل متزايد لشكل قانوني جديد حيث يرتبط الرجل والمرأة ببعضهما البعض من خلال عهود طوعية ومتبادلة. يوضح الباحث الفرنسي جيروم كاركوبينو، في مناقشة بعنوان "النسوية والإحباط"، أنه بحلول القرن الثاني الميلادي، كانت نساء الطبقة العليا غالبًا ما يصررن على "عيش حياتهن الخاصة". [68] اشتكى الساخرون الذكور من عدوانيتهم في مناقشات الأدب والرياضيات والفلسفة، وسخروا من حماسهم لكتابة القصائد والمسرحيات، والموسيقى[69] في ظل الإمبراطورية،

> كانت النساء في كل مكان يشاركن في الأعمال والحياة الاجتماعية، مثل المسارح والأحداث الرياضية والحفلات الموسيقية والحفلات والسفر - مع أزواجهن أو بدونهم. لقد شاركوا في مجموعة كاملة من ألعاب القوى، حتى أنهم حملوا السلاح وذهبوا إلى المعركة... . ... [70]

وحققن تقدمًا كبيرًا في الحياة المهنية. ومن ناحية أخرى، كانت نساء المجتمعات اليهودية مستبعدات من المشاركة الفعالة في العبادة العامة، وفي التعليم، وفي الحياة الاجتماعية والسياسية خارج نطاق الأسرة. [71]

ومع ذلك، ورغم كل هذا، ورغم النشاط العام السابق للنساء المسيحيات، فإن أغلب الكنائس المسيحية في القرن الثاني ذهبت مع أغلبية الطبقة المتوسطة في معارضة التحرك نحو المساواة، والذي وجد دعمه في المقام الأول في الدوائر الغنية أو ما نسميه الدوائر البوهيمية. بحلول عام 200، أيدت أغلبية المجتمعات المسيحية رسالة تيموثاوس الزائفة باعتبارها رسالة قانونية، والتي تؤكد (وتبالغ) في العنصر المناهض للنسوية في آراء بولس: "لتتعلم المرأة في صمت بكل خضوع. "لا أسمح للمرأة أن تُعلِّم أو أن تكون لها سلطة على الرجال، بل عليها أن تلتزم الصمت." [72] كما قبل المسيحيون الأرثوذكس رسائل بولس إلى أهل كولوسي وأهل أفسس، والتي تأمر النساء "بالخضوع لأزواجهن في كل شيء". [73]

يكتب إكليمندس، أسقف روما، في رسالته إلى الكنيسة غير المنضبطة في كورنثوس أن النساء يجب أن "يبقين في حكم الخضوع"[74] لأزواجهن. في حين كان الرجال والنساء المسيحيون في العصور السابقة يجلسون معًا للعبادة، ففي منتصف القرن الثاني ــ وبالتحديد في وقت الصراع مع المسيحيين الغنوصيين ــ بدأت المجتمعات الأرثوذكسية في تبني عادة الكنيس، وفصلت النساء عن الرجال. [75] وبحلول نهاية القرن الثاني، تم إدانة مشاركة المرأة في العبادة صراحة: وتم وصف المجموعات التي استمرت فيها النساء في القيادة بأنها متزندقة.

ما هو سبب هذه التغييرات؟ ويشير الباحث يوهانس ليبولدت إلى أن تدفق العديد من اليهود اليونانيين إلى الحركة ربما أثر على الكنيسة في اتجاه التقاليد اليهودية، ولكن كما يعترف، "هذه مجرد محاولة لتفسير الوضع: إن الواقع نفسه هو الشيء الوحيد المؤكد". [76] يقترح البروفيسور مورتون سميث أن التغيير ربما يكون نتيجة لتحرك المسيحية نحو الأعلى في السلم الاجتماعي من الطبقة الدنيا إلى الطبقة المتوسطة. ويلاحظ أنه في الطبقة الدنيا،

حيث كان العمل مطلوبًا، وكان يُسمح للنساء بأداء أي خدمات يستطعن القيام بها (ولذلك، في الشرق الأوسط اليوم، فقط نساء الطبقة المتوسطة هن من يرتدين الحجاب).

تشير النصوص الأرثوذكسية والغنوصية إلى أن هذا السؤال أثبت أنه مثير للجدل إلى حد كبير. لجأ الخصوم من كلا الجانبين إلى الأسلوب الجدلي في كتابة الأدب الذي يُزعم أنه مستمد من العصر الرسولي، مدعيًا أنه ينقل آراء الرسل الأصليين حول الموضوع. كما ذكرنا سابقًا، يروي إنجيل فيليب عن التنافس بين التلاميذ الذكور ومريم المجدلية، التي وُصفت هنا بأنها رفيقة يسوع الأكثر حميمية، ورمز الحكمة الإلهية:

> ... رفيقة (المخلص) مريم المجدلية. (ولكن المسيح أحبها أكثر من جميع التلاميذ وكان يقبلها كثيراً على فمها). أما بقية التلاميذ فقد استاءوا من ذلك. فقالوا له: "الماذا تحبها أكثر منا جميعا؟" فأجابهم المخلص وقال لهم: لماذا لا أحبكم كما أحبها؟ [77]

إن حوار المخلص لا يقتصر على ذكر مريم المجدلية كواحدة من التلاميذ الثلاثة الذين تم اختيارهم لتلقي تعليم خاص، بل يمتدحها أيضًا فوق الاثنين الآخرين، توما ومتى: "... لقد تحدثت كامرأة تعرف الكل". [78]

وتستخدم نصوص سرية أخرى شخصية مريم المجدلية للإيحاء بأن نشاط المرأة كان يشكل تحديًا لقادة المجتمع الأرثوذكسي، الذين اعتبروا بطرس المتحدث باسمهم. يروي إنجيل مريم أنه عندما طلب التلاميذ، الذين أصيبوا بالإحباط والرعب بعد الصلب، من مريم أن تشجعهم بإخبارهم بما قاله لها الرب سراً، وافقت وعلمتهم حتى سأل بطرس، غاضباً: "هل كان يتكلم حقاً مع امرأة على انفراد، وليس علانية لنا؟" هل نلتفت ونستمع لها جميعاً؟ هل فضّلها علينا؟ فأجابته مريم منزعجة من غضبه: "يا أخي بطرس، ماذا تعتقد؟ هل تظن أنني فكرت في هذا الأمر في قلبي، أم أنني أكذب بشأن المخلص؟ يتدخل ليفي في هذه المرحلة للتوسط في النزاع: "بطرس، لقد كنت دائمًا سريع الغضب. والآن أراك تناضل ضد المرأة مثل الخصوم. ولكن إذا كان المخلص قد جعلها مستحقة، فمن أنت،

في الواقع، لترفضها؟ بالتأكيد كان الرب يعرفها جيدًا. "لهذا السبب أحبها أكثر منا."[73] ثم وافق الآخرون على قبول تعليم مريم، وتشجعوا بكلامها، وخرجوا للتبشير. هناك جدال آخر بين بطرس ومريم في كتاب "حكمة الإيمان". يشكو بطرس من أن مريم تسيطر على الحديث مع يسوع وتحل محل الأولوية المشروعة لبطرس وإخوته الرسل. ويحثه على إسكاتها، فيتم توبيخه بسرعة. ولكن في وقت لاحق، اعترفت مريم ليسوع بأنها بالكاد تجرؤ على التحدث معه بحرية، لأنها، على حد قولها، "بطرس يجعلني أتردد؛ أنا خائفة منه، لأنه يكره الجنس النسائي".[80] فيجيب يسوع أن من يلهمه الروح القدس فهو مكلف إلهياً بالتكلم، سواء كان رجلاً أو امرأة.

ورد المسيحيون الأرثوذكس برسائل وحوارات "رسولية" مزعومة تؤكد وجهة النظر المعاكسة. ومن الأمثلة الأكثر شهرة، بطبيعة الحال، الرسائل شبه البوليسية المذكورة أعلاه. في رسالتي تيموثاوس الأولى والثانية، وكولوسي، وأفسس، يصر "بولس" على أن تكون المرأة تابعة للرجل. رسالة تيطس، باسم بولس، توجه اختيار الأساقفة بشروط تستبعد النساء تمامًا من الاعتبار. حرفيًا ومجازيًا، يجب أن يكون الأسقف بمثابة الأب للجماعة. يجب أن يكون رجلاً تكون زوجته وأولاده "خاضعين له في كل شيء"؛ وهذا يثبت قدرته على الحفاظ على "كنيسة الله"[81] في النظام، وأعضائها خاضعين بشكل صحيح. قبل نهاية القرن الثاني، ظهرت الكنيسة الرسولية في الجماعات الأرثوذكسية. هنا يظهر الرسل وهم يناقشون مسائل مثيرة للجدل. بحضور مريم ومرثا، قال يوحنا:

> عندما بارك السيد الخبز والكأس وكتب عليهما عبارة "هذا هو جسدي ودمي"، لم يقدمهما للنساء اللواتي معنا. فقالت مرثا: "لم يقدمه إلى مريم لأنه رأى ضحكتها". قالت مريم: "لم أعد أضحك". كما قال لنا من قبل وهو يعلم: "ضعفكن قد افتديتم بالقوة".[82]

ولكن حجتها تفشل؛ إذ يتفق التلاميذ الذكور على أنه لهذا السبب لا يجوز لأي امرأة أن تصبح كاهنة.

ومن ثم يمكننا أن نرى نمطين مختلفين للغاية من المواقف الجنسية الناشئة في الدوائر الأرثوذكسية والغنوصية. في أبسط صوره، يربط العديد من المسيحيين الغنوصيين وصفهم لله من حيث المذكر والمؤنث مع وصف تكميلي للطبيعة البشرية. في أغلب الأحيان يشيرون إلى قصة الخلق المذكورة في سفر التكوين 1، والتي تشير إلى خلق بشري متساوٍ أو خنثى. غالبًا ما يأخذ المسيحيون الغنوصيون مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في الهياكل الاجتماعية والسياسية لمجتمعاتهم. إن النمط الأرثوذكسي مختلف بشكل لافت للنظر: فهو يصف الله بمصطلحات ذكورية حصرية، ويشير عادة إلى سفر التكوين 2 لوصف كيفية خلق حواء من آدم، وتحقيقه. وكما هو الحال مع النظرة الغنوصية، فإن هذا يترجم إلى ممارسة اجتماعية: بحلول أواخر القرن الثاني، أصبح المجتمع الأرثوذكسي يقبل سيطرة الرجال على النساء باعتباره النظام الإلهي، ليس فقط للحياة الاجتماعية والأسرية، ولكن أيضًا للكنائس المسيحية.

ومع ذلك، هناك استثناءات لهذه الأنماط. لم يكن الغنوصيون متفقين على تأييد المرأة، كما لم يكن الأرثوذكس متفقين على تحقيرها. لا شك أن بعض النصوص الغنوصية تتحدث عن الأنثى من منظور الازدراء. يخاطب كتاب توما المزعوم الرجال بالتحذير "ويل لكم أيها الذين تحبون العلاقة الحميمة مع النساء، والجماع الملوث معها!" [83] يصف تفسير شيم، أيضًا من نجع حمادي، رعب ماتيور، التي "حوّلت مهبلها الداكن وأخرجت منها قوة النار، التي كانت فيها منذ البداية، من خلال ممارسة الظلام". [84] وفقًا لحوار المخلص، يحذر يسوع تلاميذه من "الصلاة في مكان لا توجد فيه امرأة"، و"تدمير أعمال الأنوثة...". [85]

ولكن في كل هذه الحالات فإن الهدف ليس المرأة، بل قوة الجنس. في حوار المخلص، على سبيل المثال، تقف مريم المجدلية، التي يُشاد بها باعتبارها "المرأة التي عرفت كل شيء"، بين التلاميذ الثلاثة الذين تلقوا أوامر يسوع: فهي، إلى جانب يهوذا ومتى، ترفض "أعمال الأنوثة" - أي، على ما يبدو، أنشطة الجماع و

التكاثر. [86] وتظهر هذه المصادر أن بعض المتطرفين في الحركة الغنوصية اتفقوا مع بعض النسويات المتطرفات اللواتي يصررن اليوم على أن أولئك الذين يتخلون عن النشاط الجنسي فقط هم القادرون على تحقيق المساواة الإنسانية والعظمة الروحية.

وتعكس مصادر غنوصية أخرى افتراضًا مفاده أن مكانة الرجل أعلى من مكانة المرأة. لا داعي لأن يفاجئنا هذا الأمر؛ فبما أن اللغة تأتي من التجربة الاجتماعية، فإن أيًا من هؤلاء الكتاب، سواء كان رجلاً أو امرأة، رومانيًا أو يونانيًا أو مصريًا أو يهوديًا، لابد وأن تعلم هذا الدرس الأولي من تجربته الاجتماعية. يعتقد بعض الغنوصيين أن الرجل يتفوق على المرأة في الوجود العادي، وبالتالي فإن الإلهي يتفوق على البشري، فيحولون المصطلحين إلى استعارة. المثل المحير المنسوب إلى يسوع في إنجيل توما - أن مريم يجب أن تصبح ذكرًا حتى تصبح "روحًا حية تشبهكم أيها الذكور". "فإن كل امرأة تجعل نفسها ذكراً سوف تدخل مملكة السماء"[87]- يمكن أن تؤخذ رمزياً: ما هو مجرد إنسان (وبالتالي أنثى) يجب أن يتحول إلى ما هو إلهي ("الروح الحية" الذكر). وبناءً على مقاطع أخرى من إنجيل توما، أصبحت سالومي ومريم تلميذتين ليسوع عندما تجاوزتا طبيعتهما البشرية، وبالتالي "أصبحتا ذكرين". [88] في إنجيل مريم، تحث مريم نفسها التلاميذ الآخرين على "الثناء على عظمته، لأنه أعدنا وجعلنا رجالاً". [89]

وعلى العكس من ذلك، نجد استثناءً صارخًا للنمط الأرثوذكسي في كتابات أحد آباء الكنيسة الموقرين، وهو إكليمندس الإسكندري. يصف إكليمندس نفسه، الذي كتب في مصر حوالي عام 180، بأنه أرثوذكسي، على الرغم من أنه يعرف أعضاء الجماعات الغنوصية وكتاباتهم جيدًا: حتى أن البعض يشير إلى أنه كان هو نفسه متأهلاً غنوصيًا. ومع ذلك، فإن أعماله الخاصة توضح كيف يمكن دمج العناصر الثلاثة لما أطلقنا عليه النمط الغنوصي في التعليم الأرثوذكسي الكامل. أولاً، يصف إكليمندس الله بمصطلحات أنثوية ومذكرة:

> "الكلمة هي كل شيء بالنسبة للطفل، الأب والأم، المعلم والمربية..." الغذاء هو حليب الآب... والكلمة وحدها هي التي تزودنا نحن الأطفال بـ...

حليب الحب، ومن يرضع من هذا الثدي فقط هو السعيد حقًا. لهذا السبب، يُسمى البحث رضاعة؛ بالنسبة لأولئك الأطفال الذين يبحثون عن الكلمة، فإن ثديي الآب المحب يوفر الحليب. [90]

ثانياً، في وصفه للطبيعة البشرية، يصر على أن

الرجال والنساء يتشاركون بالتساوي في الكمال، ويجب أن يتلقوا نفس التعليم ونفس الانضباط. لأن اسم "الإنسانية" مشترك بين الرجال والنساء؛ وبالنسبة لنا "في المسيح ليس هناك ذكر ولا أنثى". [91]

وبينما يحث النساء على المشاركة مع الرجال في المجتمع، يقدم إكليمندس قائمة فريدة من نوعها في التقاليد الأرثوذكسية تضم نساءً يُعجب بإنجازاتهن. وتتراوح هذه الأمثلة من الأمثلة القديمة، مثل يهوديت القاتلة التي دمرت عدو إسرائيل، إلى الملكة إستير التي أنقذت شعبها من الإبادة الجماعية، فضلاً عن آخرين اتخذوا مواقف سياسية متطرفة. ويذكر الكاتبة أريجنوت، والفيلسوف الأبيقوري ثيميستو، والعديد من الفيلسوفات الأخريات، بما في ذلك اثنتان درستا على يد أفلاطون، وواحدة تدربت على يد سقراط. إنه لا يستطيع أن يكبح جماح مدحه:

ماذا أقول؟ ألم تكن ثيانو الفيثاغورية قد أحرزت تقدماً في الفلسفة إلى درجة أنه عندما نظر إليها رجل وقال: "ذراعك جميلة"، أجابت: "نعم، ولكنها ليست معروضة للعامة". [92]

ويختتم إكليمندس قائمته بالشاعرات والرسامات المشهورات.

ولكن إثبات إكليمندس أن حتى المسيحيين الأرثوذكس يمكنهم التأكيد على العنصر الأنثوي - والمشاركة النشطة للمرأة - لم يجد صدى كبيرا. ربما كانت وجهة نظره، التي تشكلت في أجواء الإسكندرية العالمية وتم التعبير عنها بين أعضاء الأثرياء والمتعلمين في المجتمع المصري، غريبة للغاية بالنسبة لغالبية المجتمعات المسيحية الغربية التي كانت متناثرة من آسيا الصغرى إلى اليونان وروما وأفريقيا الإقليمية وبلاد الغال. وبدلاً من ذلك، تبنت الأغلبية موقف ترتليان، المعاصر الصارم والإقليمي لإكليمندس:

لا يجوز للمرأة أن تتحدث في الكنيسة، ولا يجوز لها أن تُعلِّم، ولا أن تُعمِّد، ولا أن تُقدِّم (القربان المقدس)، ولا أن تدَّعي لنفسها نصيبًا في أي وظيفة ذكورية، وخاصةً في منصب الكهنوت. [93]

وقد ظل إجماعهم، الذي استبعد موقف إكليمندس، مهيمناً على أغلبية الكنائس المسيحية: فبعد نحو ألفي عام، في عام 1977، أعلن البابا بولس السادس، أسقف روما، أن المرأة لا يمكن أن تكون كاهنة "لأن ربنا كان رجلاً"! إن مصادر نجع حمادي، التي تم اكتشافها في وقت الأزمات الاجتماعية المعاصرة فيما يتعلق بالأدوار الجنسية، تتحدانا لإعادة تفسير التاريخ - وإعادة تقييم الوضع الحالي.

IV

آلام المسيح واضطهاد المسيحيين

هناك

حقيقة واحدة فقط تتفق عليها كل الروايات تقريبًا عن يسوع الناصري، سواء كتبها أشخاص معادون له أو مخلصون له: أنه بأمر من الحاكم الروماني، بيلاطس البنطي، أُدين وصلب (حوالي عام 30). تاسيتس، المؤرخ الروماني الأرستقراطي (حوالي 55-115)، الذي لم يكن يعرف شيئًا تقريبًا عن يسوع، ذكر هذا فقط. في سرده لتاريخ نيرون سيئ السمعة (الإمبراطور 54-58)، يقول إن نيرون، المتهم بإشعال حرائق كبيرة في روما،

> استبدل فئة من الأشخاص المكروهين بسبب رذائلهم، والذين أطلق عليهم الحشد اسم المسيحيين، كمذنبين وعاقبهم بأقصى درجات القسوة. كان كريستوس، مؤسس الاسم، قد خضع لعقوبة الإعدام في عهد تيبريوس، بحكم من الوالي بيلاطس البنطي، وتم كبح الخرافة الخبيثة للحظة، ولكنها اندلعت مرة أخرى، ليس فقط في يهودا، موطن المرض، ولكن في العاصمة نفسها، حيث يتجمع كل شيء فظيع أو مخجل في العالم ويصبح رائجًا.[1]

يذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس يسوع الناصري في قائمة المشاكل التي أزعجت العلاقات اليهودية مع روما عندما كان بيلاطس حاكمًا (تقريبًا في 26-36). يقول تعليق منسوب إلى يوسيفوس أن "بيلاطس، بعد أن سمع اتهامه من قبل رجال من أعلى مكانة بيننا ... حكم عليه بالصلب". [2]

ويؤكد أتباع يسوع هذا التقرير. يخبرنا إنجيل مرقس، الذي ربما يكون أقدم روايات العهد الجديد (حوالي 70-80)، كيف أن يسوع، الذي خانه يهوذا الإسخريوطي ليلاً في بستان جثسيماني مقابل أورشليم، أُلقي القبض عليه من قبل رجال مسلحين بينما كان تلاميذه يفرون.[3] اتُهم بالتحريض على الفتنة أمام بيلاطس، وحُكم عليه بالموت.[4] بعد صلبه، عاش يسوع لعدة ساعات قبل أن "يصرخ صرخة عظيمة" [5] كما يروي مرقس ومات. إن إنجيلي لوقا ويوحنا، اللذان كتبا ربما بعد جيل واحد (حوالي 30-110)، يصفان موته بعبارات أكثر بطولية: إذ يغفر يسوع لمعذبيه، ويسلم حياته بالصلاة.[6] ومع ذلك فإن الأناجيل الأربعة في العهد الجديد تصف معاناته وموته ودفنه المتسرع. وبطبيعة الحال، تفسر الأناجيل الظروف التي أدت إلى وفاته لإثبات براءته. يقول مرقس أن رؤساء الكهنة والقادة في أورشليم خططوا لاعتقال يسوع وإعدامه بسبب تعليمه ضدهم.[7]ويقدم يوحنا رواية أكثر اكتمالاً، معقولة تاريخياً. ويذكر أنه مع تزايد شعبية يسوع وجذب أعداد متزايدة إلى حركته، جمع رؤساء الكهنة مجلس السنهدريم لمناقشة مخاطر الشغب. وكان بعض الناس من بين الجماهير غير المتعلمة قد أعلنوا بالفعل أن يسوع هو المسيح[8] - "الملك الممسوح" الذي توقعوا أنه سيحرر إسرائيل من الإمبريالية الأجنبية ويعيد الدولة اليهودية. وخاصة خلال عيد الفصح، عندما يتدفق الآلاف من اليهود إلى أورشليم للاحتفال بالعيد، فإن هذا الزخم قد يشعل مشاعر القومية اليهودية، التي كانت مشتعلة بالفعل في المدينة، ويدفعها إلى الثورة. وقد حمل المجلس مسؤولية الحفاظ على السلام بين السكان اليهود والجيش الروماني المحتل - وهو سلام هش للغاية لدرجة أنه عندما عبّر جندي روماني كان متمركزًا في الحراسة في القدس خلال عيد الفصح،

بعد بضع سنوات فقط، عن احتقاره من خلال كشف نفسه في ساحة الهيكل، أثار فعله أعمال شغب قيل إن 30 ألف شخص فقدوا أرواحهم فيها. ويضيف يوسيفوس، الذي يروي هذه القصة: "وهكذا انتهى العيد بضيق للأمة بأكملها، وحزن لكل بيت". [9]

يُعيد يوحنا بناء نقاش المجمع بشأن يسوع: "ماذا علينا أن نفعل؟ ... "إذا سمحنا له بالاستمرار على هذا النحو،" قد تتظاهر الجماهير لصالح هذا الملك اليهودي الجديد المزعوم، "وسيأتي الرومان ويدمرون مكاننا المقدس وأمتنا". [10] فجادل رئيس الكهنة قيافا لصالح القبض على رجل واحد في الحال، بدلاً من تعريض السكان بأكملهم للخطر.[11] حتى أن يوحنا كان عليه أن يدرك الفطنة السياسية لهذا المنطق: فقد كتب روايته بعد فترة وجيزة من الحرب اليهودية عام 70-66، وهو تمرد ضد روما انتهى بالكارثة الشاملة التي تنبأ بها قيافا، وفقًا ليوحنا: إحراق الهيكل بالكامل، وتدمير مدينة أورشليم، وإبادة السكان.

ومع ذلك، إذا كانت المصادر تتفق على الحقائق الأساسية المتعلقة بإعدام يسوع، فإن المسيحيين يختلفون بشدة في تفسيرها. يروي أحد النصوص الغنوصية من نجع حمادي، وهو سفر رؤيا بطرس، رواية مختلفة جذريًا عن الصلب:

> . . . لقد رأيته على ما يبدو يتم القبض عليه من قبلهم. فقلت: ماذا أرى يا رب؟ هل أنت حقا من يأخذونه؟ وهل أنت متمسك بي؟ وهل يضربون أقدام وأيدي غيرهم؟ من هو هذا الذي فوق الصليب، الذي يفرح ويضحك؟ قال لي المخلص: "الذي رأيته فرحًا وضاحكًا فوق الصليب هو يسوع الحي". وأما الذي تُدق المسامير في يديه وقدميه فهو عضوه الجسدي، الذي هو البديل. فأخزوا ما بقي على صورته. وانظر إليه، وانظر إليّ! [12]

ويروي نص آخر من نصوص نجع حمادي، وهو الرسالة الثانية لسيث الأعظم، تعاليم المسيح القائلة بأن

> كان آخر... الذي شرب المرارة والخل؛ لم أكن أنا. ضربوني بالقصب؛ كان آخر، سمعان،

الذي حمل الصليب على كتفه. وكان آخر من وضعوا عليه إكليل الشوك. ولكني كنت أفرح بارتفاع... خطئهم... وكنت أضحك على جهلهم.[13]

ماذا يعني هذا؟ إن سفر أعمال يوحنا ـ وهو أحد أشهر النصوص الغنوصية، وأحد النصوص القليلة التي اكتشفت قبل نجع حمادي، والذي نجا بطريقة ما، في شكل مجزأ، من التنديدات المتكررة من جانب الأرثوذكس ـ يشرح أن يسوع لم يكن إنسانًا على الإطلاق؛ بل كان كائنًا روحيًا تكيف مع الإدراك البشري. تروي أعمال الرسل كيف رآه يعقوب ذات مرة واقفًا على الشاطئ في صورة طفل، ولكن عندما أشار إليه ليوحنا،

قلت (يوحنا): أي طفل؟ فأجابني: "الذي يشير إلينا". فقلت: "هذا بسبب المراقبة الطويلة التي قمنا بها في البحر. أنت لا ترى الأمور بشكل صحيح، يا أخي يعقوب. ألا ترى الرجل الواقف هناك، وهو وسيم، وجميل، ومبهج المظهر؟ فقال لي: لا أرى ذلك الرجل يا أخي. [14]

وعندما ذهبوا إلى الشاطئ للتحقيق، أصبحوا أكثر ارتباكًا. وفقًا ليوحنا،

لقد ظهر لي مرة أخرى وكأنه أصلع إلى حد ما ولكن بلحية كثيفة، ولكن بالنسبة ليعقوب فقد ظهر كشاب بدأت لحيته للتو... حاولت أن أراه كما هو.. ولكنه كان يظهر لي أحيانًا كرجل صغير بلا ملامح جميلة، ثم يظهر لي مرة أخرى وكأنه ينظر إلى السماء. [15]

ويتابع يوحنا:

سأخبركم بمجد آخر، أيها الإخوة؛ أحيانًا عندما أردت أن ألمسه، وجدت جسمًا ماديًا صلبًا؛ ولكن في أوقات أخرى أيضًا عندما لمسته، كان جوهره غير مادي وغير جسدي... كما لو لم يكن موجودًا على الإطلاق. [16]

ويضيف يوحنا أنه فحص بعناية آثار الأقدام، لكن يسوع لم يترك أي أثر قط، ولم يرمش بعينيه قط. كل هذا يوضح ليوحنا أن طبيعته روحية وليست بشرية.

ويستمر أعمال الرسل في إخبارنا كيف انضم يسوع إلى تلاميذه في جثسيماني في الليلة السابقة، قبل أن يتم القبض عليه:

... جمعنا جميعًا وقال: "قبل أن أُسلَّم إليهم، فلنُرنِّم ترنيمة للأب، ثم نذهب لملاقاة ما هو أمامنا". فأمرنا أن نشكل دائرة، ممسكين بأيدي بعضنا البعض، ووقف هو في المنتصف... [17]

وأمر التلاميذ بأن "يجيبوا آمين"، وبدأ بترديد ترنيمة صوفية، تقول جزئيًا:

"للكون ينتمي الراقص." - "آمين."

"من لا يرقص لا يعرف ماذا يحدث." -

"آمين." . . . "إذا كنت تتبع رقصتي، فانظر إلى نفسك فيّ أنا الذي أتحدث..." أنت الذي ترقص، فكر فيما أفعله، لأن هذا الشغف البشري هو الذي يجب أن أعانيه. لأنه لم يكن بإمكانك بأي حال من الأحوال أن تفهم ما تعانيه لولا أنني أُرسل إليك باعتباري الكلمة من قبل الآب... "تعلم كيف تعاني وسوف تكون قادرًا على عدم المعاناة." [18]

ويتابع يوحنا:

وبعد أن رقص الرب معنا يا حبيبي خرج (ليتألم). وكنا كالرجال المذهولين أو النائمين، ففررنا هنا وهناك. "وهكذا رأيته يتألم، ولم أنتظر معاناته، بل هربت إلى جبل الزيتون وبكيت..." "ولما عُلِّق (على الصليب) يوم الجمعة، في الساعة السادسة من النهار، أظلمت الظلمة على الأرض كلها." [19]

وفي تلك اللحظة، بينما كان يوحنا جالسًا في مغارة بجثسيماني، رأى فجأة رؤيا ليسوع، الذي قال:

"يوحنا، من أجل الناس أدناه..." أنا أُصلب وأُطعن بالرماح... وأسقى الخل والمرارة. ولكني أتكلم إليك، فاسمع ما أتكلم به. [20]

ثم تكشف الرؤية ليوحنا عن "صليب النور"، وتشرح أنني "لم أعاني من أي شيء مما سيقولونه عني

؛ حتى تلك المعاناة التي أظهرتها لك وللبقية في رقصي، أريد أن يُطلق عليها اسم سر."[21] ويفسر الغنوصيون الآخرون، أتباع فالانتينوس، معنى هذه المفارقات بطريقة مختلفة. وفقًا لكتاب "رسالة في القيامة" الذي تم اكتشافه في نجع حمادي، فإن يسوع، بما أنه كان "ابن الإنسان"، وباعتباره إنسانًا، فقد عانى ومات مثل بقية البشرية.[22] ولكن بما أنه كان أيضًا "ابن الله"، فإن الروح الإلهية بداخله لا يمكن أن تموت: وبهذا المعنى فقد تجاوز المعاناة والموت.

ومع ذلك، يصر المسيحيون الأرثوذكس على أن يسوع كان إنسانًا، وأن جميع المسيحيين "المتفكرين بشكل مستقيم" يجب أن يأخذوا الصلب كحدث تاريخي وحرفي. ولضمان ذلك، فإنهم يضعون في العقيدة، كعنصر أساسي من الإيمان، العبارة البسيطة التي تقول: "إن يسوع المسيح عانى في عهد بيلاطس البنطي، وصلب ومات ودُفن". أدان البابا ليون الكبير (حوالي عام 447) كتابات مثل أعمال يوحنا باعتبارها "بؤرة للانحراف المتعدد الأشكال"، والتي "لا ينبغي حظرها فحسب، بل يجب تدميرها بالكامل وحرقها بالنار". ولكن لأن الدوائر الزنذيقية استمرت في نسخ هذا النص وإخفائه، فقد اضطر مجمع ميسيني الثاني، بعد ثلاثمائة عام، إلى تكرار الحكم، موجهًا أنه "لا يجوز لأحد أن ينسخ (هذا الكتاب): ليس هذا فحسب، بل نعتبره يستحق أن يُرسل إلى النار".

ما وراء هذا العنف؟ لماذا أصبح الإيمان بآلام المسيح وموته عنصراً أساسياً - كما يقول البعض، العنصر الأساسي - في المسيحية الأرثوذكسية؟ أنا مقتنع بأننا لا نستطيع الإجابة على هذا السؤال بشكل كامل حتى ندرك أن الجدل حول تفسير معاناة المسيح وموته ينطوي، بالنسبة للمسيحيين في القرنين الأول والثاني، على سؤال عملي عاجل: كيف ينبغي للمؤمنين أن يستجيبوا للاضطهاد، الذي يثير التهديد الوشيك بمعاناتهم وموتهم؟

ربما كانت هذه القضية أكثر إلحاحًا بالنسبة لتلاميذ يسوع، بعد أن عاشوا بأنفسهم الأحداث المؤلمة التي نجمت عن خيانته واعتقاله، وبعد أن سمعوا روايات عن محاكمته وتعذيبه وعذابه الأخير. ومنذ ذلك الوقت، وخاصة عندما تم القبض على أبرزهم، بطرس ويعقوب،

وإعدامهما، أدرك كل مسيحي أن الانتماء إلى الحركة يضعه في خطر. وقد ذكر كل من تاسيتس وسويتونيوس، مؤرخ البلاط الإمبراطوري (حوالي 115)، اللذين كانا يشتركان في ازدراء المسيحيين تمامًا، أن هذه المجموعة كانت في المقام الأول هدفًا للاضطهاد الرسمي. في سرده لحياة نيرون، يذكر سويتونيوس، في قائمة بالأشياء الجيدة التي فعلها الإمبراطور، أن "العقاب قد وقع على المسيحيين، وهم فئة من الأشخاص الذين اعتنقوا خرافة جديدة وخبيثة". [23] ويضيف تاسيتس إلى ملاحظاته بشأن الحريق في روما:

> أولاً، تم القبض على أعضاء الطائفة الذين اعترفوا؛ وبعد ذلك، بناءً على إفصاحاتهم، تمت إدانة أعداد كبيرة منهم، ليس بتهمة الحرق العمد، بل بتهمة الكراهية للجنس البشري. ولقد صاحبت السخرية نهايتهم: فقد غُطُّوا بجلود الوحوش البرية ومزقتهم الكلاب حتى الموت؛ أو ثُبِّتوا على الصلبان، وعندما غاب ضوء النهار، أُحرِقوا ليكونوا بمثابة مشاعل في الليل. لقد عرض نيرون حدائقه لهذا المشهد... [24]

يفسر تاسيتس تصرف نيرون من حيث حاجته إلى كبش فداء. ولكن حتى الآن، ربما اعتبرت الحكومة المسيحيين خارج روما ـ إن اعتبرتهم على الإطلاق ـ غير مهمين إلى الحد الذي يمنعها من اتخاذ إجراءات منهجية ضد الحركة. ولكن منذ أن حكم أغسطس كإمبراطور (27 ق.م. - 14 م.)، تحرك الإمبراطور ومجلس الشيوخ لقمع أي معارضين اجتماعيين اعتقدوا أنهم مثيري شغب محتملين، كما فعلوا مع المنجمين والسحرة وأتباع الطوائف الدينية الأجنبية والفلاسفة.[25] وكانت الجماعة المسيحية تحمل كل علامات المؤامرة. أولاً، عرّفوا أنفسهم على أنهم أتباع رجل اتهم بالسحر [26] وأُعدم بسبب ذلك وبسبب الخيانة؛ ثانياً، كانوا "ملحدين"، الذين نددوا بالآلهة التي حمت ثروات الدولة الرومانية - حتى عبقرية (الروح الإلهية) للإمبراطور نفسه - ووصفوها بأنها "شياطين"؛ ثالثاً، كانوا ينتمون إلى جمعية غير قانونية. بالإضافة إلى هذه الأفعال التي تمكنت الشرطة من التحقق منها، أشارت الشائعات إلى أن سريتهم كانت تخفي فظائع: قال أعداؤهم إنهم كانوا يأكلون لحوم البشر ويشربون دماء البشر بشكل طقسي، وهي ممارسات كان السحرة يمارسونها بشكل شائع.

المتهم.[27] ورغم أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت قانون يحظر على وجه التحديد التحول إلى المسيحية، فقد كان أي قاضٍ يستمع إلى شخص متهم بالمسيحية ملزمًا بالتحقيق.[28] غير متأكد من كيفية التعامل مع مثل هذه الحالات، كتب بليني، حاكم بيثينيا (مقاطعة في آسيا الصغرى)، (حوالي عام 112) إلى الإمبراطور تراجان، طالبًا توضيحًا:

> من عادتي، يا سيدي الإمبراطور، أن أحيل إليك جميع الأسئلة التي أشك فيها. من يستطيع أن يرشدني بشكل أفضل ...؟ لم أشارك قط في التحقيقات مع المسيحيين؛ وبالتالي لا أعرف ما هي الجريمة التي عادة ما يتم معاقبتها أو التحقيق فيها، أو ما هي الإعفاءات التي يتم تقديمها... وفي الوقت نفسه، هذا هو المسار الذي اتبعته مع أولئك الذين اتُهموا أمامي بأنهم مسيحيون. سألتهم هل هم مسيحيون، وسألتهم مرة ثانية وثالثة تحت التهديد بالعقاب. إذا التزموا بذلك، فقد أمرت بنقلهم إلى الإعدام، لأنني لم أشك في أنهم مهما كان ما اعترفوا به، فإنهم في كل الأحوال يستحقون العقاب على عنادهم وإصرارهم العنيد... "أما بالنسبة لأولئك الذين قالوا إنهم لم يكونوا مسيحيين قط، فقد رأيت أنه من الصواب أن أتركهم يذهبون، عندما تلاوا صلاة للآلهة بناءً على إملائي، وقدموا دعاءً بالبخور والنبيذ إلى تمثالك، الذي أمرت بإحضاره إلى المحكمة لهذا الغرض، وعلاوة على ذلك، لعنوا المسيح - أشياء (كما يقال) لا يمكن إجبار المسيحيين الحقيقيين على القيام بها.[29]

رد تراجان موافقًا على طريقة تعامل بليني مع الأمر:

> لقد اتخذت المسار الصحيح، يا عزيزي سيكوندوس، في فحصك لقضايا أولئك الذين اتُهموا أمامك كمسيحيين، لأنه في الواقع لا يمكن وضع أي شيء كقاعدة عامة تتضمن شيئًا مثل شكل محدد من الإجراءات. لا ينبغي البحث عنهم؛ ولكن إذا اتُهموا وأُدينوا، فيجب معاقبتهم - ولكن بشرط أن من ينكر أنه مسيحي، ويجعل هذه الحقيقة واضحة من خلال عمله، أي من خلال عبادة آلهتنا، سيحصل على العفو عن توبته، مهما كانت سلوكياته الماضية مشبوهة.[30]

لكن تراجان نصح بليني بعدم قبول الاتهامات المجهولة، "لأنها مثال سيئ، ولا تليق بعصرنا". واتفق بليني وتراجان على أن أي شخص يرفض مثل هذه البادرة من الولاء لابد أن يكون لديه جرائم خطيرة يخفيها، خاصة وأن عقوبة الرفض هي الإعدام الفوري.

جاستن، الفيلسوف الذي اعتنق المسيحية (حوالي 150-155 م)، كتب بجرأة إلى الإمبراطور أنطونيوس بيوس وإلى ابنه الإمبراطور المستقبلي ماركوس أوريليوس، الذي خاطبه باعتباره زميلًا له في الفلسفة و"محبًا للتعلم"، [31]احتجاجًا على الظلم الذي عانى منه المسيحيون في المحاكم الإمبراطورية. يروي جاستن حالة حدثت مؤخرًا في روما: امرأة شاركت مع زوجها وخدمهما في أشكال مختلفة من النشاط الجنسي، تحت تأثير الخمر، ثم اعتنقت المسيحية بتأثير معلمها بطليموس، ورفضت بعد ذلك المشاركة في مثل هذه الأنشطة. أقنعتها صديقاتها بعدم الطلاق، على أمل أن تحدث المصالحة. ولكن عندما علمت أن زوجها تصرف بشكل أكثر فظاظة من أي وقت مضى أثناء رحلة إلى الإسكندرية في مصر، رفعت دعوى طلاق وتركته. فقام زوجها الغاضب على الفور برفع دعوى قضائية ضدها، مؤكدًا أنها مسيحية. عندما فازت بالتماس لتأجيل محاكمتها، هاجم زوجها معلمها بالمسيحية. وعندما سمع القاضي أوربيكوس الاتهام، سأل بطليموس سؤالاً واحداً فقط: هل كان مسيحياً؟ وعندما اعترف بذلك، حكم عليه أوربيكوس على الفور بالموت. وبعد سماع هذا الأمر، تحدى رجل في قاعة المحكمة يُدعى لوسياس القاضي قائلاً:

"ما فائدة هذا الحكم؟ لماذا عاقبت هذا الرجل، ليس كزاني، ولا فاسق، ولا سارق، ولا قاطع، ولا محكوم عليه بأي جريمة على الإطلاق، بل كفرد اعترف فقط بأنه يُدعى مسيحيًا؟ "إن حكمك هذا، يا أوربيكوس، لا يليق بالإمبراطور بيوس، ولا بالفيلسوف ابن القيصر (ماركوس أوريليوس)، ولا بمجلس الشيوخ المقدس." [32]

فأجاب أوربيكوس فقط: "يبدو أنك واحد منهم أيضًا". وعندما قال لوسياس "أنا كذلك حقًا"، أدانه أوربيكوس - و

المتظاهر الثاني في الجمهور - ليتبع بطليموس حتى الموت. عند سرد هذه القصة، يشير جاستن إلى أن أي شخص يمكنه استخدام تهمة المسيحية لتسوية أي ضغينة شخصية ضد مسيحي: "أنا أيضًا أتوقع أن يتم التآمر ضدي وصلبي"[33] - ربما، كما يضيف، من قبل أحد منافسيه المحترفين، فيلسوف الكلبية المسمى كريسينس. وكان جاستن على حق: يبدو أن اتهام كريسينس هو الذي أدى إلى اعتقاله ومحاكمته وإدانته في عام 165م. أدار المحاكمة روستيكوس، وهو صديق شخصي لماركوس أوريليوس (الذي كان قد خلف والده كإمبراطور في ذلك الوقت). أمر روستيكوس بإعدام جاستن مع مجموعة كاملة من طلابه، وكانت جريمتهم هي تعلم الفلسفة المسيحية منه. يُظهر سجل محاكمتهم أن روستيكوس سأل جاستن،

> "أين تلتقون؟"... "أينما كانت تفضيلات كل شخص أو فرصته"، قال جاستن. "على أية حال، هل تعتقد أننا نستطيع جميعًا أن نلتقي في نفس المكان؟ "كلا، لأن إله المسيحيين ليس محصورًا في مكان، فهو غير مرئي، ويملأ السماوات والأرض، ويُعبَد ويمجَّد من قِبَل المؤمنين في كل مكان."
>
> قال الحاكم روستيكوس: "أخبرني، أين تلتقون؟ أين تجمع تلاميذك؟
>
> قال جاستن: "لقد كنت أعيش فوق حمامات مارتينوس، ابن تيموتينوس، وخلال فترة إقامتي في روما (وهذه هي إقامتي الثانية) لم أعرف مكانًا آخر للقاء سوى هناك. "كل من يرغب يستطيع أن يأتي إلى مسكني وأنا أنقل إليه كلمات الحقيقة."
>
> قال الحاكم روستيكوس: "هل تعترف إذن بأنك مسيحي؟" "نعم، أنا كذلك"، قال جاستن. [34]

ثم استجوب روستيكوس كاريتون، والمرأة التي تدعى شاريتو، وإويلبيستيس، وهو عبد في البلاط الإمبراطوري، وهيراكس، وليبيريان، وبايون - جميعهم من تلاميذ جاستن. وأعلن الجميع أنهم مسيحيون. تتابع القصة:

> "حسنًا، إذن،" قال الحاكم روستيكوس، "دعونا نصل إلى النقطة الرئيسية، وهي مسألة ضرورية وملحة. "وافق على تقديم التضحيات للآلهة."

> "من كان عاقلاً،" قال جاستن، "لا يتحول من التقوى إلى الكفر."
>
> قال الحاكم روستيكوس: "إذا لم تطع، فسوف تُعاقب بلا رحمة". [35]

عندما أجابوا: "افعلوا ما تريدون؛ نحن مسيحيون، ولا نقدم ذبائح للأصنام"، أصدر روستيكوس الحكم: "يجب اقتياد أولئك الذين رفضوا تقديم الذبائح للآلهة والخضوع لأمر الإمبراطور بالجلد وقطع الرأس وفقًا للقوانين". [36]

وأمام هذا الخطر، ماذا كان على المسيحي أن يفعل؟ بمجرد إلقاء القبض على شخص واتهامه، هل يجب عليه الاعتراف بأنه مسيحي، فقط ليتلقى أمر الإعدام: قطع الرأس على الفور إذا كان محظوظًا بما يكفي ليكون مواطنًا رومانيًا، مثل جاستن ورفاقه، أو بالنسبة لغير المواطنين، التعذيب المطول كمشهد في الساحة الرياضية العامة؟ أم ينبغي لنا أن ننكر ذلك ونقوم بإشارة رمزية للولاء - على أن ننوي بعد ذلك التكفير عن الكذبة؟

كان المسؤولون الرومان مكلفين بمهمة غير سارة تتمثل في إصدار أوامر الإعدام في حالة عدم الامتثال، وكانوا يحاولون في كثير من الأحيان إقناع المتهمين بإنقاذ حياتهم. وفقًا للروايات المعاصرة (حوالي 165)، بعد أن ألقت الشرطة القبض على الأسقف المسن والمبجل بوليكاربوس من سمرنة في آسيا الصغرى،

> حاول الحاكم إقناعه بالتراجع، قائلاً: "احترم سنك"، وغير ذلك من الأشياء المشابهة التي يقولونها عادةً؛ "أقسم بعبقرية الإمبراطور". تراجع. قل: بعيدا عن الملحدين! «نظر بوليكاربوس، بوجه رزين، إلى كل حشد الوثنيين الخارجين عن القانون الذين كانوا في الملعب... وقال: "بعيدًا عن الملحدين!" فأصر الحاكم وقال: أقسم وسأطلق سراحك. العن المسيح! فأجاب بوليكاربوس: "لقد كنت خادمه لمدة ستة وثمانين عامًا، ولم يفعل بي أي خطأ... إذا خدعت نفسك بالاعتقاد بأنني سأقسم بعبقرية الإمبراطور، كما تقول، وإذا تظاهرت بأنك لا تعرف من أنا، فاستمع وسأخبرك بوضوح: أنا مسيحي. [37]

تم حرق بوليكاربوس حيًا في الساحة العامة.

يصف تقرير من شمال أفريقيا (حوالي عام 180) كيف عمل الوالي ساتورنينوس، الذي واجه تسعة رجال وثلاث نساء تم اتهامهم بالمسيحية، على إنقاذ حياتهم، قائلاً:

"إذا عدتم إلى رشدكم، يمكنكم الحصول على العفو من سيدنا الإمبراطور..." نحن أيضًا شعب متدين، وديننا بسيط: نقسم بعبقرية سيدنا الإمبراطور ونقدم صلوات من أجل صحته - كما يجب عليكم أن تفعلوا أيضًا. [38]

وعندما واجههم ساتورنينوس بمقاومتهم القوية، سألهم: "ألا تريدون وقتًا لإعادة النظر؟" فأجاب سبيراتوس، أحد المتهمين: "في مثل هذه المسألة، لا داعي للتفكير". ورغم ذلك، أمر الوالي بإمهالهم ثلاثين يومًا مع عبارة "فكروا في الأمر جيدًا". ولكن بعد ثلاثين يومًا، وبعد استجواب المتهمين، اضطر ساتورنينوس إلى إصدار الأمر التالي:

وبما أن سبيراتوس، ومارزالوس، وسيتينوس، ودوناتا، وفيستيا، وسيكوندا، والآخرون قد اعترفوا بأنهم كانوا يعيشون وفقًا لطقوس المسيحيين، وبما أنهم، على الرغم من منحهم الفرصة للعودة إلى العادات الرومانية، فقد استمروا في عنادهم، فقد حُكم عليهم بموجب هذا بالإعدام بالسيف. [39]

قال سبيراتوس: "نشكر الله**!**" قال مارزالوس: نحن اليوم شهداء في السماء. "الحمد لله**!**"

وقد أثار هذا السلوك سخرية الإمبراطور الرواقي ماركوس أوريليوس، الذي احتقر المسيحيين باعتبارهم مرضى ومتباهين مضللين. قد يتفق الكثيرون اليوم مع حكمه، أو قد يعتبرون الشهداء مجرد مرضى نفسيين. ولكن بالنسبة لليهود والمسيحيين في القرنين الأول والثاني، كان المصطلح يحمل دلالة مختلفة: فكلمة "*martus*" تعني ببساطة، في اليونانية، "الشاهد". في الإمبراطورية الرومانية، كما هو الحال في العديد من البلدان في جميع أنحاء العالم اليوم، وقع أعضاء بعض الجماعات الدينية تحت شكوك الحكومة باعتبارها منظمات تشجع الأنشطة الإجرامية أو الخيانية. إن أولئك الذين تجرأوا، مثل جاستن، على الاحتجاج علناً على المعاملة غير العادلة التي تلقاها المسيحيون في المحكمة جعلوا أنفسهم أهدافاً محتملة لإجراءات الشرطة. بالنسبة لأولئك الذين وقعوا

في مثل هذا الموقف آنذاك، كما هو الحال الآن، كان الاختيار في كثير من الأحيان بسيطًا: إما التحدث علنًا، والمخاطرة بالاعتقال والتعذيب وإجراءات المحاكمة العبثية والنفي أو الموت - أو التزام الصمت والبقاء آمنين. وكان إخوانهم المؤمنون يحترمون أولئك الذين تحدثوا باعتبارهم "معترفين" ويعتبرون فقط أولئك الذين صمدوا بالفعل من خلال الموت "شهودًا" (شهداء).

ولكن ليس كل المسيحيين تحدثوا. كثيرون، في لحظة اتخاذ القرار، اتخذوا الخيار المعاكس. اعتبر البعض الاستشهاد أمراً أحمق، وإهداراً للحياة البشرية، وبالتالي فهو مخالف لإرادة الله. فقد قالوا إن "المسيح مات من أجلنا، حتى لا نقتل نحن". [40] وبما أن الأحداث الماضية أصبحت مسائل تتعلق بالقناعة الدينية فقط عندما تستخدم لتفسير التجربة الحالية، فقد أصبح تفسير موت المسيح هنا محور الجدل حول المسألة العملية المتعلقة بالاستشهاد.

كان الأرثوذكس الذين أعربوا عن أعظم اهتمامهم بدحض الآراء الغنوصية "الزندقة" حول آلام المسيح، بلا استثناء، أشخاصًا عرفوا من خلال تجربتهم المباشرة المخاطر التي يتعرض لها المسيحيون - والذين أصرّوا على ضرورة قبول الاستشهاد. وعندما أُلقي القبض على إغناطيوس، أسقف أنطاكية، ذلك المعارض العظيم للزندقة، وحوكم، قيل إنه قبل حكم الإعدام بفرح وسرور باعتباره فرصة له "التقليد آلام إلهي!" [41] بعد أن حُكم عليه بإرساله من سوريا إلى روما ليُقتل على يد الوحوش البرية في المدرج العام، كتب إغناطيوس، مقيدًا بالسلاسل وتحت حراسة مشددة، إلى المسيحيين في روما، متوسلاً إليهم ألا يتدخلوا في شؤونه:

> أكتب إلى جميع الكنائس، وأوصي الجميع بأنني أموت طوعاً من أجل الله، إذا لم تمنعوه. أرجو منكم أن لا تكونوا "لطفًا في وقت غير متناسب" معي. اسمحوا لي أن أُوكل من قبل الوحوش، التي من خلالها أستطيع الوصول إلى الله. أنا قمح الله، وقد طحنتني أسنان الوحوش البرية، لكي أصير خبزًا نقيًا للمسيح... اسدوا لي هذا المعروف... "فلتأت عليّ النار والصليب، وأصارع الوحوش المفترسة، وأقطع وأمزق، وتسحق عظامي،

> وتشوه الأطراف، ويسحق جسدي كله... أتمنى أن أصل إلى يسوع المسيح! [42]

ماذا تعني آلام المسيح بالنسبة له؟ يقول إغناطيوس إن "يسوع المسيح... تعرض للاضطهاد الحقيقي في عهد بيلاطس البنطي، وصُلب حقًا، ومات". [43]وهو يعارض بشدة المسيحيين الغنوصيين، الذين يصفهم بـ"الملحدين" لاقتراحهم أنه بما أن المسيح كان كائنًا روحيًا، فإنه يبدو فقط أنه يعاني ويموت:

> ولكن إذا كان عذابه، كما يقول البعض... مجرد مظهر، فلماذا أنا سجين، ولماذا أتوق إلى القتال مع الوحوش البرية؟ في هذه الحالة، سأموت عبثًا. [44]

يشكو إغناطيوس من أن أولئك الذين يقيدون وجهة نظره بشأن معاناة المسيح "لا يتأثرون بمعاناتي الشخصية؛ لأنهم يفكرون في نفس الأشياء عني!" [4S] إن خصومه الغنوصيين، الذين يتحدون فهمه لآلام المسيح، يشككون بشكل مباشر في قيمة استشهاده الطوعي.

يصرح جاستن، الذي يطلق عليه التقليد اسم "الشهيد"، أنه قبل اعتناقه المسيحية، عندما كان لا يزال فيلسوفًا أفلاطونيًا، شهد بنفسه المسيحيين وهم يتحملون التعذيب والإعدام العلني. ويقول إن شجاعتهم أقنعته بإلهامهم الإلهي.[46] ويحتج على الاضطهاد العالمي للمسيحيين، فيذكر أولئك المضطهدين في فلسطين (حوالي 135):

> ومن الواضح أنه لا يمكن لأحد أن يرعبنا أو يخضعنا نحن الذين نؤمن بيسوع المسيح، في كل أنحاء العالم. فمن الواضح أنه على الرغم من قطع رؤوسنا وصلبنا وإلقائنا للوحوش البرية، في السلاسل، وفي النار، وجميع أنواع التعذيب الأخرى، فإننا لا نتخلى عن اعترافنا؛ ولكن كلما حدثت مثل هذه الأمور أكثر، كلما أصبح الآخرون، بأعداد أكبر، مؤمنين. [47]

يتفق رأي جاستن مع قناعاته الشخصية بشأن الاستشهاد وقبوله الشجاع لحكم الإعدام الصادر بحقه، وهو أن "يسوع المسيح، معلمنا، الذي ولد لهذا الغرض، صُلب في عهد بيلاطس البنطي ومات،

ونهض مرة أخرى." [48] يختتم جاستن اعتذاره الثاني ("الدفاع" عن المسيحيين) قائلاً إنه كتبه لغرض وحيد وهو دحض الأفكار الغنوصية "الشريرة والخادعة". وهو يهاجم أولئك الذين يقول عنهم إنهم "يُدْعَون مسيحيين"، ولكنه يعتبرهم زنادقة ـ أتباع سمعان، ومرقيون، وفالانتينوس.[49] ويقول بلهجة غامضة ـ يجمع بين الاعتراف والتلميح ـ "نحن لا نعرف ما إذا كانوا يمارسون بالفعل الفجور أو أكل لحوم البشر، ولكنه يضيف "نحن نعرف" إحدى جرائمهم: فعلى النقيض من الأرثوذكس، "لا يُضطهدون ولا يُقتلون" كشهداء.

كان إيرينيئوس، الخصم الأكبر للفالنتينية، مثل أسلافه، رجلاً اتسمت حياته بالاضطهاد. ويذكر العديد من الذين استشهدوا في روما، وعرف من تجربته الشخصية خسارة معلمه الحبيب بوليكاربوس، الذي وقع في عنف الغوغاء، وأدين وأحرق حياً بين أعدائه. وبعد اثني عشر عامًا فقط، في صيف عام 177، شهد إيرينيئوس تزايد العداء تجاه المسيحيين في مدينته ليون. في البداية تم منعهم من دخول الأماكن العامة ـ الأسواق والحمامات. ثم عندما خرج الحاكم الإقليمي من المدينة،

> انطلق الغوغاء. لقد تعرض المسيحيون للملاحقة والهجوم علانية. لقد تم التعامل معهم كأعداء للشعب، وتم الاعتداء عليهم، وضربهم، ورجمهم بالحجارة. وأخيرًا، جُرُّوا إلى المنتدى... ووُجِّهت إليهم تهمٌ، وبعد أن اعترفوا بأنهم مسيحيون، أُلقي بهم في السجن. [50]

وقد صاح أحد أصدقائهم المؤثرين، فيتيوس إيباغاثوس، الذي حاول التدخل في محاكمتهم: "لقد سأله الحاكم فقط ما إذا كان هو أيضًا مسيحيًا". وعندما اعترف بصوت واضح بأنه مسيحي [51] حكم عليه الحاكم بالإعدام مع الآخرين. وأخيراً، "اعترف" خدمهم، الذين تعرضوا للتعذيب لانتزاع المعلومات منهم، بأن أصحاب عملهم المسيحيين ارتكبوا فظائع جنسية وأكل لحوم البشر، كما كان يشتبه الرومان. وتشير رواية شاهد عيان إلى أن هذا الدليل أثار غضب السكان: "انتشرت هذه القصص، وثار جميع الناس

ضدنا، حتى أن أولئك الذين كانوا معتدلين في السابق بسبب صداقتهم لنا أصبحوا الآن غاضبين للغاية ويصرون بأسنانهم ضدنا." [52]

في كل يوم، كان يتم القبض على ضحايا جدد - أكثر أعضاء الكنائس صراحة في ليون أو مدينة فيين المجاورة، على بعد عشرين ميلاً أسفل نهر الرون، وكانوا يتعرضون للتعذيب الوحشي في السجن بينما كانوا ينتظرون اليوم المحدد للإعدام الجماعي، الأول من 1 أغسطس. كان هذا عيدًا للاحتفال بعظمة روما والإمبراطور. وكانت مثل هذه المناسبات تتطلب من الحاكم إظهار وطنيته من خلال رعاية الترفيه العام الباذخ لجميع سكان المدينة. فرضت هذه الالتزامات على المسؤولين الإقليميين نفقات هائلة لتوظيف المصارعين المحترفين، والملاكمين، وفرق المصارعة، والمبارزين. لكن في العام السابق، أقر الإمبراطور ومجلس الشيوخ قانونًا جديدًا لتعويض تكاليف عروض المصارعة. كان بإمكان الحاكم الآن أن يستبدل المجرمين المحكوم عليهم من غير المواطنين قانونيًا، بعرض مشهد تعذيبهم وإعدامهم بدلاً من العروض الرياضية - بتكلفة ستة أوري للفرد، أي عُشر تكلفة استئجار مصارع من الدرجة الخامسة، مع توفير متناسب للدرجات الأعلى. ولا شك أن هذا الاعتبار أضاف حافزا إلى الحماسة الرسمية ضد المسيحيين، الذين كان بوسعهم، كما فعلوا في ليون، توفير أقل وسائل الترفيه تكلفة خلال العطلات.

وتوضح قصة إحدى المعترفات في ليون، وهي الجارية بلاندينا، ما حدث:

> كنا جميعًا في حالة من الرعب؛ وكانت مالكة بلاندينا الأرضية، التي كانت من بين الشهداء في الصراع، في عذاب شديد خشية أن لا تتمكن بسبب ضعفها الجسدي من الاعتراف بإيمانها بجرأة. ومع ذلك، كانت بلاندينا مليئة بمثل هذه القوة حتى أن أولئك الذين كانوا يتناوبون على تعذيبها بكل طريقة ممكنة من الفجر إلى الغسق كانوا متعبين ومنهكين. واعترفوا بأنفسهم بأنهم تعبوا، وأنه لم يعد هناك ما يمكنهم فعله لها، وفوجئوا بأنها لا تزال تتنفس، لأن جسدها بالكامل كان مكسورًا وممزقًا.

في اليوم المحدد لألعاب المصارعة، تم اصطحاب بلاندينا، مع ثلاثة من رفاقها، ماتوروس، وسانكتوس، وأتالوس، إلى المدرج:

> تم تعليق بلاندينا على عمود وعرضها كطعم للحيوانات البرية التي تم إطلاقها عليها. لقد بدت وكأنها معلقة هناك على شكل صليب، وبصلواتها الحارة أثارت حماسًا شديدًا في أولئك الذين كانوا يمرون بمحنتهم... ولكن لم يلمسها أي من الحيوانات، لذا تم إنزالها من العامود وإعادتها إلى السجن لحفظها من أجل محنة أخرى... وعلى الرغم من صغر حجمها وضعفتها وعدم أهميتها، إلا أنها كانت مصدر إلهام لإخوتها... وأخيرًا، في اليوم الأخير من ألعاب المصارعة، أحضروا بلاندينا مرة أخرى، هذه المرة مع صبي يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا يُدعى بونتيكوس. وكانوا يُجلبون كل يوم لمشاهدة تعذيب الآخرين، بينما كانت تُبذل محاولات لإجبارهم على القسم بالأصنام الوثنية. ولأنهم صبروا وأدانوا مضطهديهم، غضب عليهم الجمع، حتى أنهم... أخضعوهم لكل فظائع، وقادوهم عبر كل عذاب.

بعد أن مرا عبر سلسلة من الضربات العنيفة، وتعرضا للضرب من قبل الحيوانات، وأجبرا على الجلوس على مقعد حديدي موضوع فوق النار لحرق جسده، مات بونتيكوس. وبعد أن نجت بلاندينا من نفس التعذيب،

> تم إلقاؤها أخيرًا في شبكة وعرضها للثور. بعد أن ألقاها الحيوان كثيرًا، لم تعد تدرك ما كان يحدث... وهكذا تم تقديمها أيضًا كذبيحة، بينما اعترف الوثنيون أنفسهم بأنه لم تعاني أي امرأة من قبل مثل هذا القدر من المعاناة في تجربتهم. [53]

ورغم أن إيرينيئوس نفسه تمكن بطريقة ما من الفرار من الاعتقال، فإن ارتباطه بالسجناء أجبره على تقديم رواية عن معاناتهم الرهيبة إلى المسيحيين في روما. وعندما عاد إلى بلاد الغال، وجد المجتمع في حالة حداد: فقد مات ما يقرب من خمسين مسيحيًا في المحنة التي استمرت شهرين. لقد تم إقناعه بنفسه بتولي قيادة

المجتمع، خلفًا للأسقف بوثينوس البالغ من العمر تسعين عامًا، والذي توفي بسبب التعذيب و السجن.

وعلى الرغم من كل هذا، فإن إيرينيئوس لا يعبر عن أي عداء تجاه مواطنيه، ولكنه يعبر عن الكثير من العداء ضد "الزناذقة" الغنوصيين. مثل جاستن، فهو يهاجمهم باعتبارهم "إخوة كاذبين" الذين

> وصلوا إلى حد من الوقاحة حتى أنهم يسيئون إلى الشهداء، ويسبون أولئك الذين قُتلوا بسبب اعترافهم بالرب، والذين ... يسعون بذلك إلى اتباع خطى آلام الرب، ويشهدون بأنفسهم لمن عانى. [54]

يختتم هذا التصريح هجومه المفصل على تفسير الفالنتينية لآلام المسيح. إن إيرينيئوس، إذ يدين ادعاءهم بأن طبيعة المسيح البشرية وحدها هي التي تعاني من الألم، بينما طبيعته الإلهية تتجاوزها، يعتبره تجديفًا، ويصر على أن

> نفس الكائن الذي أُسر واختبر الألم، وسفك دمه من أجلنا، كان المسيح وابن الله... وأصبح مخلصًا لأولئك الذين سيُسلمون إلى الموت بسبب اعترافهم به، ويفقدون حياتهم. [55]

ويضيف قائلاً: "إذا افترض أحد أن هناك طبيعتين في المسيح، فإن الذي عانى كان بالتأكيد أفضل من الذي نجا من المعاناة، ولم يتعرض لأي أذى أو إهانة". وفي يوم القيامة، يحذر، عندما "يبلغ الشهداء المجد، فإن كل من ألقى اللوم على استشهادهم سوف يخجل من المسيح". [56]

يصف ترتليان، وهو معارض شرس آخر للزندقة، كيف أن رؤية المسيحيين وهم يتعرضون للتعذيب والموت كانت بمثابة بداية تحوله: فقد رأى مسيحياً محكوماً عليه، يرتدي زياً يشبه الإله أتيس من قبل حراس رومان، ويمزقونه حياً في الساحة؛ وآخر يرتدي زي هرقل، يُحرق حياً. يعترف بأنه هو أيضًا استمتع ذات مرة "بالقسوة السخيفة التي حدثت في ظهر ذلك اليوم [57] عندما كان يشاهد رجلاً آخر يرتدي زي الإله عطارد، يختبر أجساد المعذبين بمكواة ساخنة، ورجل يرتدي زي بلوتو، إله الموتى، يسحب الجثث من الساحة". بعد اعتناقه المسيحية، ربط ترتليان، مثل إيرينيئوس،

بين تعاليم آلام المسيح وموته وحماسه للاستشهاد: "يجب عليك أن تحمل صليبك وتتبع سيدك..." "المفتاح الوحيد لفتح الجنة هو دماء حياتك." [58] يرى ترتليان أن نشوء الزندقة ترتبط بشكل مباشر باندلاع الاضطهاد. ويقول إن هذا دفع المؤمنين المرعوبين إلى البحث عن وسائل لاهوتية لتبرير جبنهم:

> هذا هو وقت الاضطهاد بالنسبة للمسيحيين. فعندما يضطرب الإيمان بشدة وتشتعل الكنيسة... عندها يثور الغنوصيون؛ ويتسلل الفالنتينيون؛ وعندها يتفجر كل معارضي الاستشهاد... لأنهم يعلمون أن العديد من المسيحيين بسطاء وعديمي الخبرة وضعفاء، و... يدركون أنهم لن يُصفِّقوا لهم أكثر مما يُصفِّق لهم عندما يفتح الخوف مداخل الروح، وخاصة عندما يُكلل الإرهاب إيمان الشهداء بإكليل." [59]

يرد ترتليان على ما يعتبره حججًا "زنذقية" ضد الاستشهاد:

> نحن الآن في خضم حرارة شديدة، هي بمثابة جحيم الاضطهاد... لقد جرّبت النار والسيف بعض المسيحيين، وجرّبت الوحوش آخرين؛ وهناك آخرون في السجن يتوقون إلى الاستشهاد الذي ذاقوه بالفعل، بعد أن تعرضوا للضرب بالهراوات والتعذيب..." نحن أنفسنا، بعد أن تم تحديدنا للمطاردة، أصبحنا مثل الأرانب التي تم تطويقها من مسافة بعيدة - والزنادقة يتصرفون كالمعتاد! [60]

ويوضح أن هذا الوضع ألهمه لمهاجمة أولئك "الذين يعارضون الاستشهاد، ويصورون الخلاص على أنه دمار"، والذين يعتبرون التشجيع على الاستشهاد أمراً أحمق وقاسياً، باعتبارهم زناذقة.

كان هيبوليتوس، المعلم اليوناني المتعلم في روما، قد شهد أيضًا رعب الاضطهاد في عهد الإمبراطور سيفيروس في العام
202. إن حماسة هيبوليتوس للاستشهاد، مثل حماسة ترتليان، كانت تتوافق مع كراهيته للزندقة. ويختتم كتابه "دحض كل البدع" مؤكدًا أن العقيدة الأرثوذكسية

فقط فيما يتعلق بتجسد المسيح وآلامه هي التي تمكن المؤمن من تحمل الاضطهاد:

> لو لم يكن من نفس طبيعتنا، لأمرنا عبثًا بتقليد المعلم... ولم يحتج على آلامه، بل أطاع حتى الموت... وفي كل هذه الأعمال قدم، كبكورة، إنسانيته، حتى لا تثبط عزيمتكم عندما تكونون في ضيق، بل تعترفون بأنكم مثل الفادي، وتنتظرون نيل ما منحه الآب للابن." [61]

في منتصف السبعينيات من عمره، حقق هيبوليتوس نفسه نداءه: تم اعتقاله بأمر من الإمبراطور ماكسيمين في عام 235 م، وتم ترحيله إلى سردينيا، حيث توفي.

ما هو النمط الذي نلاحظه إذن؟ إن معارضي الزندقة في القرن الثاني – إغناطيوس، بوليكاربوس، جاستن، إيرينيئوس، ترتليان، هيبوليتوس – متفقون بالإجماع على إعلان آلام المسيح وموته وعلى تأكيد الاستشهاد. كما أنهم جميعًا يتهمون الزنادقة بالتعليم الكاذب عن معاناة المسيح و"معارضة الاستشهاد". يقول إيرينيئوس:

> إن الكنيسة في كل مكان، بسبب المحبة التي تكنها لله، ترسل، على مر العصور، جمعًا غفيرًا من الشهداء إلى الآب؛ في حين أن جميع الآخرين ليس لديهم ما يشيرون إليه من هذا النوع فيما بينهم، بل ويؤكدون أن الشهادة *(martyrium)* ليست ضرورية على الإطلاق... باستثناء، ربما، واحد أو اثنين منهم... الذين تحملوا أحيانًا، مع شهدائنا، عار الاسم..." لأن الكنيسة وحدها تتحمل بنقاء عار أولئك الذين يعانون من الاضطهاد من أجل البر، ويتحملون كل أنواع العقوبات، ويُقتلون بسبب المحبة التي يحملونها نحو الله، واعترافهم بابنه. [62]

هنا ينكر إيرينيئوس على الغنوصيين الذين يموتون من أجل الإيمان حتى اسم الشهداء: في أفضل الأحوال هم مجرد "نوع من الحاشية" الممنوحة للشهداء الحقيقيين، الذين هم مسيحيون أرثوذكس.

على الرغم من أن إيرينيئوس قد بالغ بلا شك في ندرة الاستشهاد بين الزناذقة، إلا أن الاستشهاد كان نادرًا بين المسيحيين الغنوصيين. ولم يكن السبب هو الجبن فحسب، كما اتهم الأرثوذكس، بل كان السبب أيضًا هو اختلافات الرأي فيما بينهم. ما هي مواقف الغنوصيين تجاه الاستشهاد، وعلى أي أساس؟ وتشير الأدلة من نجع حمادي إلى أن آراءهم كانت متباينة بشكل مذهل. بعضهم أيد ذلك، والبعض الآخر رفضه من حيث المبدأ. وقد اتخذ أتباع فالانتينوس موقفًا وسيطًا بين هذين الطرفين. ولكن هناك أمر واحد واضح: في كل الأحوال فإن الموقف تجاه الاستشهاد يتوافق مع تفسير معاناة المسيح وموته.

أصرت بعض جماعات الغنوصيين، مثل الأرثوذكس، على أن المسيح عانى ومات حقًا. يزعم أن العديد من النصوص التي اكتشفت في نجع حمادي، بما في ذلك كتاب يعقوب السري، ورؤيا يعقوب الثانية، ورؤيا بطرس، كتبها تلاميذ معروفون بأنهم استشهدوا - يعقوب، شقيق يسوع، وبطرس. إن مؤلف كتاب يعقوب السري، والذي ربما كان مسيحياً عاش في القرن الثاني وكان قلقاً بشأن احتمال الاضطهاد، يضع نفسه في موقف يعقوب وبطرس. وبينما كانوا يتوقعون الخضوع للتعذيب والموت، يخبرهم أنهم تلقوا رؤية للرب القائم، الذي يفسر المحن التي يواجهونها من منظوره الخاص:

. . . "إذا كنت مضطهدًا من قبل الشيطان ومضطهدًا، وفعلت مشيئته (إرادة الآب)، فأنا (أقول) إنه سيحبك ويجعلك مساوٍ لي ..." ألا تعلم أنه لم يُساء إليك بعد ولا يُتهمك ظلماً، ولم يُحبس عليك في السجن، ويُدان ظلماً، ويُصلب (بدون) سبب، ويُدفن (بشكل مخزٍ)، كما فعلت أنا؟... الحق أقول لكم: لن يخلص أحد ما لم يؤمن بصليبي. ولكن الذين آمنوا بصليبي، لهم ملكوت الله. الحق أقول لكم، لا ينجو منكم أحد من الذين يخافون الموت، لأن ملكوت الموت من نصيب الذين يقتلون أنفسهم. [63]

لا يصر هذا المؤلف الغنوصي على أن المسيح عانى ومات حقًا فحسب، بل يشجع المؤمنين أيضًا على اختيار المعاناة والموت. مثل إغناطيوس، يعتقد هذا المعلم الغنوصي أن الإنسان يصبح متماهياً مع المسيح من خلال المعاناة: "اجعلوا أنفسكم مثل ابن الروح القدس! "[64]

إن نفس الاهتمام بالاضطهاد، والتشابه المماثل بين تجربة المؤمن وآلام المخلص، يهيمن على سفر الرؤيا الثاني ليعقوب. "المخلص الذي عاش (بدون) تجديف، مات بواسطة (التجديف)". [65] وعندما يموت يقول: "أنا أموت بالتأكيد، ولكنني سأوجد في الحياة". [66] تصل النهاية المروعة إلى ذروتها بمشهد التعذيب الوحشي الذي تعرض له يعقوب وموته رجما:

> ... فوجده الكهنة ... واقفا عند أعمدة الهيكل عند حجر الزاوية العظيم. فقرروا أن يلقوه من فوق، فألقوه أرضاً. و... أمسكوا به وضربوه وهم يجرونه على الأرض. فمدّوه ووضعوا حجراً على بطنه. فوضع الجميع أقدامهم عليه قائلين: "لقد أخطأت!" ثم أقاموه أيضا لأنه كان حيا وجعلوه يحفر حفرة. جعلوه يقف فيها. وبعد أن غطوه حتى بطنه، رجموه. [67]

وهو يموت رفع صلاة تهدف إلى تقوية المسيحيين الآخرين الذين يواجهون الاستشهاد. مثل يسوع، يعقوب "يموت لا محالة"، ولكن "سيوجد في الحياة".

ولكن بينما أكد بعض الغنوصيين حقيقة آلام المسيح وأعربوا عن حماسهم للاستشهاد، أنكر آخرون هذه الحقيقة وهاجموا هذا الحماس. تُصرّح شهادة الحق بأن المتحمسين للاستشهاد لا يعرفون "من هو المسيح":

> "الجهلاء - الذين يعتقدون في قلوبهم أنهم إذا اعترفوا "نحن مسيحيون" بالكلام فقط (ولكن) ليس بالقوة، بينما يسلمون أنفسهم للجهل، للموت البشري، لا يعرفون إلى أين يذهبون، ولا من هو المسيح، معتقدين أنهم سيحيون، بينما هم (حقا) في

> خطأ ـ أسرعوا نحو الإمارات والسلطات. فيقعون في براثنهم بسبب الجهل الذي فيهم. [68]

يسخر المؤلف من الرأي السائد بأن الاستشهاد يضمن الخلاص: لو كان الأمر بهذه البساطة، كما يقول، لاعترف الجميع بالمسيح ونالوا الخلاص! إن الذين يعيشون تحت هذه الأوهام

> هم شهداء (فارغون)، لأنهم لا يشهدون إلا لأنفسهم... عندما يكتملون بموت (الاستشهاد)، هذا ما يفكرون فيه: "إذا سلمنا أنفسنا للموت من أجل المسمى، فسوف نخلص". هذه الأمور لا تُحَلّ بهذه الطريقة... ليس لديهم الكلمة التي تعطي (الحياة). [69]

يهاجم هذا المؤلف الغنوصي وجهات نظر محددة حول استشهاد مألوف في المصادر الأرثوذكسية. أولاً، يهاجم الاعتقاد بأن موت الشهيد يمنح غفران الخطايا، وهي وجهة نظر تم التعبير عنها، على سبيل المثال، في الرواية الأرثوذكسية لاستشهاد بوليكاربوس: "من خلال معاناة ساعة واحدة يشترون لأنفسهم الحياة الأبدية". [70] ويعلن ترتليان أيضًا أنه يرغب في المعاناة "حتى يتمكن من الحصول على المغفرة الكاملة من الله، وذلك من خلال التبرع بدمه في المقابل". [71] ثانياً، يسخر هذا المؤلف من المعلمين الأرثوذكس الذين، مثل إغناطيوس وترتليان، ينظرون إلى الاستشهاد باعتباره قرباناً لله والذين لديهم فكرة أن الله يرغب في "التضحية البشرية": مثل هذا الاعتقاد يجعل الله آكل لحوم البشر. ثالثًا، يهاجم أولئك الذين يعتقدون أن الاستشهاد يضمن قيامتهم. سأل القاضي الروماني روستيكوس جاستن، قبل لحظات من إصدار أمر إعدامه، "اسمع، أنت الذي تعتبر متعلمًا... هل تظن أنك ستصعد إلى السماء؟" أجاب جاستن: "لا أظن ذلك، ولكنني أعلم ذلك يقينًا وأنا على يقين تام منه". [72] لكن شهادة الحق تعلن أن هؤلاء المسيحيين "يدمرون أنفسهم" فقط ـ لقد خُدعوا في الاعتقاد بأن المسيح شاركهم في فناءهم، بينما في الواقع، كان المسيح، الممتلئ بالقوة الإلهية، غريبًا عن المعاناة والموت:

> ابن الإنسان خرج من عدم الفساد، غريبًا عن النجاسة. نزل إلى الجحيم

وأجرى أعمالاً عظيمة. "فأقام الموتى فيها... وهدم أعمالهم من بين الناس، حتى أن الأعرج والأعمى والمشلول والبكم والممسوسين نالوا الشفاء..." ولهذا السبب (دمر) جسده من (الصليب) الذي (حمله). [73]

يكشف سفر رؤيا بطرس كيف أن بطرس، المعروف بسوء فهمه، أصبح مستنيرًا واكتشف السر الحقيقي لآلام يسوع. يبدو أن مؤلف هذا الكتاب، مثل مؤلف كتاب يعقوب السري، كان مسيحيًا غنوصيًا قلقًا بشأن خطر الاضطهاد. مع بداية سفر الرؤيا، يخشى "بطرس" أن يواجه هو وربه نفس الخطر: "... "رأيت الكهنة والشعب يركضون نحونا بالحجارة كأنهم سيقتلوننا، فخشيت أن نموت." [74] ولكن بطرس يقع في غيبوبة غامرة ويتلقى رؤية الرب، الذي يحذره من أن كثيرين ممن "يقبلون تعليمنا في البداية"[75] سوف يقعون في الخطأ. يمثل هؤلاء "المؤمنون الزائفون" (الذين تم وصفهم، بطبيعة الحال، من وجهة نظر غنوصية) المسيحيين الأرثوذكس. كل من يقع تحت تأثيرهم "سيصبح سجينا لهم، لأنهم بلا إدراك". [76]

إن ما يكرهه المؤلف الغنوصي أكثر من أي شيء آخر في هؤلاء المسيحيين هو أنهم يجبرون المؤمنين الأبرياء على "الذهاب إلى الجلاد" - على ما يبدو قوات الدولة الرومانية - تحت الوهم بأنهم إذا "تمسكوا باسم رجل ميت"، واعترفوا بالمسيح المصلوب، "سوف يصبحون طاهرين". [77] يقول المؤلف،

". . . هؤلاء هم الذين يظلمون إخوتهم قائلين لهم: بهذا (الاستشهاد) يرحمنا إلهنا، لأن الخلاص يأتي إلينا من هذا. "ولا يعرفون جزاء من فرح بمن فعل هذا الفعل بالصغار الذين تم البحث عنهم وسجنهم." [78]

يرفض المؤلف الدعاية الأرثوذكسية للاستشهاد - الذي يزعم أنه يجلب الخلاص - ويعرب عن الرعب من تعبيراتهم عن الفرح بسبب أعمال العنف التي ارتكبت في حق "الصغار". وبهذه الطريقة

فإن الجماعة الكاثوليكية سوف "تضع مصيرًا قاسيًا"[79]وسوف "يُسحق العديد من المؤمنين بينهم". [80]

ومع ذلك، في حين أن سفر رؤيا بطرس يرفض النظرة الأرثوذكسية للاستشهاد، فإنه لا يرفض الاستشهاد تمامًا: "الآخرون من أولئك الذين يعانون" (أي أولئك الذين بلغوا الغنوص) يكتسبون فهمًا جديدًا لمعنى معاناتهم الخاصة؛ إنهم يدركون أن ذلك "سيُكمل حكمة الأخوة الموجودة حقًا". [81]وبدلاً من التعليم الذي يستعبد المؤمنين - التعليم الأرثوذكسي عن المسيح المصلوب - يقدم المخلص لبطرس الرؤية الجديدة لآلامه التي ذكرناها من قبل:

> . . . والذي رأيته فرحًا وضاحكًا فوق الصليب، هو يسوع الحي. وأما الذي تُدق المسامير في يديه وقدميه فهو عضوه الجسدي، الذي هو البديل. فأخزوا ما بقي على صورته. "وانظر إليه، وانظر إليّ!" [82]

ومن خلال هذه الرؤية، يتعلم بطرس كيفية مواجهة المعاناة. في البداية، كان يخشى أن "يموت" هو والرب؛ أما الآن فهو يفهم أن الجسد فقط، "النظير الجسدي"، "البديل"، يمكن أن يموت. يشرح الرب أن "الجزء الأولي"، الروح الذكية، يتم إطلاقه للانضمام إلى "النور الكامل مع روحي القدس". [83] إن المصادر الغنوصية التي كتبها فالانتينوس وأتباعه أكثر تعقيدًا من تلك التي تؤكد ببساطة آلام المسيح أو تلك التي تدعي أنه بعيدًا عن جسده الفاني، ظل المسيح محصنًا تمامًا ضد المعاناة. إن العديد من النصوص الرئيسية الفالنتينية والتي تم اكتشافها في نجع حمادي تعترف بوضوح بآلام المسيح وموته. إنجيل الحقيقة، الذي ينسبه كويسبيل إلى فالانتينوس أو أحد أتباعه، يروي كيف قُتل يسوع "مصلوبًا على شجرة". [84] وبتوسيع الاستعارة المسيحية الشائعة، يتصور المؤلف يسوع على الصليب كثمرة على شجرة، "ثمرة جديدة من شجرة المعرفة" التي تعطي الحياة، وليس الموت:

> ... مسمرًا على شجرة؛ أصبح ثمرة معرفة (غنوص) الآب، التي لم تصبح مدمرة لأنها (أُكلت)، بل أعطت أولئك الذين

أكلوها سببًا للفرح باكتشافها. لأنه اكتشفهم في نفسه، واكتشفوه في أنفسهم... [85]

وعلى النقيض من المصادر الأرثوذكسية، التي تفسر موت المسيح باعتباره ذبيحة لخلاص البشرية من الذنب والخطيئة، فإن هذا الإنجيل الغنوصي يرى الصلب باعتباره فرصة لاكتشاف الذات الإلهية في الداخل. ومع هذا التفسير المختلف، يقدم إنجيل الحقيقة رواية مؤثرة عن موت يسوع:

> ... كان يسوع الرحيم الأمين صبورًا في تقبُّل الآلام... إذ يعلم أن موته حياةٌ لكثيرين. فقد
> سمر على شجرة، يجر نفسه إلى الموت رغم أن الحياة الأبدية
> تلبسه. بعد أن خلع ثيابه البالية، ارتدى ثوب الخلود. [86]

هناك نص آخر رائع للفالنتينية، وهو الرسالة الثلاثية، يقدم المخلص باعتباره "الذي سيولد والذي سيتألم". [87] من منطلق الشفقة على البشرية، أصبح طوعاً

> ما كانوا عليه. فمن أجلهم، ظهر في معاناة لا إرادية. لم يتحمل على نفسه موت
> أولئك الذين كان ينوي إنقاذهم فحسب، بل تقبل أيضًا صغر حجمهم.
> . . . لقد سمح لنفسه أن يُحمل ويولد كطفل في الجسد والروح.[88]

ومع ذلك فإن طبيعة المخلص هي متناقضة. توضح "الرسالة الثلاثية" أن الذي يولد ويتألم هو المخلص الذي تنبأ عنه أنبياء العبرانيين؛ ما لم يتصوروه هو "ما كان عليه من قبل، وما هو عليه إلى الأبد، كلمة غير مولود، غير قابل للتأثر، جاء إلى الوجود في الجسد". [89] وعلى نحو مماثل، فإن إنجيل الحقيقة، بعد أن وصف موت يسوع البشري، يواصل القول بأن

> كلمة الآب تخرج إلى الكل، فتطهره، وتجلبها إلى
> إلى الآب، إلى الأم، يسوع اللطف اللانهائي. [90]

ويوضح نص ثالث من كتب الفالنتينية، وهو "تفسير الغنوص"، نفس المفارقة. من ناحية أخرى، يصبح المخلص

عرضة للمعاناة والموت؛ ومن ناحية أخرى، هو الكلمة، الممتلئ بالقوة الإلهية. يقول المخلص: "لقد أصبحت صغيرًا جدًا، حتى أتمكن من خلال تواضعي من رفعكم إلى الارتفاع العظيم الذي سقطتم منه". [91]

ينكر معظم هذه المصادر أن يسوع قد عانى ومات بالفعل؛ وكلها تفترض ذلك. ومع ذلك، فإن الجميع مهتمون بإظهار كيف تجاوز المسيح الطبيعة البشرية في تجسده حتى يتمكن من التغلب على الموت بالقوة الإلهية.[92] وبذلك بدأ الفالنتينيون مناقشة المشكلة التي أصبحت مركزية في اللاهوت المسيحي بعد حوالي مائتي عام - مسألة كيف يمكن للمسيح أن يكون إنسانًا وإلهًا في نفس الوقت. ولهذا السبب، أطلق عليهم أدولف فون هارناك، مؤرخ المسيحية، لقب "أول علماء اللاهوت المسيحيين".

ماذا يعني هذا بالنسبة لمسألة الاستشهاد؟ يتهم إيرينيئوس الفالنتينيين بـ "احتقار" الشهداء و"التشهير باستشهادهم". ما هو موقفهم؟ هرقليون، المعلم الغنوصي المتميز، وهو نفسه تلميذ فالانتينوس، يناقش الاستشهاد بشكل مباشر عندما يعلق على قول يسوع:

> "... كل من يعترف بي أمام الناس يعترف به ابن الإنسان أمام ملائكة الله. ولكن من ينكرني أمام الناس ينكر أمام ملائكة الله.... "وعندما يقدمونكم أمام الحكام والسلطات، فلا تهتموا كيف أو بما يجب أن تجيبوا..." [93]

يفكر هرقليون في السؤال التالي: ماذا يعني "الاعتراف بالمسيح"؟ ويوضح أن الناس يعترفون بالمسيح بطرق مختلفة. ويعترف بعض الناس بالمسيح في إيمانهم وفي سلوكهم اليومي. ومع ذلك، فإن معظم الناس لا يفكرون إلا في النوع الثاني من الاعتراف - وهو الاعتراف الشفهي ("أنا مسيحي") أمام القاضي. ويقول إن هذا الأخير هو ما يعتبره "الكثيرون" (المسيحيون الأرثوذكس) الاعتراف الوحيد. ولكن هرقليون يشير إلى أن "حتى المنافقين يستطيعون الإدلاء بهذا الاعتراف". ويقول إن ما هو مطلوب عالميًا من جميع المسيحيين هو النوع الأول من الاعتراف؛ أما النوع الثاني فهو مطلوب من

بعضهم، ولكن ليس من الكل. إن التلاميذ مثل متى وفيليب وتوما لم يعترفوا قط أمام القضاة؛ ومع ذلك، فإنه يعلن أنهم اعترفوا بالمسيح بالطريقة السامية، "بالإيمان والسلوك طوال حياتهم". [94]

في تسمية هؤلاء التلاميذ المحددين، الذين غالبًا ما يرمزون إلى المبتدئين الغنوصيين (كما في إنجيل فيليب وإنجيل توما)، يشير هرقليون إلى أنهم متفوقون على الرسل الشهداء مثل بطرس، الذي يعتبره الفالنتينيون نموذجًا لـ "العديد" - أي للمسيحيين الأرثوذكس فقط. هل يقول أن الاستشهاد مقبول بالنسبة للمسيحيين العاديين، لكنه ليس ضروريا بالنسبة للغنوصيين؟ هل يقدم مبررًا للغنوصيين لتجنب الاستشهاد؟

إذا كان هذا ما يعنيه، فإنه يتجنب التصريح به بشكل مباشر: تظل تعليقاته غامضة. فإنه يواصل القول أنه على الرغم من أن الاعتراف بالمسيح "بالإيمان والسلوك" هو أكثر عمومية، إلا أن هذا يؤدي بطبيعة الحال إلى الاعتراف العلني في المحاكمة، "إذا كانت الضرورة والعقل تمليان ذلك". ما الذي يجعل مثل هذا الاعتراف "ضروريًا" و"عقلانيًا"؟ ببساطة، لا يستطيع المسيحي المتهم أمام القاضي أن ينكر المسيح: في هذه الحالة، يعترف هرقليون، أن الاعتراف الشفهي هو البديل الضروري والعقلاني للإنكار.

ومع ذلك، فإن هرقليون يعبر عن موقف مختلف تمامًا تجاه الاستشهاد عن موقف معاصريه الأرثوذكس. إنه لا يعبر عن أي من حماسهم للاستشهاد، ولا عن مدحهم لـ "النصر المجيد" الذي حصلوا عليه من خلال الموت. وفوق كل ذلك، لا يُشير قط إلى أن معاناة المؤمنين تُحاكي معاناة المسيح. فإذا كان العنصر البشري في المسيح وحده هو من اختبر الألم، فهذا يُشير إلى أن المؤمن أيضًا يعاني على المستوى البشري فقط، بينما الروح الإلهية في داخله تتجاوز المعاناة والموت. يبدو أن الفالنتينيين اعتبروا "شهادة دم" الشهيد في المرتبة الثانية من حيث الأفضلية مقارنة بالشهادة الغنوصية للمسيح - وهي وجهة نظر كان من الممكن أن تثير غضب إيرينيئوس لأن هؤلاء الغنوصيين "يظهرون ازدراءً" للشهداء ويقللون من قيمة ما يعتبره "التضحية النهائية".

على الرغم من أن إيرينيئوس يعترف بأن الغنوصيين يحاولون رفع مستوى الفهم اللاهوتي، إلا أنه

يصرح بأنهم "غير قادرين على إنجاز إصلاح فعال بما يكفي للتعويض عن الضرر الذي يسببونه". [95] ومن وجهة نظره، فإن أي حجة يمكن للمسيحيين استخدامها لتجنب الاستشهاد تقوض تضامن المجتمع المسيحي بأكمله. بدلاً من التعاطف مع المعتقلين في السجون، الذين يواجهون التعذيب أو الإعدام، قد يسحب المسيحيون الغنوصيون دعمهم لأولئك الذين يعتبرونهم متعصبين و غيورين وغير مستنيرين. يقول إيرينيئوس إن مثل هذه الأفعال تهدف إلى "تقطيع جسد المسيح العظيم والمجيد (الكنيسة) و... تدميره". [96] إن الحفاظ على الوحدة يتطلب من جميع المسيحيين الاعتراف بالمسيح "الذي اضطهد في عهد بيلاطس البنطي، وصلبه وموته ودفنه"، مما يؤكد ضمناً ضرورة "شاهد الدم" الذي يحاكي آلامه.

لماذا سادت النظرة الأرثوذكسية للاستشهاد - وموت المسيح كنموذج له؟ أقترح أن الاضطهاد أعطى الزخم لتشكيل هيكل الكنيسة المنظمة التي تطورت بحلول نهاية القرن الثاني. ولوضع هذا السؤال في سياق معاصر، دعونا نفكر في الوسائل المتاحة للمعارضين الذين يواجهون نظاماً سياسياً ضخماً وقوياً: إنهم يحاولون نشر حالات العنف والظلم لإثارة الدعم الشعبي في جميع أنحاء العالم. إن تعذيب وإعدام مجموعة صغيرة من الأشخاص الذين لا يعرفهم إلا أقاربهم وأصدقائهم سرعان ما يطويهم النسيان، ولكن حالات المعارضين من العلماء أو الكتاب أو اليهود أو المبشرين المسيحيين قد تثير قلق المجتمع الدولي من أولئك الذين يتماهون مع الضحايا من خلال الانتماء المهني أو الديني.

هناك، بطبيعة الحال، فرق كبير بين التكتيكات القديمة والحديثة. واليوم أصبح الهدف من هذه الدعاية هو خلق الضغط وإطلاق سراح أولئك الذين تعرضوا للتعذيب أو السجن. وقد خاطب المدافعون، مثل جاستن، السلطات الرومانية، احتجاجًا على المعاملة غير العادلة للمسيحيين ودعوا السلطات إلى إنهائها. لكن المسيحيين كتبوا قصص الشهداء لغرض مختلف، ولجمهور مختلف. وكتبوا حصريًا إلى الكنائس المسيحية الأخرى، ليس على أمل إنهاء الاضطهاد، بل لتحذيرهم من الخطر المشترك، وتشجيعهم على محاكاة "النصر المجيد" الذي حققه الشهداء،

وتعزيز المجتمعات داخليًا وفي علاقتها ببعضها البعض. وهكذا، في القرنين الثاني والثالث، عندما هدد العنف الروماني الجماعات المسيحية في المقاطعات النائية من الإمبراطورية، تم نقل هذه الأحداث إلى المسيحيين في جميع أنحاء العالم المعروف. كان إغناطيوس، الذي حُكم عليه بالإعدام في الساحة الرومانية، مشغولاً في رحلته الأخيرة بكتابة رسائل إلى العديد من الكنائس الإقليمية، يخبرهم بوضعه الخاص ويحثهم على دعم الكنيسة الكاثوليكية ("العالمية") المنظمة حول الأساقفة. وحذرهم قبل كل شيء من تجنب الزنادقة الذين ينحرفون عن سلطة الأساقفة وعن العقائد الأرثوذكسية حول آلام المسيح وموته وقيامته. وتشهد رسائله إلى المسيحيين في روما، الذين لم يقابلهم قط، على فعالية مثل هذا التواصل: كان إغناطيوس واثقًا من أنهم سيتدخلون لمنع إعدامه إذا سمح لهم بذلك. وفي وقت لاحق، عندما تم القبض على حوالي خمسين مسيحيًا في ليون وفيينا في يونيو 177، كتبوا على الفور إلى "إخواننا في آسيا وفيرجيا الذين لديهم نفس الإيمان"، واصفين معاناتهم، وأرسلوا إيرينيئوس لإبلاغ الكنيسة العريقة في روما. وبسبب الخطر المشترك الذي واجهوه، بدأ أعضاء الجماعات المسيحية المتفرقة في مختلف أنحاء العالم يتبادلون الرسائل بشكل متزايد ويسافرون من كنيسة إلى أخرى. وقد انتشرت روايات الشهداء، والتي كانت في كثير من الأحيان مأخوذة من سجلات محاكماتهم ومن شهود العيان، بين الكنائس في آسيا، وأفريقيا، وروما، واليونان، وبلاد الغال، ومصر. ومن خلال هذا التواصل، أصبح أعضاء الكنائس السابقة المتنوعة على دراية بالاختلافات الإقليمية باعتبارها عقبات أمام مطالبتهم بالمشاركة في كنيسة كاثوليكية واحدة. وكما ذكرنا سابقًا، أصر إيرينيئوس على أن جميع الكنائس في جميع أنحاء العالم يجب أن تتفق على جميع النقاط الحيوية للعقيدة، ولكن حتى هو صُدم عندما حاول فيكتور، أسقف روما، تحريك الكنائس الإقليمية نحو مزيد من التوحيد. في عام 130، طالب فيكتور المسيحيين في آسيا الصغرى بالتخلي عن ممارستهم التقليدية للاحتفال بعيد الفصح في عيد الفصح اليهودي، والامتثال بدلاً من ذلك للعادات الرومانية - أو التخلي عن ادعائهم بأنهم "مسيحيون كاثوليك". وفي الوقت نفسه، كانت الكنيسة الرومانية تقوم بتجميع القائمة النهائية للكتب

التي سيتم قبولها في نهاية المطاف من قبل جميع الكنائس المسيحية. وقد أدت الترتيبات الطبقية المتزايدة للتسلسل الهرمي المؤسسي إلى تعزيز المجتمعات داخليًا وتنظيم التواصل مع ما أسماه إيرينيئوس "الكنيسة الكاثوليكية المنتشرة في جميع أنحاء العالم، حتى إلى أقاصي الأرض" - وهي شبكة من المجموعات أصبحت موحدة بشكل متزايد في العقيدة والطقوس والشريعة والبنية السياسية.

وقد أثارت التقارير عن الوحشية تجاه المسيحيين مشاعر متباينة بين الغرباء. حتى تاسيتس المتغطرس، عندما وصف كيف سخر نيرون من المسيحيين وعذبهم حتى الموت، أضاف:

> حتى بالنسبة للمجرمين الذين يستحقون عقوبة قاسية ومثالية، نشأ شعور بالشفقة؛ لأنه لم يكن، كما بدا، من أجل الصالح العام، بل لإشباع قسوة رجل واحد، كان يتم تدميرهم. [97]

ومن بين سكان مدينة ليون، بعد المذبحة التي وقعت في الساحة، أراد البعض تشويه الجثث؛ وسخر آخرون من الشهداء باعتبارهم حمقى، بينما تساءل آخرون، "بدافع الشفقة"، عما ألهم شجاعتهم: "ما هي الفائدة التي جلبتها لهم دينهم، والتي فضلوها على حياتهم؟" [98] لا شك أن الاضطهادات أرعبت كثيرين ودفعتهم إلى تجنب الاتصال بالمسيحيين، لكن جاستن وترتليان يقولان إن رؤية الشهداء أثارت الدهشة والإعجاب مما دفعهم إلى التحقيق في الحركة، ثم الانضمام إليها. وكلاهما يشهدان بأن هذا حدث لكثيرين غيرهم. (كما قال جاستن: "كلما حدثت مثل هذه الأمور أكثر، كلما أصبح الآخرون، بأعداد أكبر، مؤمنين.") [99] يكتب ترتليان متحديًا سكابولا، حاكم قرطاج:

> قسوتك هي مجدنا... كل من يشهد صبر الشهداء النبيل، يصاب بالشكوك، ويشتعل بالرغبة في فحص الوضع ... وبمجرد أن يعرفوا الحقيقة، يسجلون أنفسهم على الفور كتلاميذ لها. [100]

ويتفاخر أمام المدعي العام الروماني قائلاً: "كلما حصدتمونا أكثر، زاد عددنا: إن دم المسيحيين هو بذرة!" [101] إن الذين اتبعوا الإجماع الأرثوذكسي في العقيدة وسياسات الكنيسة كانوا ينتمون أيضًا إلى الكنيسة التي أصبحت مشهورة بشهدائها - باعترافها بالمسيح المصلوب. ومن ناحية أخرى، تشتتت مجموعات المسيحيين الغنوصيين وضاعت - أولئك الذين قاوموا التوافق العقائدي، وتساءلوا عن قيمة "شهادة الدم"، وغالبًا ما عارضوا الخضوع للسلطة الأسقفية.

وأخيرًا، في تصويرها لحياة المسيح وآلامه، قدمت التعاليم الأرثوذكسية وسيلة لتفسير العناصر الأساسية للتجربة الإنسانية. رفض الأرثوذكس النظرة الغنوصية التي تقول إن يسوع كان كائناً روحياً، وأصروا على أنه، مثل بقية البشرية، ولد، وعاش في عائلة، وجاع وتعب، وأكل وشرب الخمر، وعانى ومات. حتى أنهم ذهبوا إلى حد الإصرار على أنه قام جسديًا من بين الأموات. وهنا مرة أخرى، وكما رأينا، فإن التقليد الأرثوذكسي يؤكد ضمناً على التجربة الجسدية باعتبارها الحقيقة المركزية في الحياة البشرية. إن ما يفعله الإنسان جسديًا - يأكل ويشرب، يمارس الحياة الجنسية أو يتجنبها، ينقذ حياته أو يتخلى عنها - كلها عناصر حيوية في تطوره الديني. لكن أولئك الغنوصيين الذين اعتبروا الجزء الأساسي من كل شخص باعتباره "الروح الداخلية" رفضوا مثل هذه التجارب الجسدية، الممتعة أو المؤلمة، باعتبارها تشتيتًا عن الواقع الروحي - بل باعتبارها وهمًا. فلا عجب إذن أن يكون عدد الأشخاص الذين تماهوا مع الصورة الأرثوذكسية أكبر بكثير من عدد الأشخاص الذين تماهوا مع "الروح غير الجسدية" في التقاليد الغنوصية. ليس الشهداء فقط، بل كل المسيحيين الذين عانوا لمدة 2000 عام، والذين خافوا الموت وواجهوه، وجدوا تجربتهم مؤكدة في قصة يسوع الإنسان.

V

من هي الكنيسة الحقيقية؟

على مدى ما يقرب من 2000 عام، حافظ التقليد المسيحي على الكتابات الأرثوذكسية التي تندد بالغنوصيين، وكرمها، بينما قمعت الكتابات الغنوصية نفسها ودمرتها تقريبًا. والآن، ولأول مرة، تكشف بعض النصوص التي اكتشفت في نجع حمادي عن الجانب الآخر من العملة: كيف أدان الغنوصيون الأرثوذكس.[1] تجادل الرسالة الثانية لسيث الكبير ضد المسيحية الأرثوذكسية، وتقارنها بـ "الكنيسة الحقيقية" للغنوصيين. ويتحدث المؤلف عن أولئك الذين يسميهم أبناء النور، فيقول:

> ... لقد كنا مكروهين ومضطهدين، ليس فقط من قبل الجهلاء (الوثنيين)، بل أيضًا من قبل أولئك الذين يظنون أنهم يروجون لاسم المسيح، لأنهم كانوا فارغين دون علم، لا يعرفون من هم، مثل الحيوانات البكم. [2]

يوضح المخلص أن هؤلاء الأشخاص قاموا بتقليد الكنيسة الحقيقية، "بعد أن أعلنوا عقيدة الرجل الميت والأكاذيب، حتى يشبهوا حرية ونقاء الكنيسة الكاملة (إكليسيا)."[3] إن مثل هذا التعليم، كما يزعم، يوفق بين الخوف والعبودية، ويشجعهم على إخضاع أنفسهم

للممثلين الأرضيين لخالق العالم، الذي يعلن في "مجده الفارغ": "أنا الله، وليس هناك آخر غيري". [4] هؤلاء الأشخاص يضطهدون أولئك الذين حققوا التحرر من خلال الغنوص، ويحاولون تضليلهم عن "حقيقة حريتهم". [5]

يصف سفر رؤيا بطرس، كما ذكرنا سابقًا، المسيحيين الكاثوليك باعتبارهم أولئك الذين سقطوا "في اسم خاطئ وفي يد رجل شرير ماكر، بتعليم بأشكال متعددة" [6]، مما يسمح لأنفسهم بأن يحكموا بطريقة هرطوقية. ويضيف المؤلف أنهم

> يجدفون على الحقيقة وينشرون تعاليم شريرة. وسيقولون أشياء شريرة ضد بعضهم البعض... كثيرون غيرهم... ممن يعارضون الحقيقة وهم رسل الضلال... يقيمون ضلالهم... ضد هذه الأفكار النقية الخاصة بي... [7]

يأخذ المؤلف كل سمة من سمات الكنيسة الكاثوليكية كدليل على أن هذه ليست سوى كنيسة مقلدة، مزيفة، "أخوة" تحاكي الأخوة المسيحية الحقيقية. إن هؤلاء المسيحيين، في غطرستهم العمياء، يدّعون الشرعية الحصرية: "بعض الذين لا يفهمون الغموض يتحدثون عن أشياء لا يفهمونها، ولكنهم سيفتخرون بأن سر الحقيقة ينتمي إليهم وحدهم". [8] إن طاعتهم للأساقفة والشمامسة تشير إلى أنهم "يخضعون لحكم الزعماء". [9] فيظلمون إخوتهم، ويشتمون الذين يدركون الغنوص.

تهاجم شهادة الحقيقة المسيحيين الكنسيين باعتبارهم أولئك الذين يقولون "نحن مسيحيون"، ولكن "من (لا يعرفون من) هو المسيح". [10] لكن هذا المؤلف نفسه يواصل مهاجمة الغنوصيين الآخرين أيضًا، بما في ذلك أتباع فالانتينوس، وبازيليد، وسمعان، باعتبارهم إخوة ما زالوا غير ناضجين. ومن نصوص نجع حمادي الأخرى، "التعليم الموثوق"، الذي يهدف إلى هدم كل تعليم، وخاصة التعليم الأرثوذكسي، الذي يعتبره المؤلف غير موثوق. مثل إيرينيئوس - ولكن على النقيض تمامًا - يقول عن "أولئك الذين يخاصموننا، باعتبارهم أعداء"، [11] أنهم "تجار أجساد"، [12] بلا عقل، وجهلة، أسوأ من الوثنيين، لأنهم لا يملكون عذرًا لخطئهم.

ولعل مرارة هذه الهجمات على "الكنيسة المقلدة" تشير إلى مرحلة متأخرة من الجدل. بحلول عام 200، كانت خطوط المعركة قد رسمت: ادعى المسيحيون الأرثوذكس والغنوصيون على حد سواء أنهم يمثلون الكنيسة الحقيقية واتهموا بعضهم البعض بأنهم غرباء، وإخوة كاذبون، ومنافقون.

كيف يستطيع المؤمن أن يميز المسيحيين الحقيقيين من المسيحيين الكاذبين؟ وقد قدم المسيحيون الأرثوذكس والغنوصيون إجابات مختلفة، حيث حاولت كل مجموعة تعريف الكنيسة بطرق تستبعد الأخرى. المسيحيون الغنوصيون، الذين يزعمون أنهم يمثلون "القلة" فقط، أشاروا إلى معايير نوعية. واحتجاجًا على الأغلبية، أصرّوا على أن المعمودية لا تجعل الإنسان مسيحيًا: فبحسب إنجيل فيليب، فإن كثيرين "ينزلون إلى الماء ويصعدون دون أن يكونوا قد نالوا شيئًا"،[13] ومع ذلك زعموا أنهم مسيحيون. ولم يكن إعلان العقيدة، أو حتى الاستشهاد، بمثابة دليل: "يمكن لأي شخص أن يفعل هذه الأشياء". وفوق كل ذلك، رفضوا تعريف الكنيسة بالمجتمع الفعلي المرئي، الذي حذروا من أنه في كثير من الأحيان لا يفعل سوى تقليدها. وبدلاً من ذلك، استشهدوا بقول يسوع ("من ثمارهم تعرفونهم")، وطالبوا بدليل على النضج الروحي لإثبات أن الشخص ينتمي إلى الكنيسة الحقيقية.

لكن المسيحيين الأرثوذكس، بحلول أواخر القرن الثاني، بدأوا في وضع معايير موضوعية لعضوية الكنيسة. من اعترف بالعقيدة، وقبل طقوس المعمودية، وشارك في العبادة، وأطاع رجال الدين تم قبوله كمسيحي مثله. وفي مسعى إلى توحيد الكنائس المتنوعة المنتشرة في جميع أنحاء العالم في شبكة واحدة، قام الأساقفة بإلغاء المعايير النوعية لعضوية الكنيسة. إن تقييم كل مرشح على أساس النضج الروحي، أو البصيرة، أو القداسة الشخصية، كما فعل الغنوصيون، يتطلب إدارة أكثر تعقيدًا بكثير. علاوة على ذلك، فإن هذا من شأنه أن يؤدي إلى استبعاد العديد من الأشخاص الذين هم في أمس الحاجة إلى ما يمكن أن تقدمه الكنيسة. ولكي تصبح الكنيسة كاثوليكية حقيقية وعالمية، رفضت جميع أشكال النخبوية، وحاولت أن تضم أكبر عدد ممكن من الناس إلى صفوفها. وفي هذه العملية، أنشأ قادتها إطارًا واضحًا وبسيطًا،

يتألف من العقيدة والطقوس والبنية السياسية، وقد أثبت أنه نظام تنظيمي فعال بشكل مذهل.

وهكذا فإن القديس إغناطيوس الأرثوذكسي، أسقف أنطاكية، يُعرّف الكنيسة من حيث الأسقف الذي يمثل ذلك النظام:

> لا يجوز لأحد أن يفعل أي شيء يتعلق بالكنيسة بدون الأسقف. فليكن ذلك قربانا مقدسا صحيحا ما يحتفل به الأسقف أو من يعينه... حيثما يقدم الأسقف (القربان المقدس)، يجب أن تكون الجماعة حاضرة، كما أنه حيثما يكون يسوع المسيح، تكون هناك الكنيسة الكاثوليكية. [14]

لكي لا يظن أي "زنديق" أن المسيح قد يكون حاضرًا حتى في غياب الأسقف، فإن إغناطيوس يصححه:

> "لا يجوز التعميد أو إقامة وليمة محبة بدون الأسقف..." إن الانضمام إلى الأسقف هو الانضمام إلى الكنيسة؛ والانفصال عن الأسقف هو الانفصال ليس فقط عن الكنيسة، بل عن الله نفسه. [15]

وباستثناء التسلسل الهرمي للكنيسة، يصر على أنه "لا يوجد شيء يمكن أن يسمى كنيسة". [16]

يتفق إيرينيئوس، أسقف ليون، مع إغناطيوس على أن الكنيسة الحقيقية الوحيدة هي تلك التي "تحافظ على نفس شكل الدستور الكنسي":

> إن الغنوص الحقيقي هو ذلك الذي يتكون من عقيدة الرسل، والنظام القديم للكنيسة في جميع أنحاء العالم، وطبيعة جسد المسيح وفقًا لخلافة الأساقفة، التي نقلوا من خلالها ما هو موجود في كل مكان.[17]

ويقول إيرينيئوس إن هذا النظام وحده هو الذي يقف على "العمود والأساس" لتلك الكتابات الرسولية التي ينسب إليها السلطة المطلقة ـ وفوق كل شيء، أناجيل العهد الجديد. كل ما تبقى كاذب وغير موثوق به وغير رسولي، وربما من تأليف الزنادقة. إن الكنيسة الكاثوليكية وحدها تقدم

"نظامًا عقائديًا كاملاً للغاية"،[18] يعلن، كما رأينا، إلهًا واحدًا، خالقًا وأبًا للمسيح، الذي تجسد، وتألم، ومات، وقام جسديًا من بين الأموات. خارج هذه الكنيسة لا يوجد خلاص: "إنها مدخل الحياة، وكل من سواها هم لصوص وقطاع طرق". [19] وباعتباره المتحدث باسم كنيسة الله، يصر إيرينيئوس على أن أولئك الذين يسميهم زنادقة يقفون خارج الكنيسة. كل من يرفض نسخته من الحقيقة المسيحية هم "أشخاص كاذبون، ومغوون أشرار، ومنافقون" الذين "يتحدثون إلى الجمهور عن أولئك في الكنيسة، الذين يسمونهم كاثوليكيين، أو كنسيين". [20] يقول إيرينيئوس إنه يتوق إلى "تحويلهم إلى كنيسة الله"[21] - لأنه يعتبرهم مرتدين، أسوأ من الوثنيين.

على العكس من ذلك، يؤكد المسيحيون الغنوصيون أن ما يميز الكنيسة الزائفة عن الكنيسة الحقيقية ليس علاقتها برجال الدين، بل مستوى فهم أعضائها، ونوعية علاقتهم مع بعضهم البعض. يعلن سفر رؤيا بطرس أن "أولئك الذين هم من الحياة... وقد استنيروا"[22] يميزون بأنفسهم بين ما هو صحيح وما هو خاطئ. إنهم ينتمون إلى "البقية... المدعوة إلى المعرفة (الغنوصية)"،[23] ولا يحاولون السيطرة على الآخرين ولا يخضعون أنفسهم للأساقفة والشمامسة، تلك "القنوات التي لا ماء فيها". وبدلاً من ذلك، فهم يشاركون في "حكمة الأخوة الموجودة حقًا... والزمالة الروحية مع أولئك المتحدين في التواصل". [24]

وتعلن الرسالة الثانية لسيث الكبير على نحو مماثل أن ما يميز الكنيسة الحقيقية هو الاتحاد الذي يتمتع به أعضاؤها مع الله ومع بعضهم البعض، "متحدين في صداقة الأصدقاء إلى الأبد، الذين لا يعرفون أي عداوة، ولا شر، ولكنهم متحدون بمعرفتي... (في) صداقة مع بعضهم البعض". [25] إن علاقتهما هي حميمية الزواج، "الزفاف الروحي"، لأنهما يعيشان "في الأبوة والأمومة والأخوة العقلانية والحكمة"[26] كأولئك الذين يحبون بعضهم البعض كـ "أرواح زميلة". [27]

إن هذه الرؤى الروحانية عن "الكنيسة السماوية" تتناقض بشكل حاد مع الصورة الواقعية للكنيسة التي تقدمها المصادر الأرثوذكسية. لماذا يتخلى المؤلفون الغنوصيون عن

الواقعية ويصفون الكنيسة بمصطلحات خيالية ومثيرة للدهشة؟ ويقول بعض العلماء إن هذا يثبت أنهم لم يفهموا إلا القليل، ولم يهتموا كثيراً بالعلاقات الاجتماعية. في دراسته الحديثة الواسعة النطاق للكنيسة المسيحية المبكرة، وصف كارل أندرسن هؤلاء الغنوصيين بأنهم "أنانيون دينيون" اهتموا فقط بتطورهم الروحي الفردي، غير مبالين بمسؤوليات الكنيسة المجتمعية.[28] ولكن المصادر المذكورة أعلاه تظهر أن هؤلاء الغنوصيين عرفوا الكنيسة بدقة من حيث نوعية العلاقات المتبادلة بين أعضائها.

لقد وصف الكتاب الأرثوذكس الكنيسة بمصطلحات ملموسة لأنهم يقبلون الوضع الراهن؛ أي أنهم أكدوا أن الجماعة الفعلية لأولئك الذين اجتمعوا للعبادة هي "الكنيسة". المسيحيون الغنوصيون خالفوا هذا الرأي. وعندما واجهوا أولئك الذين اعتبروهم في الكنائس جهلاء أو متغطرسين أو مهتمين بمصالحهم الذاتية، رفضوا الموافقة على أن جماعة المؤمنين بأكملها، دون مزيد من التحديد، تشكل "الكنيسة". وانفصلوا عن الأغلبية في قضايا مثل قيمة الاستشهاد، وكانوا ينوون التمييز بين عامة المؤمنين وأولئك الذين لديهم الغنوص الحقيقي، بين ما أسموه التقليد أو التزييف والكنيسة الحقيقية.

على سبيل المثال، فكر في كيف أن الخلافات المحددة مع المسيحيين الآخرين دفعت حتى هيبوليتوس وترتليان، هذين المعارضين المتحمسين للزندقة، إلى إعادة تعريف الكنيسة لأنفسهم. شارك هيبوليتوس وجهة نظر معلمه إيرينيئوس حول الكنيسة باعتبارها الحامل الوحيد للحقيقة. وكما فعل إيرينيئوس، عرّف هيبوليتوس هذه الحقيقة بأنها ما ضمنته الخلافة الرسولية للأساقفة على أساس القانون وعقيدة الكنيسة. ولكن عندما انتُخب شماس اسمه كاليستوس أسقفًا لكنيسته في روما، احتج هيبوليتوس بشدة. نشر قصة فاضحة، تشوه سمعة كاليستوس:

> كان كاليستوس عبدًا لكاربوفوروس، وهو مسيحي يعمل في القصر الإمبراطوري. لقد عهد كاربوفوروس إلى كاليستوس، باعتباره من المؤمنين، بمبلغ لا يستهان به من المال، وأمره بجلب الربح من الأعمال المصرفية. أخذ المال وبدأ العمل في ما يسمى بـ "جناح سوق السمك". وبمرور الوقت، تم تسليمه عددًا لا بأس به من الودائع

من قبل الأرامل والإخوة... لكن كاليستوس اختلس كل شيء، وشعر بحرج مالي. [29]

وعندما سمع كاربوفوروس بهذا الأمر، طالب بالمحاسبة، ولكن هيبوليتوس يقول إن كاليستوس هرب: "عندما وجد سفينة في الميناء جاهزة لرحلة، صعد على متنها، وكان ينوي الإبحار إلى أي مكان كانت متجهة إليه". [30] عندما طارده سيده إلى السفينة، أدرك كاليستوس أنه وقع في الفخ، فقفز في البحر بسبب اليأس. تم إنقاذ كاليستوس رغماً عنه من قبل البحارة بينما كان الحشد على الشاطئ يهتف بالتشجيع، وتم تسليمه إلى كاربوفورس، وعاد إلى روما، ووضع في العبودية الجزائية. يبدو أن هيبوليتوس كان يحاول أن يشرح كيف تعرض كاليستوس للتعذيب والسجن، حيث كان الكثيرون يقدسونه باعتباره شهيدًا؛ بينما أصر هيبوليتوس بدلاً من ذلك على أنه كان مجرمًا. اعترض هيبوليتوس أيضًا على آراء كاليستوس بشأن الثالوث، ووجد أن سياسة كاليستوس في توسيع نطاق غفران الخطايا لتغطية التجاوزات الجنسية "متساهلة" بشكل صادم. وشجب كاليستوس، العبد السابق، للسماح للمؤمنين بتنظيم العلاقات مع عبيدهم من خلال الاعتراف بهم كزيجات صالحة.

ولكن هيبوليتوس وجد نفسه في الأقلية. كان أغلب المسيحيين الرومان يحترمون كاليستوس باعتباره معلمًا وشهيدًا، ويؤيدون سياساته، وينتخبونه أسقفًا. وبعد أن أصبح كاليستوس رئيسًا للكنيسة الرومانية، قرر هيبوليتوس الانفصال عنها. وفي هذه العملية، استخدم ضد الأسقف نفس الأساليب الجدلية التي علمه إيرينيئوس استخدامها ضد الغنوصيين. وكما أشار إيرينيئوس إلى مجموعات معينة من المسيحيين باعتبارهم زنادقة، وأطلق عليهم أسماء معلميهم (مثل "الفالنتينيين"، و"السمعانيين"، وما إلى ذلك)، فقد اتهم هيبوليتوس كاليستوس بتعليم الزندقة ووصف أتباعه بأنهم "الكاليستيانيون" - كما لو كانوا طائفة منفصلة عن "الكنيسة"، التي ادعى هيبوليتوس نفسه أنه يمثلها.

كيف يمكن لهيبوليتوس أن يبرر ادعائه بتمثيل الكنيسة، عندما كان هو وأتباعه القلائل يهاجمون الغالبية العظمى من المسيحيين الرومان وأسقفهم؟ أوضح هيبوليتوس أن غالبية "المسيحيين الذين أعلنوا أنفسهم مسيحيين" كانوا

غير قادرين على الارتقاء إلى مستوى الكنيسة الحقيقية، التي تتكون من "الجماعة التي تعيش في القداسة". وكما هو الحال مع خصومه الغنوصيين، فقد رفض تحديد هوية الكنيسة من خلال التسلسل الهرمي الرسمي، بل وصفها بدلاً من ذلك من حيث الصفات الروحية لأعضائها.

وقد قدم ترتليان حالة أكثر دراماتيكية. طالما أنه عرَّف نفسه بأنه "مسيحي كاثوليكي"، فقد عرَّف ترتليان الكنيسة بنفس الطريقة التي عرَّفها إيرينيئوس. في كتابه اعتراض استباقي ضد الهراطقة، أعلن ترتليان أن كنيسته وحدها تحمل القاعدة الرسولية للإيمان، وتحترم شريعة الكتاب المقدس، وتحمل من خلال تسلسلها الكنسي موافقة الخلافة الرسولية. مثل إيرينيئوس، اتهم ترتليان الهراطقة بانتهاك كل من هذه الحدود. يشكو من أنهم رفضوا ببساطة قبول قاعدة الإيمان والاعتقاد بها كما فعل الآخرون: بدلاً من ذلك، تحدوا الآخرين لطرح أسئلة لاهوتية، في حين أنهم لم يدعوا أي إجابات،

> وكانوا مستعدين للقول، وبصدق، عن بعض نقاط إيمانهم، "هذا ليس صحيحًا"، و"أنا آخذ هذا بمعنى مختلف"، و"أنا لا أعترف بذلك". [31]

يحذر ترتليان من أن مثل هذا التساؤل يؤدي إلى الزندقة: "هذه القاعدة ... علمها المسيح، ولا تثير بيننا أي أسئلة أخرى غير تلك التي تقدمها الزندقة والتي تجعل الرجال زناذقة!" [32] كما يتهم الزناذقة بأنهم لم يقيدوا أنفسهم بكتابات العهد الجديد: إما أنهم أضافوا كتابات أخرى أو أنهم تحدوا التفسير الأرثوذكسي للنصوص الرئيسية. [33] وعلاوة على ذلك، وكما ذكرنا بالفعل، فإنه يدين الزناذقة لكونهم "معسكرًا للمتمردين" الذين رفضوا الخضوع لسلطة الأسقف. في مناقشته لنظام صارم من الطاعة والخضوع، خلص إلى أن "وجود دليل على وجود نظام أكثر صرامة بيننا هو دليل إضافي على الحقيقة". [34]

هكذا يقول ترتليان الكاثوليكي. ولكن في نهاية حياته، عندما دفعه حماسه الشديد إلى الانفصال عن المجتمع الأرثوذكسي، رفضه ووصفه بأنه كنيسة

المسيحيين "النفسانيين" فقط. وانضم بدلاً من ذلك إلى الحركة المونتانية، التي أطلق عليها أتباعها اسم "النبوءة الجديدة"، مدعين أنها مستوحاة من الروح القدس. في هذا الوقت بدأ ترتليان يميز بشكل حاد بين الكنيسة التجريبية ورؤية أخرى روحية للكنيسة. والآن لم يعد يعرف الكنيسة من حيث تنظيمها الكنسي، بل فقط من خلال الروح التي تقدس الأعضاء الأفراد. إنه يحتقر المجتمع الكاثوليكي باعتباره "كنيسة عدد من الأساقفة":

> فالكنيسة نفسها، في جوهرها وأساسها، هي روح، فيها ثالوث إلهي واحد، الآب والابن والروح القدس.
>
> تجتمع
> الكنيسة حيث يخطط الرب لها - كنيسة روحية لأشخاص روحيين - وليس كنيسة عدد من الأساقفة! [35]

ما الذي دفع المنشقين عن المسيحية الكاثوليكية إلى الحفاظ على مثل هذه الأوصاف الرؤيوية للكنيسة أو تطويرها؟ هل كانت رؤاهم "غير واضحة" لأنهم كانوا مهتمين بالتكهنات النظرية؟ وعلى العكس من ذلك، كانت دوافعهم في بعض الأحيان تقليدية ومثيرة للجدل، ولكن في بعض الأحيان الأخرى كانت سياسية. لقد كانوا مقتنعين بأن "الكنيسة المرئية" - الشبكة الفعلية للمجتمعات الكاثوليكية - إما كانت مخطئة منذ البداية أو أنها سارت في الاتجاه الخاطئ. أما الكنيسة الحقيقية، على النقيض من ذلك، فكانت "غير مرئية": فقط أعضاؤها هم الذين يدركون من ينتمي إليها ومن لا ينتمي إليها. كان المقصود من فكرة المنشقين عن الكنيسة غير المرئية هو معارضة ادعاءات أولئك الذين قالوا إنهم يمثلون الكنيسة العالمية. وقد قام مارتن لوثر بنفس الخطوة بعد 1300 عام. وعندما تحول تفانيه للكنيسة الكاثوليكية إلى نقد، ثم رفض، بدأ يصر، مع غيره من المصلحين البروتستانت، على أن الكنيسة الحقيقية "غير مرئية" - أي أنها ليست متطابقة مع الكاثوليكية.

وكان المؤلف الغنوصي لشهادة الحقيقة ليتفق مع لوثر ويذهب إلى أبعد من ذلك بكثير. وهو يرفض كل علامات المسيحية الكنسية باعتبارها خاطئة. إن الطاعة للتسلسل الهرمي الديني تتطلب من المؤمنين أن يخضعوا أنفسهم لـ "المرشدين العميان" الذين تأتي سلطتهم من الخالق

الشرير. إن التوافق مع قاعدة الإيمان يحاول تقييد جميع المسيحيين بأيديولوجية أدنى: "يقولون: (حتى لو جاء ملاك من السماء، وبشركم بما هو أبعد مما نبشركم به، فليكن ملعونًا!)" "[36] إن الإيمان بالأسرار المقدسة يُظهر تفكيرًا ساذجًا وسحريًا: يمارس المسيحيون الكاثوليك المعمودية كطقس تأهيلي يضمن لهم "أمل الخلاص"،[37] معتقدين أن أولئك الذين يتلقون المعمودية فقط "يتجهون إلى الحياة". [38]

في مواجهة مثل هذه "الأكاذيب"، يعلن الغنوصي أن "هذه هي الشهادة الحقيقية: عندما يعرف الإنسان نفسه، والله الذي هو فوق الحقيقة، سوف يخلص". [39] فقط أولئك الذين يدركون أنهم كانوا يعيشون في جهل، ويتعلمون تحرير أنفسهم من خلال اكتشاف من هم، يختبرون التنوير كحياة جديدة، كـ "القيامة". إن الطقوس الجسدية مثل المعمودية تصبح غير ذات صلة، لأن "معمودية الحقيقة هي شيء آخر؛ إنها من خلال التخلي عن العالم يمكن العثور عليها". [40]

في مواجهة أولئك الذين ادعوا الوصول الحصري إلى الحقيقة، وأولئك الذين اتبعوا القانون والسلطة، والذين وضعوا إيمانهم في الطقوس، يضع هذا المؤلف رؤيته الخاصة: "كل من يستطيع أن يتخلى عنهما (المال والجماع) يظهر أنه (من) جيل (ابن الإنسان)، وأن لديه القدرة على اتهامهم". [41] مثل هيبوليتوس وترتليان، ولكن أكثر جذرية من كليهما، يمتدح هذا المعلم الامتناع عن ممارسة الجنس والتخلي عن المال باعتبارهما علامات المسيحي الحقيقي.

كما يقدم "التعليم الموثوق"، وهو نص آخر تم اكتشافه في نجع حمادي، هجومًا عنيفًا على المسيحية الكاثوليكية. يروي المؤلف قصة الروح التي جاءت في الأصل من السماء، من "ملء الوجود"،[42] ولكن عندما "أُلقيت في الجسد"[43] عانت من الرغبة الحسية، والعواطف، والكراهية، والحسد. ومن الواضح أن المجاز يشير إلى صراع الروح الفردية ضد الأهواء والخطيئة؛ إلا أن لغة الرواية تشير إلى مرجع اجتماعي أوسع أيضًا. إنها تحكي عن صراع أولئك الروحانيين، القريبين من الروح (التي يتماهى معها المؤلف)، ضد أولئك الذين هم غرباء عنها أساسًا. يوضح المؤلف أن بعض من كانوا يُطلق عليهم "إخواننا"

الذين ادعوا أنهم مسيحيون، كانوا في الواقع غرباء. مع أن "الكلمة قد بشر بها"[44]، وأنهم سمعوا "الكلمة"[45] وقاموا بأعمال العبادة، فإن هؤلاء الذين اعترفوا بأنهم مسيحيون كانوا "أسوأ من ... الوثنيين"،[46] الذين كان لديهم عذر لجهلهم.

على أي أساس يتهم الغنوصي هؤلاء المؤمنين؟ أولاً، أنهم "لا يسعون إلى الله". [47] إن الغنوصي يفهم رسالة المسيح ليس على أنها تقدم مجموعة من الإجابات، بل على أنها تشجيع على الانخراط في عملية البحث: "ابحثوا واسألوا عن الطرق التي ينبغي أن تسلكوها، لأنه لا يوجد شيء آخر أفضل من هذا". [48] الروح العقلانية تتوق إلى

> أن ترى بعقلها، وتدرك أقاربها، وتتعلم عن جذورها... لكي تنال ما هو لها..." [49]

ما هي النتيجة؟ يعلن الكاتب أنها وصلت إلى الكمال:

> ... الروح العاقلة التي أتعبت نفسها في البحث ـ تعلمت عن الله. كانت تتعب في البحث، وتتحمل ضيق الجسد، وتتعب قدميها وراء الإنجيليين، وتتعلم عن الواحد الذي لا يُفهم...
> . لقد جاءت لتستريح في من هو في راحة. اتكأت في حجرة العروس. أكلت من الوليمة التي كانت تتوق إليها. و وجدت
> ما كانت تبحث عنه.[50]

ومن يتبع طريقها هم من الغنوصيين. لكن المسيحيين غير الغنوصيين "لا يسعون":

> ... هؤلاء -الذين هم جهلاء- لا يسعون وراء الله. "لا يسألون
>
> عن الله... يسمع الإنسان الجاهل النداء، لكنه يجهل المكان الذي دُعي إليه." ولم يسأل أثناء الوعظ: "أين الهيكل الذي أذهب إليه وأعبد؟" [51]

إن أولئك الذين يؤمنون فقط بالوعظ الذي يسمعونه، دون طرح أسئلة، والذين يقبلون العبادة المعروضة عليهم، لا يظلون جهلاء فحسب، بل "إذا وجدوا شخصًا

آخر يسأل عن خلاصه"،[52] فإنهم يتصرفون على الفور لحظره وإسكاته.

ثانيًا، يزعم هؤلاء "الأعداء" أنهم أنفسهم "رعاة" الروح:

> . . . ولم يدركوا أنها تمتلك جسداً روحياً غير مرئي، فيعتقدون "نحن رعاتها، الذين يطعمونها". لكنهم لم يدركوا أنها تعرف طريقًا آخر مخفيًا عنهم. هذا ما علمها إياه راعيها الحقيقي في الغنوص. [53]

من خلال استخدام المصطلح الشائع للأسقف (*poimen*، "الراعي")، يشير المؤلف، على ما يبدو، إلى أعضاء رجال الدين: لم يكونوا يعلمون أن المسيحي الغنوصي لديه إمكانية الوصول المباشر إلى المسيح نفسه، الراعي الحقيقي للنفس، ولم يكن بحاجة إلى إرشاداتهم. ولم يدرك هؤلاء الذين أرادوا أن يصبحوا رعاة أن الكنيسة الحقيقية ليست الكنيسة المرئية (المجتمع الذي يرأسونه)، بل "إن لها جسداً روحياً غير مرئي"[54] - أي أنها تشمل فقط أولئك الذين كانوا روحيين. فقط المسيح، وهم أنفسهم، عرفوا من هم. علاوة على ذلك، كان هؤلاء "الخارجون" منغمسين في شرب الخمر، والنشاط الجنسي، وعملوا في الأعمال العادية، مثل الوثنيين. ولتبرير سلوكهم، قاموا بقمع وتشويه سمعة أولئك الذين بلغوا الغنوص، والذين مارسوا الزهد الكامل. يقول الغنوصي:

> ... لا نهتم بهم عندما يشوهون سمعتنا. ونحن نتجاهلهم عندما يلعنوننا. عندما يخجلون منا ننظر إليهم ولا نتكلم. فإنهم يعملون في أعمالهم، وأما نحن فنجوع ونعطش... [55]

أعتقد أن هؤلاء "الأعداء" كانوا يتبعون نفس النصائح التي وصفها القادة الأرثوذكس مثل إيرينيئوس، وترتليان، وهيبوليتوس للتعامل مع الزنادقة. في المقام الأول، رفضوا التشكيك في قاعدة الإيمان والعقيدة المشتركة. يحذر ترتليان من أن "الزنادقة والفلاسفة" يطرحون نفس الأسئلة، ويحث المؤمنين على رفضها جميعًا:

بعيدا عن كل المحاولات لإنتاج مسيحية مختلطة من الرواقية، والأفلاطونية، أو الجدلية! لا نريد جدالًا فضوليًا بعد امتلاك المسيح يسوع، ولا استفسارًا بعد التمتع بالإنجيل! مع إيماننا، لا نرغب في المزيد من الإيمان.[56]

ويشكو من أن الزنادقة يرحبون بأي شخص ينضم إليهم، "لأنهم لا يهتمون بمدى اختلاف تعاملهم مع المواضيع"، طالما أنهم يجتمعون معًا للوصول إلى "مدينة الحقيقة الوحيدة". [57]ولكن استعاراتهم تشير إلى أن الغنوصيين لم يكونوا نسبيين ولا متشككين. مثل الأرثوذكس، كانوا يبحثون عن "الحقيقة الوحيدة". لكن الغنوصيين كانوا يميلون إلى اعتبار جميع العقائد والتكهنات والأساطير - الخاصة بهم وكذلك الخاصة بالآخرين - مجرد طرق للوصول إلى الحقيقة. وعلى النقيض من ذلك، بدأ الأرثوذكس في تحديد عقيدتهم باعتبارها الحقيقة ذاتها - الشكل الشرعي الوحيد للإيمان المسيحي. يعترف ترتليان بأن الزنادقة زعموا أنهم اتبعوا نصيحة يسوع ("اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم"). [58] لكن هذا يعني، كما يقول، أن المسيح علم "شيئًا واحدًا محددًا" - ما يحتويه قانون الإيمان. وبمجرد أن يجد المسيحي هذا ويؤمن به، فلن يكون لديه ما يبحث عنه بعد ذلك:

بعيدا عن الشخص الذي يبحث حيث لا يجد أبدا؛ لأنه يبحث حيث لا يمكن العثور على شيء. بعيدا عن الذي يطرق دائما، لأنه لن يفتح له أبدا، لأنه يطرق حيث لا يوجد أحد ليفتح له. "بعيدًا عن الذي يسأل دائمًا، لأنه لن يُستجاب له أبدًا، لأنه يسأل من لا يسمع."[59]

يتفق إيرينيئوس مع هذا الرأي: "وفقًا لهذا النهج، فإن الإنسان سيظل دائمًا يبحث، لكنه لن يجد أبدًا، لأنه رفض طريقة الاكتشاف ذاتها". [60] ويقول إن المسار الآمن والدقيق الوحيد هو قبول ما تعلمه الكنيسة بالإيمان، مع الاعتراف بحدود الفهم البشري.

وكما رأينا، فإن هؤلاء "أعداء" الغنوصيين اتبعوا نصيحة آباء الكنيسة في تأكيد مطالبات رجال الدين على المسيحيين الغنوصيين. كما أنهم تعاملوا مع الغنوصيين "غير التائبين" باعتبارهم غرباء عن الإيمان المسيحي؛ وأخيرًا، أكدوا على قيمة

العمل العادي والحياة الأسرية فوق متطلبات الزهد الجذري.

في حين اتخذ المسيحيون الكاثوليك والغنوصيون المتطرفون مواقف متعارضة، حيث ادعى كل منهم تمثيل الكنيسة، وندد كل منهم بالآخر باعتباره زنذيقا، اتخذ الفالنتينيون موقف الوسط. وقاوموا المحاولات الأرثوذكسية لوصفهم بأنهم غرباء، فعرّفوا أنفسهم كأعضاء كاملين في الكنيسة. لكن الفالنتينيين دخلوا في نقاش حاد فيما بينهم حول المسألة المعاكسة - وضع المسيحيين الكاثوليك. وكان الخلاف بينهم حول هذه المسألة خطيراً إلى درجة أن الأزمة أدت في النهاية إلى انقسام أتباع فالانتينوس إلى فصيلين مختلفين.

هل كان المسيحيون الكاثوليك جزءًا من الكنيسة، "جسد المسيح"؟ وقال الفرع الشرقي من الفالنتينيين لا. لقد أكدوا أن جسد المسيح، الكنيسة، كان "روحانيًا بحتًا"، ويتكون فقط من أولئك الذين كانوا روحيين، والذين تلقوا الغنوص. ثيودوتس، المعلم الكبير للمدرسة الشرقية، عرّف الكنيسة بأنها "الجنس المختار"،[61] أولئك "المختارون قبل تأسيس العالم".[62] لقد كان خلاصهم مؤكدًا ومقدرًا مسبقًا وحصريًا. وكما فعل ترتليان في سنواته الأخيرة، علّم ثيودوتوس أن أولئك الذين تلقوا الإلهام الروحي المباشر هم فقط الذين ينتمون إلى "الكنيسة الروحية".[63]

لكن بطليموس وهرقليون، المعلمان الرائدان للمدرسة الغربية للفالنتينيين، اختلفا في هذا الرأي. في مواجهة ثيودوتس، زعموا أن "جسد المسيح"، أي الكنيسة، يتألف من عنصرين متميزين، أحدهما روحي، والآخر غير روحي. وهذا يعني، كما أوضحوا، أن المسيحيين الغنوصيين وغير الغنوصيين يقفون داخل نفس الكنيسة. واستشهدوا بقول يسوع "كثيرون مدعوون ولكن قليلون مختارون"، وأوضحوا أن المسيحيين الذين يفتقرون إلى الغنوص - وهم الأغلبية - هم الكثيرون الذين دُعوا. وهم أنفسهم، باعتبارهم مسيحيين غنوصيين، ينتمون إلى القلائل الذين تم اختيارهم. علّم هرقليون أن الله أعطاهم الفهم الروحي من أجل الباقين، حتى يتمكنوا من تعليم "الكثيرين" وقيادتهم إلى الغنوص.[64]

وقد اتفق المعلم الغنوصي بطليموس على أن المسيح جمع

داخل الكنيسة المسيحيين الروحيين وغير الروحيين حتى يصبح الجميع في النهاية روحيين.[65] وفي الوقت نفسه، كان كلاهما ينتمي إلى كنيسة واحدة؛ وكلاهما تعمدا؛ وكلاهما اشتركا في الاحتفال بالقداس؛ وكلاهما اعترفا بنفس الإيمان. ما يميزهم هو مستوى فهمهم. لقد عبد المسيحيون غير المتأهلين الخالق عن طريق الخطأ، كما لو كان هو الله؛ لقد آمنوا بالمسيح باعتباره الشخص الذي سيخلصهم من الخطيئة، والذي اعتقدوا أنه قام جسديًا من بين الأموات: لقد قبلوه بالإيمان، ولكن من دون فهم سر طبيعته - أو طبيعتهم الخاصة. لكن أولئك الذين استمروا في تلقي الغنوص، أصبحوا يعترفون بالمسيح باعتباره المرسل من الآب الحق، الذي كشف لهم مجيئه أن طبيعتهم متطابقة مع طبيعته - ومع طبيعة الله.

ولتوضيح علاقتهما، يقدم هرقليون تفسيرًا رمزيًا للكنيسة باعتبارها معبدًا: أولئك الذين كانوا مسيحيين عاديين، ولم يصبحوا غنوصيين بعد، كانوا يعبدون مثل اللاويين، في ساحة المعبد، مغلقين عن اللغز. لا يدخل إلى "قدس الأقداس" إلا من كان عنده الغنوص، وهو المكان الذي "يعبد فيه الروحانيون الله". ومع ذلك، كان هناك معبد واحد - الكنيسة - يضم كلا مكاني العبادة. [66]

ويتفق مؤلف كتاب تفسير المعرفة الفالنتيني مع هذا الرأي. يشرح أنه على الرغم من أن يسوع جاء إلى العالم ومات من أجل "كنيسة الفانين"،[67] إلا أن هذه الكنيسة، "مكان الإيمان"، انشقت وانقسمت إلى فصائل.[68] تلقى بعض الأعضاء مواهب روحية - القدرة على الشفاء، والنبوة، وقبل كل شيء، الغنوص؛ ولم يتلقها آخرون.

ويعرب هذا المعلم الغنوصي عن قلقه من أن هذا الوضع غالبًا ما يسبب العداء وسوء الفهم. كان أولئك المتقدمون روحياً يميلون إلى الانسحاب من أولئك الذين اعتبروهم مسيحيين "جهلة"، وكانوا يترددون في مشاركة أفكارهم معهم. كان أولئك الذين يفتقرون إلى الإلهام الروحي يحسدون أولئك الذين تحدثوا علنًا في خدمة العبادة والذين تكلموا بالنبوة وعلموا وشفوا الآخرين. [69]

يتوجه المؤلف إلى المجتمع بأكمله محاولاً التوفيق بين المسيحيين الغنوصيين وغير الغنوصيين مع بعضهم

البعض. واستنادًا إلى استعارة تقليدية، يذكّرهم بأن جميع المؤمنين هم أعضاء في الكنيسة، "جسد المسيح". أولاً يذكر كلمات بولس:

> لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة، وكل أعضاء الجسد الواحد، وإن كانت كثيرة، هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً. لا تستطيع العين
> أن تقول لليد: "لا حاجة لي إليك"، ولا يستطيع الرأس أن يقول للقدمين: "لا حاجة لي إليكما". [70]

ثم يواصل الوعظ لأولئك الذين يشعرون بالنقص، ويفتقرون إلى القوى الروحية، والذين لم يصبحوا بعد متأهلين في الغنوصية:

> . . . لا تتهم رأسك (المسيح) لأنه لم يخلقك عينًا بل إصبعًا، ولا تحسد ما خلق عينًا أو يدًا أو رجلاً، بل اشكر لأنك لست خارج الجسد. [71]

أما بالنسبة لأولئك الروحانيين، والذين لديهم الغنوص، والذين تلقوا "المواهب"، فيقول:

> . . . هل يمتلك أحد موهبة النبوة؟ شاركها دون تردد. لا تقترب من أخيك بالحسد... كيف تعرف أن الشخص جاهل؟ (أنت) جاهل عندما (تكرههم) و
> يغارون منهم. [72]

مثل بولس، يحث جميع الأعضاء على محبة بعضهم البعض، والعمل والمعاناة معًا، المسيحيين الناضجين وغير الناضجين على حد سواء، الغنوصيين والمؤمنين العاديين، وبالتالي "المشاركة في الانسجام (الحقيقي)". [73] وفقًا للمدرسة الغربية للغنوصيين الفالنتينيين، فإن "الكنيسة" تشمل مجتمع المسيحيين الكاثوليك، ولكنها لا تقتصر عليها. وزعموا أن معظم المسيحيين لم يدركوا حتى العنصر الأكثر أهمية في الكنيسة، وهو العنصر الروحي، والذي يتألف من كل من كان لديه الغنوص.

ومن وجهة نظر الأسقف، كان الموقف الغنوصي بالطبع فظيعًا. لقد تحدى هؤلاء الزنادقة حقه في تحديد ما اعتبره كنيسته الخاصة؛ وكانت لديهم الجرأة لمناقشة ما إذا كان المسيحيون الكاثوليك يشاركون فيها أم لا؛

وزعموا أن مجموعتهم الخاصة شكلت النواة الأساسية، "الكنيسة الروحية". ورفض الزعماء الأرثوذكس هذه النخبوية الدينية، وحاولوا بدلاً من ذلك بناء كنيسة عالمية. ورغبةً منهم في فتح تلك الكنيسة أمام الجميع، رحبوا بأعضاء من كل طبقة اجتماعية، ومن كل أصل عرقي أو ثقافي، سواء كانوا متعلمين أو أميين ـ أي كل من يخضع لنظامهم التنظيمي. لقد رسم الأساقفة الخط الفاصل ضد أولئك الذين تحدوا أيًا من العناصر الثلاثة لهذا النظام: العقيدة، والطقوس، والتسلسل الهرمي الديني ـ وتحداهم الغنوصيون جميعًا. ولم يتمكن الزعماء الأرثوذكس من إنشاء ذلك النظام التنظيمي الذي وحد جميع المؤمنين في هيكل مؤسسي واحد إلا من خلال قمع الغنوصية. ولم يسمحوا بأي تمييز بين أعضاء الدرجة الأولى والثانية غير التمييز بين رجال الدين والعامة، ولم يتسامحوا مع أي شخص ادعى الإعفاء من التوافق العقائدي، ومن المشاركة في الطقوس، ومن الطاعة للنظام الذي يديره الكهنة والأساقفة. أما الكنائس الغنوصية، التي رفضت ذلك النظام لصالح أشكال أكثر ذاتية من الانتماء الديني، فقد استمرت، ككنائس، لبضع مئات من السنين فقط.

VI

الغنوص: معرفة الذات كمعرفة الله

. . . قال له توما: يا سيد، لسنا نعلم إلى أين تذهب، فكيف نقدر أن نعرف الطريق؟ قال له يسوع: "أنا هو الطريق والحق والحياة. لا أحد يأتي إلى الآب إلا بي."[1]

إن إنجيل يوحنا، الذي يحتوي على هذا القول، هو كتاب رائع ادعى العديد من المسيحيين الغنوصيين أنهم يمتلكونه لأنفسهم واستخدموه كمصدر أساسي للتعليم الغنوصي.[2] ومع ذلك، فإن الكنيسة الناشئة، على الرغم من بعض المعارضة الأرثوذكسية، أدرجت إنجيل يوحنا ضمن العهد الجديد. ما الذي يجعل يوحنا مقبولاً "أرثوذكسيًا"؟ لماذا قبلت الكنيسة يوحنا ورفضت كتابات مثل إنجيل توما أو حوار المخلص؟ عند التفكير في هذا السؤال، تذكر أن أي شخص يقود سيارته عبر الولايات المتحدة من المرجح أن يرى لوحات إعلانية تعلن هذا القول من يوحنا - لوحات إعلانية موقعة من قبل أي من الكنائس المحلية. إن غرضهم واضح: من خلال الإشارة إلى أن الإنسان لا يجد الله إلا من خلال يسوع، فإن القول، في سياقه المعاصر، يعني ضمناً أن الإنسان لا يجد يسوع إلا من خلال الكنيسة. وعلى نحو مماثل، في القرون الأولى من هذا العصر، كان المسيحيون المهتمون بتعزيز الكنيسة المؤسسية قادرين على إيجاد الدعم في يوحنا.

وتقدم المصادر الغنوصية وجهة نظر دينية مختلفة. بحسب حوار المخلص، على سبيل المثال، عندما سأل التلاميذ يسوع نفس السؤال ("ما هو المكان الذي نذهب إليه؟") فأجاب: "المكان الذي تستطيع الوصول إليه، قف هناك!" [3] يروي إنجيل توما أنه عندما سأل التلاميذ يسوع إلى أين يجب أن يذهبوا، قال فقط: "هناك نور داخل رجل من نور، وهو ينير العالم كله. "إذا لم يضيء فهو ظلام." [4] وبعيدًا عن إضفاء الشرعية على أي مؤسسة، فإن كلا القولين يوجهان الإنسان بدلاً من ذلك إلى نفسه ــ إلى قدرته الداخلية على إيجاد اتجاهه الخاص، إلى "النور الداخلي".

إن التباين الموضح أعلاه، بطبيعة الحال، بسيط إلى حد ما. وقد أثبت أتباع فالانتينوس أنفسهم - بشكل مقنع - أن العديد من الأقوال والقصص في إنجيل يوحنا يمكن أن تصلح لمثل هذا التفسير. ولكن يبدو أن مسيحيين مثل إيرينيئوس قرروا أنه في المجمل فإن إنجيل يوحنا (وخاصة ربما عندما يوضع في التسلسل بعد إنجيل متى ومرقس ولوقا) يمكن أن يخدم احتياجات المؤسسة الناشئة.

وبما أن الكنيسة منظمة سياسياً، فقد كان بإمكانها أن تدعم داخل نفسها العديد من الأفكار والممارسات المتناقضة طالما أن العناصر المتنازع عليها تدعم هيكلها المؤسسي الأساسي. على سبيل المثال، في القرنين الثالث والرابع، تبنى مئات المسيحيين الكاثوليك أشكالاً زهدية من الانضباط الذاتي، ساعيين إلى الحصول على البصيرة الدينية من خلال العزلة، والرؤى، والتجارب النشوانية. (يأتي مصطلحا "راهب" و"رهباني" من الكلمة اليونانية *monachos*، والتي تعني "منعزل" أو "واحد"، والتي يستخدمها إنجيل توما بشكل متكرر لوصف الغنوصي.) وبدلاً من استبعاد الحركة الرهبانية، تحركت الكنيسة، في القرن الرابع، لجعل الرهبان متوافقين مع السلطة الأسقفية. اقترح الباحث فريدريك ويس أن الرهبان الذين عاشوا في دير القديس باخوميوس، على مرأى من الجرف حيث عُثر على النصوص، ربما أدرجوا نصوص نجع حمادي ضمن مكتبتهم التعبدية.[5] لكن في عام 367، عندما أرسل أثناسيوس، رئيس أساقفة الإسكندرية القوي، أمرًا بتطهير جميع "الكتب المنحولة" ذات الميول "الزنذيقية"، ربما قام أحد الرهبان (أو أكثر) بإخفاء

المخطوطات الثمينة في الجرة ودفنها على جرف جبل الطريف، حيث وجدها محمد علي بعد 1,000 عام.

وعلاوة على ذلك، وبما أن الكنيسة، على الرغم من اختلافها الداخلي، أصبحت بشكل متزايد وحدة سياسية بين 150 و 400، فقد كان قادتها يميلون إلى التعامل مع معارضيهم ـ مجموعة أكثر تنوعًا من المجموعات ـ كما لو كانوا هم أيضًا يشكلون وحدة سياسية معاكسة. عندما ندد إيرينيئوس بالزندقة ووصفهم بأنهم "غنوصيون"،[6] لم يكن يشير إلى أي اتفاق عقائدي محدد بينهم (في الواقع، كان غالبًا ما ينتقدهم بسبب تنوع معتقداتهم) بقدر ما كان يشير إلى حقيقة أنهم جميعًا قاوموا قبول سلطة رجال الدين، والعقيدة، وقانون العهد الجديد.

ما هو القاسم المشترك بين المجموعات المختلفة التي أطلق عليها إيرينيئوس اسم "الغنوصية"؟ أو بعبارة أخرى، ما هي القاسم المشترك بين النصوص المتنوعة التي اكتشفت في نجع حمادي؟ لا توجد إجابة بسيطة يمكن أن تغطي كل المجموعات المختلفة التي يهاجمها الأرثوذكس، أو كل النصوص المختلفة في مجموعة نجع حمادي. ولكنني أقترح أن المشكلة مع الغنوصية، من وجهة النظر الأرثوذكسية، لم تكن فقط أن الغنوصيين غالبًا ما اختلفوا مع الأغلبية في قضايا محددة مثل تلك التي استكشفناها حتى الآن - تنظيم السلطة، ومشاركة النساء، والاستشهاد: لقد أدرك الأرثوذكس أن أولئك الذين أطلقوا عليهم اسم "الغنوصيين" يشتركون في منظور ديني أساسي ظل مناقضًا لمطالبات الكنيسة المؤسسية.

لقد أصرّ المسيحيون الأرثوذكس على أن البشرية تحتاج إلى طريق يتجاوز قدرتها الذاتية - طريق إلهي - للوصول إلى الله. وهذا ما أعلنوه هو ما تقدمه الكنيسة الكاثوليكية لأولئك الذين سيضيعون بدونها: "لا خلاص خارج الكنيسة". وكان اعتقادهم مبنيًا على أن الله خلق البشرية. كما يقول إيرينيئوس: "في هذا الصدد يختلف الله عن البشرية؛ الله يخلق، ولكن البشرية تُصنع". [7] أحدهما هو الفاعل الأصلي، والآخر هو المتلقي السلبي؛ أحدهما "كامل حقًا في كل الأشياء"،[8] كلي القدرة، لانهائي، والآخر مخلوق غير كامل ومحدود. يقول الفيلسوف جاستن الشهيد إنه عندما أدرك الفرق الكبير بين العقل البشري والله، تخلى عن أفلاطون وأصبح

فيلسوف مسيحي. يروي أنه قبل اعتناقه المسيحية، تحدى رجل عجوز افتراضه الأساسي، وسأله: "ما هي إذن القرابة بيننا وبين الله؟" هل الروح أيضًا إلهية وخالدة، وجزء من ذلك العقل الملكي ذاته؟ وبصفته تلميذاً لأفلاطون، أجاب جاستن دون تردد: "بالتأكيد". [3]ولكن عندما أدت أسئلة الرجل العجوز الإضافية إلى الشك في هذا اليقين، قال إنه أدرك أن العقل البشري لا يستطيع أن يجد الله في داخله، وأنه يحتاج بدلاً من ذلك إلى الاستنارة بالوحي الإلهي - عن طريق الكتاب المقدس والإيمان المعلن في الكنيسة.

ولكن بعض المسيحيين الغنوصيين ذهبوا إلى حد الزعم بأن البشرية خلقت الله، وبالتالي، من خلال إمكاناتها الداخلية، اكتشفت لنفسها الوحي بالحقيقي. وقد يكون هذا الاعتقاد هو أساس التعليق الساخر في إنجيل فيليب:

> . . . لقد خلق الله الإنسان؛ (ولكن الآن البشر) يخلقون الله. هكذا هي الحال في العالم، البشر يصنعون الآلهة، ويعبدون خلقهم. من المناسب أن يعبد الآلهة البشر! [10]

لقد فالانتينوس الغنوصي أن البشرية نفسها تتجلى فيها الحياة الإلهية والوحي الإلهي. ويقول إن الكنيسة تتكون من ذلك الجزء من البشرية الذي يعترف بأصلها الإلهي ويحتفل به.[11] ولكن فالانتينوس لم يستخدم المصطلح بمعناه المعاصر، أي للإشارة إلى الجنس البشري بشكل جماعي. وبدلاً من ذلك، فقد فكر هو وأتباعه في الأنثروبوس (المترجم هنا إلى "الإنسانية") باعتبارها الطبيعة الأساسية لذلك الكيان الجماعي، النموذج الأصلي، أو الجوهر الروحي، للكائن البشري. وبهذا المعنى، فإن بعض أتباع فالانتينوس، "أولئك الذين اعتبروا أكثر مهارة"[12] من البقية، اتفقوا مع المعلم كولورباسوس، الذي قال إنه عندما كشف الله عن نفسه، كشف عن نفسه في صورة أنثروبوس. ويذكر
إيرينيئوس أن آخرين زعموا

> أن الأب الأول للكل، البداية الأولى، والأساس غير المفهوم، يُسمى أنثروبوس... وأن هذا هو اللغز العظيم والغامض، ألا وهو أن

القوة التي هي فوق كل شيء، وتحتوي كل شيء في حضنها، تسمى أنثروبوس.[13]

لهذا السبب، أوضح هؤلاء الغنوصيون، أن المخلص دعا نفسه "ابن الإنسان" (أي ابن أنثروبوس).[14] قال الغنوصيون السيثيون، الذين أطلقوا على الخالق اسم إلداباوث (اسم مشتق على ما يبدو من اليهودية الصوفية ولكنه يشير هنا إلى وضعه الأدنى)، إنه لهذا السبب، عندما أصبح الخالق،

إلداباوث، متغطرسًا في الروح، وتباهى بنفسه على كل من كانوا دونه، وأوضح، "أنا أب، وإله، وليس فوقي أحد"، سمعته أمه يتكلم هكذا، صرخت ضده: "لا تكذب، إلداباوث؛ لأن أبا الجميع، أنثروبوس الأول، هو فوقك؛ وكذلك أنثروبوس، ابن أنثروبوس.[15]

وعلى حد تعبير فالنتيني آخر، بما أن البشر هم من خلقوا لغة التعبير الديني برمتها، فإن البشرية في الواقع هي التي خلقت العالم الإلهي: "... وهذا (الأنثروبوس) هو في الحقيقة من هو الله فوق كل شيء".

إذن، كان العديد من الغنوصيين سيتفقون من حيث المبدأ مع لودفيغ فيورباخ، عالم النفس في القرن التاسع عشر، على أن "اللاهوت هو حقًا أنثروبولوجيا" (المصطلح مشتق، بالطبع، من الأنثروبوس، ويعني "دراسة الإنسانية "). بالنسبة للغنوصيين، أصبح استكشاف النفس بشكل صريح ما هو عليه ضمناً بالنسبة للعديد من الناس اليوم - وهو بحث ديني. إن بعض الذين يسعون إلى التوجيه الداخلي الخاص بهم، مثل الغنوصيين المتطرفين، يرفضون المؤسسات الدينية باعتبارها عائقًا أمام تقدمهم. ويشارك آخرون، مثل الفالنتينيين، فيها طواعية، على الرغم من أنهم ينظرون إلى الكنيسة باعتبارها أداة لاكتشاف ذواتهم أكثر من كونها "سفينة الخلاص" الضرورية.

بالإضافة إلى تعريف الله بطرق متعارضة، قام المسيحيون الغنوصيون والأرثوذكس بتشخيص الحالة الإنسانية بشكل مختلف تمامًا. لقد اتبع الأرثوذكس التعاليم اليهودية التقليدية التي تقول إن ما يفصل البشرية عن الله، بالإضافة إلى الاختلاف الجوهري، هو الخطيئة البشرية. إن مصطلح الخطيئة في العهد الجديد، هامارتيا، يأتي من رياضة الرماية؛ ويعني حرفيًا "إخفاق الهدف".

تعلم مصادر العهد الجديد أننا نعاني من الضيق العقلي والجسدي، لأننا نفشل في تحقيق الهدف الأخلاقي الذي نهدف إليه: "لقد أخطأ الجميع، وقصروا عن مجد الله".[16] فوفقاً لإنجيل مرقس، عندما جاء يسوع للمصالحة بين الله والبشرية، أعلن: "لقد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل". [17] يعلن مرقس أن يسوع وحده هو القادر على تقديم الشفاء ومغفرة الخطايا؛ فقط أولئك الذين يتلقون رسالته بالإيمان يعيشون الخلاص. يعبر إنجيل يوحنا عن الوضع اليائس الذي تعيشه البشرية بعيدًا عن المخلص:

> لأن الله أرسل ابنه إلى العالم... لكي يخلص به العالم. من يؤمن به لا يُدان، ومن لا يؤمن فقد دين منذ الآن، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. [18]

على العكس من ذلك، أصر العديد من الغنوصيين على أن الجهل، وليس الخطيئة، هو الذي يدفع الإنسان إلى المعاناة. كانت الحركة الغنوصية تشترك في بعض أوجه التشابه مع الأساليب المعاصرة لاستكشاف الذات من خلال تقنيات العلاج النفسي. إن كل من الغنوصية والعلاج النفسي يقدران، قبل كل شيء، المعرفة - المعرفة الذاتية التي هي البصيرة. ويتفقون على أنه في غياب هذا، يشعر الإنسان بأنه مدفوع بدوافع لا يفهمها. وقد عبر فالانتينوس عن هذا في الأسطورة. يخبرنا كيف نشأ العالم عندما أخرجته الحكمة، أم كل الكائنات، من معاناتها الخاصة. العناصر الأربعة التي قال الفلاسفة اليونانيون إنها تشكل العالم - التراب، والهواء، والنار، والماء - هي أشكال ملموسة لتجاربها:

> وهكذا نشأت التربة من ارتباكها، والماء من رعبها، والهواء من تماسك حزنها، بينما كانت النار متأصلة في كل هذه العناصر... حيث كان الجهل مختبئًا في هذه المعاناة الثلاثة. [13]

وهكذا ولد العالم من المعاناة. (الكلمة اليونانية *pathos*، والتي تُرجمت هنا إلى "المعاناة"، تشير أيضًا إلى كون الشخص متلقيًا سلبيًا، وليس المؤهل، لتجربته.) يروي

فالانتينوس أو أحد أتباعه رواية مختلفة للأسطورة في إنجيل الحقيقة:

. . . الجهل... جلب الألم والرعب. وأصبح الألم كثيفًا مثل الضباب، حتى لم يعد أحد قادرًا على الرؤية. لهذا السبب يكون الخطأ قويًا...[20]

وبالتالي، يعيش معظم الناس في حالة من النسيان، أو في مصطلحات العصر الحديث، في حالة من اللاوعي. إنهم يبقون غير مدركين لذواتهم، وبالتالي ليس لديهم "جذر". [21] يصف إنجيل الحقيقة هذا الوجود بأنه كابوس. إن من يعيشون فيه يعانون من "الرعب والارتباك وعدم الاستقرار والشك والانقسام"، ويقعون في "أوهام كثيرة". [22] لذا، وفقًا للفقرة التي يسميها العلماء "مثل الكابوس"، فقد عاشوا

كما لو كانوا غارقين في النوم ووجدوا أنفسهم في أحلام مزعجة. إما أن يكون هناك مكان يفرون إليه، أو يأتون منه بلا قوة بعد مطاردتهم للآخرين، أو أنهم متورطون في الضربات، أو أنهم يتلقون الضربات بأنفسهم، أو أنهم سقطوا من أماكن عالية، أو أنهم يطيرون في الهواء رغم أنهم لا يملكون أجنحة. وأحياناً يكون الأمر كما لو أن الناس يقتلونهم، مع أنه لا يوجد من يطاردهم، أو أنهم يقتلون جيرانهم بأنفسهم، لأنهم تلطخوا بدمائهم. عندما يستيقظ أولئك الذين يمرون بكل هذه الأشياء، فإنهم لا يرون شيئًا، أولئك الذين كانوا في وسط هذه الاضطرابات، لأنهم ليسوا شيئًا. هكذا هم الذين تركوا الجهل كالنوم وتركوا أعمالهم كالحلم في الليل... هكذا تصرف الجميع، كأنهم نائمون في الوقت الذي كان جاهلاً فيه. وهذا هو الطريق الذي وصل به إلى المعرفة، كأنه استيقظ. [23]

من يظل جاهلاً، "مخلوقًا من النسيان"،[24] لا يستطيع أن يعيش الوفاء. قال الغنوصيون أن مثل هذا الشخص "يسكن في نقص" (عكس الاكتمال). لأن النقص هو الجهل:

. . . كما هو الحال مع جهل شخص ما، عندما يأتي إلى المعرفة، فإن جهله يتلاشى من تلقاء نفسه؛ كما

يتلاشى الظلام عندما يظهر النور، كذلك يختفي النقص عند الاكتمال. [25]

إن الجهل بالذات هو أيضًا شكل من أشكال تدمير الذات. بحسب حوار المخلص، من لا يفهم عناصر الكون، ولا نفسه، فهو محكوم بالفناء:

> . . . إذا لم يفهم أحد كيف جاءت النار، فإنه سوف يحترق فيها، لأنه لا يعرف أصلها. "إذا لم يفهم أحد الماء أولاً، فهو لا يعرف شيئاً..." إذا لم يفهم أحد كيف جاءت الريح التي تهب، فسوف يركض معها. إذا لم يفهم أحد كيف جاء الجسد الذي يرتديه فسوف يهلك معه. من لم يفهم كيف جاء لن يفهم
> كيف سيذهب... [26]

كيف -أو أين- نسعى إلى معرفة الذات؟ يتقاسم العديد من الغنوصيين مع العلاج النفسي فرضية رئيسية ثانية: يتفق كلاهما - على عكس المسيحية الأرثوذكسية - على أن النفس تحمل في داخلها إمكانية التحرر أو التدمير. قليل من الأطباء النفسيين قد يختلفون مع القول المنسوب إلى يسوع في إنجيل توما:

> "إذا أخرجت ما بداخلك، فإن ما تخرجه سوف ينقذك. "إذا لم تُخرج ما بداخلك، فإن ما لا تُخرجه سوف يُدمرك." [27]

وتأتي هذه البصيرة تدريجيًا، من خلال الجهد: "اعرف ما هو أمام عينيك، وسوف ينكشف لك ما هو مخفي". [28] وقد أقر هؤلاء الغنوصيون بأن السعي إلى الغنوص يشرك كل شخص في عملية منعزلة وصعبة، حيث يكافح المرء ضد المقاومة الداخلية. وقد وصفوا هذه المقاومة للغنوص بأنها رغبة في النوم أو السُكر، أي البقاء فاقدًا للوعي. لذلك يعلن يسوع (الذي يقول في مكان آخر "أنا معرفة الحق")[23] أنه عندما جاء إلى العالم

> وجدتهم جميعا في حالة سكر، ولم أجد أحدا منهم عطشانًا. "وحزنت نفسي على بني البشر، لأنهم عميان القلوب وليس لديهم بصر، لأنهم فارغون أتوا إلى هذا العالم، وفارغون يطلبون أن يخرجوا من هذا العالم." ولكنهم في حالة سُكر في الوقت الحالي. [30]

يشجع المعلم سيلفانوس، الذي اكتشفت تعاليمه[31]في نجع حمادي، أتباعه على مقاومة اللاوعي:

> ... أنهِ النوم الذي يثقل كاهلك. "ابتعد عن النسيان الذي يملؤك بالظلام..." لماذا تسعى وراء الظلام، مع أن النور متاح لك؟ ... الحكمة تدعوك، ولكنك ترغب في الحماقة... الرجل الأحمق... يسلك طرق رغبة كل شهوة. يسبح في رغبات الحياة وقد غرق... فهو مثل السفينة التي تقلبها الرياح ذهاباً وإياباً، ومثل الحصان الطليق الذي لا راكب له. "لهذا كان لا بد من الفارس، وهو العقل... قبل كل شيء... اعرف نفسك... [32]

يحذر إنجيل توما أيضًا من أن اكتشاف الذات ينطوي على اضطراب داخلي:

> قال يسوع: من يطلب فليستمر في البحث حتى يجد. عندما يجد سوف يصبح مضطربًا. "فإذا اضطرب اندهش، وسيطر على كل شيء." [33].

ما هو مصدر "النور" الذي تم اكتشافه في الداخل؟ وكما هو الحال مع فرويد، الذي ادعى اتباع "نور العقل"، فقد اتفقت معظم المصادر الغنوصية على أن "مصباح الجسد هو العقل"[34] (وهي مقولة ينسبها حوار المخلص إلى يسوع). يقول المعلم سيلفانوس:

> . . . أحضر مرشدك ومعلمك. العقل هو الدليل، ولكن الاستبصار هو المعلم. . . . . عش حسب عقلك... "اكتسب القوة، فالعقل قوي..." أنر عقلك... أشعل المصباح بداخلك. [35]

وللقيام بذلك، يواصل سيلفانوس،

> أطرق على نفسك كما على باب، وامش على نفسك كما على طريق مستقيم. لأنه إذا مشيت على الطريق، فمن المستحيل أن تضل. . . . . افتح لنفسك الباب لتعرف ما هو... بقدر ما تفتح لنفسك، فسوف تفتح. [36]

يعبر إنجيل الحقيقة عن نفس الفكرة:

. . . "فإذا كان لدى الإنسان المعرفة، فإنه يتلقى ما هو خاص به، ويجذبه إليه..." من أراد أن يحصل على هذه المعرفة يعرف من أين أتى وإلى أين يذهب. [37]

يعبر إنجيل الحقيقة أيضًا عن هذا في استعارة: يجب أن يتلقى كل شخص "اسمه"- ليس، بالطبع، اسم المرء العادي، ولكن هويته الحقيقية. أولئك الذين هم "أبناء المعرفة الداخلية"[38] يكتسبون القدرة على التحدث بأسمائهم الخاصة. ويخاطبهم المعلم الغنوصي:

. . . فقل إذن من قلبك أنك اليوم الكامل، وفيك يسكن النور الذي لا ينطفئ... "لأنك أنت الفهم المستخرج..." اهتموا بأنفسكم، ولا تهتموا بأشياء أخرى رفضتموها من أنفسكم. [39]

وهكذا، بحسب إنجيل توما، سخر يسوع من أولئك الذين فكروا في "مملكة الله" بعبارات حرفية، كما لو كانت مكانًا محددًا: "إذا قال لكم الذين يقودونكم: هوذا المملكة في السماء، فإن الطيور ستسبقكم إلى هناك". فإذا قالوا لكم: هي في البحر، فإنه يقول: فإن السمك يسبقكم. بل إنها حالة من اكتشاف الذات:

". . . بل إن المملكة هي في داخلك، وهي خارجك. عندما تعرفون أنفسكم، حينئذٍ سوف تُعرفون، وسوف تدركون أنكم أبناء الآب الحي. "ولكن إذا لم تعرفوا أنفسكم، فإنكم تعيشون في فقر، وأنتم هذا الفقر." [40]

ولكن التلاميذ، إذ أخطأوا في اعتبار "المملكة" حدثًا مستقبليًا، أصرّوا على تساؤلهم:

قال له تلاميذه: "متى... يأتي العالم الجديد؟" فقال لهم: "إن ما تنتظرونه قد جاء ولكنكم لم تعرفوه."... فقال له تلاميذه: "متى يأتي الملكوت؟"

(قال يسوع): "لن يأتي بالانتظار. لن يكون الأمر مجرد قول "ها هو ذا" أو "ها هو ذا". بل إن مملكة الآب منتشرة على الأرض، والناس لا يرونها. [41]

إن "المملكة" إذن ترمز إلى حالة من الوعي المتغير:

رأى يسوع الأطفال يرضعون. وقال لتلاميذه: "هؤلاء الأطفال الرضع يشبهون الداخلين إلى الملكوت." فقالوا له: "فهل ندخل الملكوت ونحن أطفال؟" قال لهم يسوع: "متى جعلتم الاثنين واحدًا، ومتى جعلتم الباطن كالظاهر، والظاهر كالباطن، والأعلى كالأسفل، ومتى جعلتم الذكر والأنثى واحدًا... حينئذ تدخلون (الملكوت)." [42]

ومع ذلك، فإن ما يرفضه "يسوع الحي" عند توما باعتباره ساذجًا - فكرة أن مملكة الله الثالثة هي حدث حقيقي متوقع في التاريخ - هو مفهوم المملكة الثالثة الذي تنسب إليه الأناجيل الإزائية في العهد الجديد في أغلب الأحيان يسوع باعتباره تعليمه. بحسب ما جاء في إنجيل متى ولوقا ومرقس، أعلن يسوع عن مجيء مملكة الله، عندما ينال الأسرى حريتهم، وعندما يتعافى المرضى، ويتم إطلاق سراح المظلومين، ويسود الانسجام في جميع أنحاء العالم. يقول مرقس أن التلاميذ كانوا يتوقعون مجيء المملكة الثالثة كحدث كارثي في حياتهم، لأن يسوع قال إن بعضهم سوف يعيشون ليروا "ملكوت الله يأتي بقوة". [43] قبل إلقاء القبض عليه، يقول مرقس، حذر يسوع من أنه على الرغم من أن "النهاية ليست بعد"،[44] فيجب عليهم أن يتوقعوها في أي وقت. تصر الأناجيل الثلاثة على أن المملكة الثالثة سوف تأتي في المستقبل القريب (على الرغم من أنها تحتوي أيضًا على العديد من المقاطع التي تشير إلى أنها هنا بالفعل). يقول لوقا إن يسوع يقول صراحةً: "ملكوت الله في داخلكم". [45] بعض المسيحيين الغنوصيين، الذين وسعوا هذا النوع من التفسير، توقعوا أن التحرير البشري لن يحدث من خلال أحداث فعلية في التاريخ، بل من خلال التحول الداخلي.

ولأسباب مماثلة، انتقد المسيحيون الغنوصيون

وجهات النظر الأرثوذكسية عن يسوع التي حددته كشخص خارجي عن التلاميذ، ومتفوق عليهم. فوفقًا لما رواه مرقس، عندما تعرف التلاميذ على هوية يسوع، اعتبروه ملكهم المنصب.

> وكان يسوع يذهب مع تلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس، وفي الطريق سأل تلاميذه: "من يقول الناس إني أنا؟" فقالوا له: "يوحنا المعمدان، وآخرون إيليا، وآخرون واحد من الأنبياء." فسألهم: "وأنتم من تقولون إني أنا؟" فأجابه بطرس: "أنت المسيح." [46]

ويضيف متى إلى هذا أن يسوع بارك بطرس لدقة اعترافه، وأعلن على الفور أن الكنيسة سوف تُؤسس على أساس بطرس، وعلى اعترافه بيسوع باعتباره المسيح.[47] إن أحد أقدم الاعترافات المسيحية على الإطلاق ينص ببساطة على: "يسوع هو الرب!" لكن توما يروي القصة بشكل مختلف:

> قال يسوع لتلاميذه: "قارنوني بأحد وأخبروني من أشبه." فقال له سمعان بطرس: "أنت تشبه الملاك البار." قال له متى، "أنت مثل الفيلسوف الحكيم." فقال له توما: "يا معلم، إن فمي عاجز تمامًا عن أن يقول من تشبه." قال يسوع: ؤأنا لست سيدك. لأنكم شربتم، سكرتم من النهر المتدفق الذي قسته." [48]

هنا لا ينكر يسوع دوره كمسيح أو كمعلم، على الأقل في علاقة مع بطرس ومتى. ولكن هنا، فإنهم - وإجاباتهم - يمثلون مستوى أدنى من الفهم. توما، الذي يدرك أنه لا يستطيع أن ينسب أي دور محدد إلى يسوع، يتجاوز، في هذه اللحظة من الإدراك، العلاقة بين التلميذ والمعلم. ويصبح هو نفسه مثل "يسوع الحي"، الذي يعلن: "كل من يشرب من فمي يصبح مثلي، وأنا أكون ذلك الإنسان، وتتكشف له الأمور الخفية". [49]

غالبًا ما تصور المصادر الغنوصية يسوع وهو يجيب على الأسئلة، ويتولى دور المعلم، والكاشف، والسيد الروحي. ولكن هنا أيضًا، يقف النموذج الغنوصي قريبًا من العلاج

النفسي. كلاهما يعترفان بالحاجة إلى التوجيه، ولكن كإجراء مؤقت فقط. الهدف من قبول السلطة هو التعلم على كيفية تجاوزها. عندما يصبح الإنسان ناضجًا، فإنه لم يعد بحاجة إلى أية سلطة خارجية. إن الشخص الذي كان في السابق يحل محل التلميذ، أصبح يعرف نفسه بأنه "الأخ التوأم" ليسوع. فمن هو يسوع المعلم إذن؟ يصفه كتاب توما المزعوم ببساطة بأنه "معرفة الحقيقة". [50]وفقًا لإنجيل توما، رفض يسوع التحقق من صحة التجربة التي يجب على التلاميذ اكتشافها بأنفسهم:

> فقالوا له: قل لنا من أنت حتى نؤمن بك. فقال لهم: "أنتم تقرأون وجه السماء والأرض، ولكنكم لم تعرفوا الذي أمامكم، ولا تعرفون كيف تقرأون هذه اللحظة." [51]

وعندما سألوه في إحباط: "من أنت حتى تقول لنا هذا؟" ولكن يسوع، بدلاً من أن يجيب، انتقد سؤالهم قائلاً: "أنتم لا تعرفون من أنا من خلال ما أقوله لكم". [52]لقد لاحظنا بالفعل أنه، بحسب توما، عندما طلب التلاميذ من يسوع أن يظهر لهم أين هو حتى يتمكنوا هم أيضًا من الوصول إلى ذلك المكان، رفض، ووجههم بدلاً من ذلك إلى أنفسهم، لاكتشاف الموارد المخفية في داخلهم. ويتكرر نفس الموضوع في حوار المخلص. بينما كان يسوع يتحدث مع تلاميذه الثلاثة المختارين، طلب منه متى أن يريه "مكان الحياة"، الذي هو، كما يقول، "النور النقي". أجاب يسوع: "كل من عرف نفسه رأى." [53] هنا مرة أخرى، يحرف السؤال، ويشير للتلميذ بدلاً من ذلك إلى اكتشاف ذاته. عندما كان التلاميذ ينتظرون منه أن يكشف لهم الأسرار، سألوا يسوع: "من هو الذي يطلب (ومن هو الذي) يكشف؟" [54]يجيب بأن من يبحث عن الحقيقة – التلميذ – هو أيضًا من يكشفها. وبما أن متى يصر على طرح الأسئلة عليه، يقول يسوع إنه لا يعرف الإجابة، "ولم أسمع عنها إلا منك". [55]إن التلميذ الذي يعرف نفسه يستطيع أن يكتشف، اكثر، مما لا يستطيع يسوع أن يعلمه. تقول شهادة الحق

أن الغنوصي يصبح "تلميذًا لعقله"[56]، ويكتشف أن عقله "هو أبو الحقيقة". [57] يتعلم ما يحتاج إلى معرفته بنفسه في صمت تأملي. وبالتالي، فهو يعتبر نفسه مساويا للجميع، محافظا على استقلاله عن سلطة أي شخص آخر: "وهو صبور على الجميع، ويجعل نفسه مساويا للجميع، وينفصل عنهم أيضا". [58]ويرى سيلفانوس أيضًا أن "عقلك" هو "المبدأ التوجيهي". من اتبع توجيهات عقله لا ينبغي له أن يقبل نصيحة أحد آخر:

> لدي عدد كبير من الأصدقاء، ولكن ليس مستشارين. ... ولكن إذا اكتسبت صديقًا فلا تأتمنه على نفسك. استودع نفسك لله وحده كأبٍ وصديق. [59]

وأخيرًا، فإن أولئك الغنوصيين الذين تصوروا الغنوص باعتباره تجربة ذاتية مباشرة، اهتموا قبل كل شيء بالدلالة الداخلية للأحداث. وهنا مرة أخرى انحرفوا عن التقليد الأرثوذكسي، الذي أكد أن مصير الإنسان يعتمد على أحداث "تاريخ الخلاص" - تاريخ إسرائيل، وخاصة تنبؤات الأنبياء عن المسيح ثم مجيئه الفعلي، وحياته، وموته وقيامته. جميع أناجيل العهد الجديد، مهما كانت اختلافاتها، تتناول يسوع كشخصية تاريخية. وكلهم يعتمدون على تنبؤات الأنبياء لإثبات صحة الرسالة المسيحية. على سبيل المثال، يكرر متى باستمرار العبارة التالية: "لقد تم هذا لتحقيق ما قاله الأنبياء". [60] ويحاول جاستن أيضًا إقناع الإمبراطور بحقيقة المسيحية، فيشير إلى دليل على تحقيق النبوة: "وهذا في الواقع يمكنكم أن تروا بأنفسكم، وتقتنعوا به من خلال الواقع". [61] ولكن بحسب إنجيل توما، فإن يسوع يرفض تنبؤات الأنبياء باعتبارها غير ذات صلة:

> قال له تلاميذه: "أربعة وعشرون نبياً تكلموا في إسرائيل، وكلهم تكلموا عنك." فقال لهم: تجاهلتم الحي الذي بين أيديكم، وتكلمتم عن الأموات فقط. [62]

اعتبر هؤلاء المسيحيون الغنوصيون الأحداث الفعلية ثانوية بالنسبة لمعناها المتصور.

ولهذا السبب، يشترك هذا النوع من الغنوصية مع العلاج النفسي في الاهتمام بالأهمية غير الحرفية للغة، حيث يحاول كلاهما فهم الجودة الداخلية للتجربة. قام المحلل النفسي كارل يونغ بتفسير أسطورة خلق فالانتينوس على أنها وصف للعمليات النفسية. يخبرنا فالانتينوس كيف أن كل الأشياء تنشأ من "العمق"، [63] - وفقًا لمصطلحات التحليل النفسي، من اللاوعي. ومن ذلك "العمق" ينبثق العقل والحقيقة، ومنهما، بدورهما، الكلمة (اللوغوس) والحياة. وكانت الكلمة هي التي جلبت الإنسانية إلى الوجود. قرأ يونغ هذا على أنه سرد أسطوري لأصل الوعي البشري.

قد يجد المحلل النفسي أهمية أيضًا في استمرار هذه الأسطورة، كما يروي فالانتينوس كيف استحوذت الحكمة، الابنة الصغرى للزوجين الأولين، على شغف لمعرفة الآب الذي فسرته على أنه حب. كانت محاولاتها للتعرف عليه ستؤدي بها إلى تدمير نفسها لولا أنها واجهت قوة تسمى الحد، "قوة تدعم كل الأشياء وتحافظ عليها" [64] والتي حررتها من الاضطراب العاطفي وأعادتها إلى مكانها الأصلي.

يستكشف أحد أتباع فالانتينوس، مؤلف إنجيل فيليب، العلاقة بين الحقيقة التجريبية والوصف اللفظي. ويقول إن "الحقيقة هي التي جلبت الأسماء إلى العالم لأنه من غير الممكن تعليمها بدون أسماء". [65] ولكن الحقيقة يجب أن تكتسي بالرموز: "الحقيقة لم تأت إلى العالم عارية، بل جاءت في أشكال وصور. "لن نتلقى الحقيقة بأي طريقة أخرى." [66] ينتقد هذا المعلم الغنوصي أولئك الذين يخلطون بين اللغة الدينية واللغة الحرفية، ويعلنون إيمانهم بالله، أو بالمسيح، أو بالقيامة أو بالكنيسة، وكأن هذه كلها "أشياء" خارجية بالنسبة لهم. لأنه، كما يوضح، في الكلام العادي، تشير كل كلمة إلى ظاهرة خارجية محددة؛ فالشخص "يرى الشمس دون أن يكون شمسًا، ويرى السماء والأرض وكل شيء آخر، لكنه ليس هذه الأشياء". [67] أما اللغة الدينية

فهي لغة التحول الداخلي؛ فمن يدرك الواقع الإلهي "يصبح ما يراه":

> . . . لقد رأيت الروح، فأصبحت روحًا. لقد رأيت المسيح، وصرت أنت المسيح. لقد رأيت (الآب، أنت) ستصبح أبًا... أنت ترى نفسك، وما تراه سوف (تصبحه). [68]

من يصل إلى الغنوص لا يصبح مسيحيًا، بل يصبح المسيح. [69]

ومن ثم، يمكننا أن نرى أن هذه الغنوصية كانت أكثر من مجرد حركة احتجاج ضد المسيحية الأرثوذكسية. كما تضمنت الغنوصية أيضًا منظورًا دينيًا عارض ضمناً تطور نوع المؤسسة التي أصبحت الكنيسة الكاثوليكية المبكرة. إن أولئك الذين توقعوا أن "يصبحوا المسيح" أنفسهم لم يكن من المرجح أن يدركوا أن الهياكل المؤسسية للكنيسة - أسقفها، أو كاهنها، أو عقيدتها، أو قانونها، أو طقوسها - تحمل السلطة النهائية.

هذا المنظور الديني يميز الغنوصية ليس فقط عن الأرثوذكسية، ولكن أيضًا، على الرغم من جميع أوجه التشابه، عن العلاج النفسي، حيث يتبع معظم أعضاء مهنة العلاج النفسي فرويد في رفضهم إسناد الوجود الحقيقي إلى نسج الخيال. إنهم لا يعتبرون محاولتهم لاكتشاف ما في داخل النفس بمثابة اكتشاف أسرار الكون. لكن العديد من الغنوصيين، مثل العديد من الفنانين، يبحثون عن المعرفة الذاتية الداخلية كمفتاح لفهم الحقائق العالمية - "من نحن، من أين أتينا، إلى أين نذهب". وفقًا لكتاب توما المزعوم، "من لم يعرف نفسه لم يعرف شيئًا، ولكن من عرف نفسه فقد حقق في الوقت نفسه معرفة حول أعماق كل الأشياء". [70]

إن هذا الاعتقاد - بأن من يستكشف التجربة الإنسانية يكتشف في الوقت نفسه الحقيقة الإلهية - هو أحد العناصر التي تميز الغنوصية كحركة دينية متميزة. يذكر هيبوليتوس أن سمعان المجوسي زعم أن كل إنسان هو مسكن، "وفيه تسكن قوة لا نهائية... جذر الكون". [71] ولكن بما أن تلك القوة اللانهائية موجودة في

two modes, one actual, the other potential, so this infinite power "exists in a latent condition in everyone," but "potentially, not actually."[72]

كيف يمكن للمرء أن يحقق هذه الإمكانية؟ إن العديد من المصادر الغنوصية التي تم الاستشهاد بها حتى الآن تحتوي فقط على أقوال مأثورة توجه التلميذ إلى البحث عن المعرفة، ولكنها تمتنع عن إخبار أي شخص بكيفية البحث. إن اكتشاف ذلك بالنسبة للذات هو، على ما يبدو، الخطوة الأولى نحو معرفة الذات. وهكذا، في إنجيل توما، يطلب التلاميذ من يسوع أن يخبرهم بما يجب عليهم فعله:

> فسأله تلاميذه وقالوا له: أتريدنا أن نصوم؟ كيف نصلي؟ هل نتصدق؟ ما هو النظام الغذائي الذي يجب أن نتبعه؟ قال يسوع: "لا تكذبوا، ولا تفعلوا ما تكرهون..." [79]

إجابته الساخرة تعيدهم إلى أنفسهم: من غير الإنسان يستطيع أن يحكم متى يكذب المرء أو ما يكرهه؟ وقد أثارت هذه الإجابات الغامضة انتقادات حادة من جانب أفْلُوطين، الفيلسوف الأفلاطوني الجديد الذي هاجم الغنوصيين عندما كانت تعاليمهم تجذب بعض طلابه بعيدًا عن الفلسفة. اشتكى أفلوطين من أن الغنوصيين ليس لديهم برنامج للتدريس: "إنهم يقولون فقط: "انظر إلى الله!"، لكنهم لا يخبرون أحداً أين أو كيف ينظر". [74]

ومع ذلك فإن العديد من المصادر التي تم اكتشافها في نجع حمادي تصف تقنيات الانضباط الروحي. زوستريانوس، أطول نص في مكتبة نجع حمادي، يروي كيف أن أحد المعلمين الروحيين قد بلغ التنوير، ووضع ضمناً برنامجاً للآخرين ليتبعوه. يروي القديس زوستريانوس أنه كان عليه أولاً أن يزيل من نفسه الرغبات الجسدية، ربما من خلال ممارسات الزهد. ثانياً، كان عليه أن يقلل من "الفوضى في ذهنه"،[75] وذلك بتهدئة عقله بالتأمل. ثم يقول: "بعد أن أصلحت نفسي، رأيت الطفل الكامل" [76] - رؤية الحضور الإلهي. ويقول بعد ذلك: "كنت أفكر في هذه الأمور من أجل فهمها... ولم أكف عن البحث عن مكان راحة يليق بروحي..." [77] ولكن بعد ذلك، أصبح "مضطربًا للغاية"، محبطًا من تقدمه، فخرج إلى الصحراء، متوقعًا أن تقتله الحيوانات البرية. هناك، يروي زوستريانوس، أنه تلقى أولاً

رؤية "رسول معرفة النور الأبدي"[78] واستمر في تجربة العديد من الرؤى الأخرى، التي يرويها من أجل تشجيع الآخرين: "لماذا تترددون؟ اطلب عندما يطلبك أحد، وعندما تتم دعوتك فاستمع..." أنظر إلى النور. فر من الظلام. "لا تضل إلى هلاكك." [79]

وتقدم مصادر غنوصية أخرى توجيهات أكثر تحديدًا. يكشف الخطاب حول الثامن والتاسع عن "نظام التقاليد" الذي يرشد الصعود إلى المعرفة العليا. كُتب الخطاب في شكل حوار، ويبدأ بتذكير الطالب لمعلمه الروحي بوعد:

(يا أبتِ لقد وعدتني بالأمس أن تدخل عقلي في الثامنة ثم تدخلني في التاسعة) قلت أن هذا هو ترتيب التقليد." [80]

فأجابه معلمه: يا بني، هذا هو الترتيب. ولكن الوعد كان بحسب الطبيعة البشرية." [81] ويوضح أن التلميذ نفسه يجب أن يقدم الفهم الذي يسعى إليه: "أنا أعرض عليك العمل. ولكن الفهم يسكن فيك. "في داخلي، كما لو أن القوة حامل." [82] فيتعجب التلميذ، فهل القوة إذن موجودة فعلاً في داخله؟ يقترح المعلم أن يصلي كلاهما لكي يصل التلميذ إلى المستويات الأعلى، "الثامنة والتاسعة". لقد تقدم بالفعل خلال المستويات السبعة الأولى من الفهم، مدفوعًا بالجهد الأخلاقي والتفاني. لكن التلميذ يعترف بأنه حتى الآن ليس لديه أي خبرة مباشرة بالمعرفة الإلهية: "يا أبي، لا أفهم شيئًا سوى الجمال الذي وصلني في الكتب". [83]

والآن بعد أن أصبح مستعدًا لتجاوز المعرفة النيابية، انضم الاثنان إلى الصلاة "إلى الإله الكامل غير المرئي الذي نتحدث إليه في صمت". [84] تتحول الصلاة إلى ترنيمة من الكلمات المقدسة والحروف المتحركة : "Zoxathazo a ôô èè ôôô èèè ôôôô èè ôôôôôôôôôôôô ôôôôôô uuuuuu ôôôôôôôôôôôô ôôô Zozazoth[85] بعد ترديد الترنيمة، يصلي المعلم قائلا: "يا رب...

اعترف بالروح التي فينا". [86]ثم يدخل في حالة من النشوة:

> ". . . فهمت! أرى أعماقًا لا يمكن وصفها. كيف أخبرك يا ابني؟ كيف أصف الكون؟ أنا (عقل) وأرى عقلًا آخر، العقل الذي (يحرك) النفس! أرى ذلك الذي يحركني من النسيان المحض. لقد أعطيتني القوة! أرى نفسي! أريد أن أتكلم! الخوف يقيدني. لقد وجدت بداية القوة التي هي فوق كل القوى، والتي ليس لها بداية. لقد قلت يا بني إني
> أنا عقل. لقد رأيت! اللغة غير قادرة على الكشف عن هذا. "في اليوم الثامن بأكمله، يا بني، والأرواح التي فيه، والملائكة، يغنون ترنيمة في صمت." "وأنا، عقل، أفهم." [87]

عند النظر إليه، يمتلئ التلميذ نفسه بالبهجة: "أفرح يا أبي، لأني أراك مبتسمًا. والكون يفرح." عندما رأى التلميذ معلمه يجسد الإلهي، يتوسل إليه قائلاً: "لا تحرم نفسي من الرؤية الإلهية العظيمة. "فكل شيء ممكن بالنسبة لك كسيد الكون." يطلب منه المعلم أن يغني في صمت، وأن "يطلب ما يريد في صمت":

> ولما انتهى من التسبيح صرخ: أيها الأب ترسميجيستوس! ماذا أقول؟ لقد تلقينا هذا النور. وأنا أرى نفس الرؤية فيك. أرى الثامن والأرواح التي فيه والملائكة يغنون ترنيمة للتاسع وقواه. أدعو إلى نهاية الكون وبداية البداية، إلى هدف بحث الإنسان، الاكتشاف الخالد... أنا أداة روحك. العقل هو ريشتك. ومشورتك تجتذبني. أرى نفسي! لقد تلقيت القوة منك. "فإن حبك قد وصل إلينا." [88]

يختتم الخطاب عندما يطلب المعلم من الطالب كتابة تجاربه في كتاب (من المفترض أن يكون الخطاب نفسه) لتوجيه الآخرين الذين سوف "يتقدمون على مراحل، ويدخلون في طريق الخلود".
... إلى فهم الثامن الذي يكشف التاسع." [89]

هناك نص استثنائي آخر، يسمى *Allogenes*، والذي يعني "الغريب" (حرفيًا، "الشخص من جنس آخر")، في إشارة إلى الشخص الناضج روحياً الذي يصبح "غريبًا" عن العالم، ويصف أيضًا مراحل بلوغ الغنوص. هنا يتعلم Messos، المتأهل، في المرحلة الأولى، عن "القوة التي بداخلك". يشرح له Allogenes عملية تطوره الروحي:

. . . لقد انزعجت كثيراً، ولجأت إلى نفسي. (بعد أن) رأيت
النور الذي (أحاط بي) والخير الذي كان في داخلي، أصبحت إلهيًا.[90]

ثم، يواصل Allogenes، أنه تلقى رؤية عن قوة أنثوية، يوئيل، "التي تنتمي إلى كل الأمجاد"،[91] التي قالت له:

. . . "وبعد أن اكتمل تعليمك، وعرفت الخير الذي في داخلك، فاسمع عن القوة الثلاثية تلك الأمور التي ستحفظها في صمت عظيم وسر عظيم" [92]

إن هذه القوة، على نحو متناقض، صامتة، على الرغم من أنها تنطق بالصوت: 93 zza zza zza وهذا، مثل الترنيم في الخطاب، يشير إلى تقنية تأملية تتضمن ترنيم الصوت.

بعد أن اكتشف أولاً "الخير... بداخلي"، تقدم Allogenes إلى المرحلة الثانية - لمعرفة الذات.

(ثم دعوت أن يأتيني الكشف لي...) لم أيأس... فأعددت نفسي فيها، وتشاورت مع نفسي مائة عام. وفرحتُ فرحًا عظيمًا، إذ كنتُ في نورٍ عظيمٍ وطريقٍ مباركٍ [94]

بعد ذلك، يقول Allogenes ، إنه خاض تجربة خارج الجسد، ورأى "قوى مقدسة" قدمت له تعليمات محددة:

. . . "يا Allogenes، انظر إلى سعادتك... في الصمت، حيث تعرف نفسك كما أنت، وتبحث عن نفسك، وتصعد إلى الحيوية التي سترى أنها تتحرك. وإن لم يكن بوسعك أن تقف فلا تخف شيئًا، بل

> إذا أردت أن تقف فاصعد إلى الوجود، وسوف تجده واقفًا ساكنًا... وعندما تتلقى وحيًا... وتصبح خائفًا في ذلك المكان، انسحب بسبب الطاقات. وعندما تصبح كاملاً في ذلك المكان، اهدأ. [95]

هل يُعقل أن يُلقى هذا الخطاب الصادر عن "القوى المقدسة" في عرض درامي يؤديه أعضاء الطائفة الغنوصية للمتأهلين في سياق التعليم الطقسي؟ لا يذكر النص ذلك، على الرغم من أن المرشح يواصل وصف إجابته:

> والآن كنت أستمع إلى هذه الأشياء كما قالها الحاضرون. كان هناك صمتٌ عميقٌ في داخلي، وسمعت النعمة التي عرفت بها نفسي كما أنا. [96]

وبعد اتباع التعليمات، يقول المتأهل إنه امتلأ بـ "الوحي ..." لقد حصلت على القوة... لقد عرفت الواحد الذي فيّ، والقوة الثلاثية، وكشف عن عدم قدرته على الاحتواء." [97] ومنتشيًا بهذا الاكتشاف، يرغب Allogenes في الذهاب إلى أبعد من ذلك: "كنت أبحث عن الإله الذي لا يوصف ولا يعرفه أحد". [98] ولكن في هذه المرحلة تطلب "القوى" من Allogenes التوقف عن محاولته الفاشلة.

على عكس العديد من المصادر الغنوصية الأخرى، يعلمنا *Allogenes* أنه، أولاً، يمكن للإنسان أن يعرف "الخير الذي في الداخل"، وثانياً، أن يعرف نفسه و"الذي يوجد في الداخل"، لكن لا يمكنه أن يصل إلى معرفة الإله المجهول. إن أية محاولة للقيام بذلك، لفهم ما لا يمكن فهمه، تعيق "الجهد السهل الذي بداخلك". وبدلاً من ذلك، يجب على المتأهل أن يكتفي بسماع معلومات عن الله "وفقًا للقدرة التي يوفرها الوحي الأولي". [99] إن تجربة الإنسان ومعرفته الشخصية، والتي تعتبر أساسية للتطور الروحي، توفر الأساس لتلقي الفهم عن الله في شكل سلبي. يتضمن الغنوص في النهاية الاعتراف بحدود المعرفة البشرية:

> ". . . من رأى الله كما هو في كل شيء، أو قال إنه شيء من قبيل الغنوص، فقد أخطأ في حق نفسه... لأنه لم يعرف الله." [100]

أمرته السلطات "بعدم البحث عن أي شيء آخر، بل الذهاب ..." "ليس من المناسب قضاء المزيد من الوقت في البحث." [101] يقول Allogenes أنه كتب هذا "من أجل أولئك الذين سوف يستحقون". [102] يشير العرض التفصيلي لتجربة المتأهل، بما في ذلك أقسام الصلوات والترانيم والتعليمات، التي تخللتها انسحابه إلى التأمل، إلى أن النص يسجل تقنيات فعلية للتأهيل في تحقيق تلك المعرفة الذاتية التي هي معرفة القوة الإلهية في الداخل.

لكن الكثير من التعاليم الغنوصية حول الانضباط الروحي ظلت، من حيث المبدأ، غير مكتوبة. فكل شخص يستطيع أن يقرأ ما هو مكتوب، حتى أولئك الذين ليسوا "ناضجين". كان المعلمون الغنوصيون يحتفظون عادةً بتعليماتهم السرية، ولا يشاركونها إلا شفهيًا، لضمان ملاءمة كل مرشح لتلقيها. تطلبت هذه التعليمات من كل معلم أن يتحمل مسؤولية الاهتمام الفردي الدقيق بكل مرشح. ويتطلب الأمر من المرشح، في المقابل، أن يكرس طاقته ووقته ـ في كثير من الأحيان سنوات ـ لهذه العملية. يقارن ترتليان بشكل ساخر بين تأهيل الفالنتينية وتأهيل أسرار إليوسيس، التي

> كانت في البداية تفرض على كل من يرغب في الانضمام إلى مجموعتهم ظروفًا معذبة؛ ويتطلب هذا التأهيل فترة طويلة من التأهيل قبل تسجيل أعضائها، وحتى التعليم لمدة خمس سنوات لطلابها المهرة، حتى يتمكنوا من تثقيف آرائهم من خلال تعليق المعرفة الكاملة، ويبدو أنهم يرفعون قيمة أسرارهم بما يتناسب مع الشوق إليها الذي خلقوه. ثم يأتي واجب الصمت... [103]

ومن الواضح أن مثل هذا البرنامج الانضباطي، مثل المستويات العليا من التعاليم البوذية، قد يجذب قلة قليلة فقط. على الرغم من أن المواضيع الرئيسية في التعاليم الغنوصية، مثل اكتشاف الذات الإلهية، قد لاقت استحسانًا كبيرًا لدى الكثيرين لدرجة أنها شكلت تهديدًا كبيرًا للعقيدة الكاثوليكية، إلا أن وجهات النظر الدينية وأساليب الغنوصية لم تكن مناسبة للدين الجماهيري. وفي هذا الصدد، لم يكن هذا النظام نداً للنظام التنظيمي الفعال للغاية للكنيسة الكاثوليكية، والذي عبر عن منظور ديني موحد قائم على قانون العهد الجديد، وقدم

عقيدة تتطلب من المتأهل الاعتراف فقط بأبسط أساسيات الإيمان، واحتفل بطقوس بسيطة وعميقة مثل المعمودية والقربان المقدس. إن الإطار الأساسي نفسه للعقيدة والطقوس والتنظيم يدعم جميع الكنائس المسيحية اليوم تقريبًا، سواء كانت كاثوليكية أو أرثوذكسية أو بروتستانتية. وبدون هذه العناصر، لا يمكننا أن نتصور كيف كان الإيمان المسيحي ليتمكن من البقاء وجذب ملايين الأتباع في جميع أنحاء العالم، على مدى عشرين قرناً. فالأفكار وحدها لا تجعل الدين قوياً، رغم أنه لا يمكن أن ينجح بدونها؛ ومن المهم بنفس القدر الهياكل الاجتماعية والسياسية التي تحدد الناس وتوحدهم في انتماء مشترك.

الخلاصة

إن الفائزين هم من يكتبون التاريخ - بطريقتهم الخاصة. وليس من العجيب إذن أن تهيمن وجهة نظر الأغلبية الناجحة على كل الروايات التقليدية عن أصل المسيحية. لقد قام المسيحيون الكنسيون أولاً بتعريف المصطلحات (فسموا أنفسهم "أرثوذكسيين" ومعارضيهم "زنادقة")؛ ثم شرعوا في إثبات - على الأقل لرضاهم - أن انتصارهم كان حتميا تاريخيا، أو، من الناحية الدينية، "بتوجيه من الروح القدس".

لكن الاكتشافات في نجع حمادي أعادت فتح أسئلة جوهرية. وهم يشيرون إلى أن المسيحية ربما تطورت في اتجاهات مختلفة للغاية، أو أن المسيحية كما نعرفها ربما لم تنجو على الإطلاق. ولو ظلت المسيحية متعددة الأشكال، فمن الممكن أن تختفي من التاريخ، إلى جانب العشرات من الطوائف الدينية المنافسة في العصور القديمة. أعتقد أننا مدينون ببقاء التقاليد المسيحية إلى البنية التنظيمية واللاهوتية التي طورتها الكنيسة الناشئة. أي شخص ينجذب بقوة إلى المسيحية مثلي سوف يعتبر ذلك إنجازًا كبيرًا. لا داعي لأن نتفاجأ إذن،

أن الأفكار الدينية المضمنة في العقيدة (من "أؤمن بإله واحد"، الذي هو "الآب القدير"، وتجسد المسيح وموته وقيامته الجسدية "في اليوم الثالث"، إلى الإيمان بـ "الكنيسة المقدسة والجامعة والرسولية") تتوافق مع القضايا الاجتماعية والسياسية في تشكيل المسيحية الأرثوذكسية.

وعلاوة على ذلك، بما أن المؤرخين أنفسهم يميلون إلى أن يكونوا مثقفين، فليس من المستغرب مرة أخرى أن يفسر معظمهم الخلاف بين المسيحيين الأرثوذكس والغنوصيين من حيث "تاريخ الأفكار"، كما لو كانت الأفكار، التي يُفترض أنها المحرك الأساسي للفعل البشري، تتصارع (على الأرجح في حالة غير مجسدة) من أجل التفوق. وهكذا اشتكى ترتليان، وهو رجل ذكي للغاية، مولع بالفكر المجرد، من أن "الزنادقة والفلاسفة" يهتمون بنفس الأسئلة. ويقول إن "الأسئلة التي تجعل الناس زنادقة"[1] هي التالية: من أين جاءت الإنسانية، وكيف؟ من أين يأتي الشر، ولماذا؟ يصر ترتليان (على الأقل قبل انفصاله العنيف عن الكنيسة) على أن الكنيسة الكاثوليكية سادت لأنها قدمت إجابات "أكثر صدقًا" على هذه الأسئلة.

ومع ذلك فإن غالبية المسيحيين، الغنوصيين والأرثوذكس، مثل رجال الدين من كل التقاليد، اهتموا بالأفكار في المقام الأول باعتبارها تعبيرات أو رموزًا للتجربة الدينية. وتظل هذه التجربة هي المصدر وأرض الاختبار لجميع الأفكار الدينية (على سبيل المثال، من المرجح أن يختبر الرجل والمرأة بشكل مختلف فكرة أن الله ذكر). إن الغنوصية والأرثوذكسية، إذن، عبرتا عن أنواع مختلفة للغاية من التجارب الإنسانية؛ وأظن أنهما جذبتا أنواعًا مختلفة من الأشخاص.

فعندما تساءل المسيحيون الغنوصيون عن أصل الشر، لم يفسروا المصطلح، كما نفعل نحن، في المقام الأول من حيث الشر الأخلاقي. إن المصطلح اليوناني *kakia* (مثل المصطلح الإنجليزي "المرض") يعني في الأصل "ما هو سيئ" - ما يرغب المرء في تجنبه، مثل الألم الجسدي، والمرض، والمعاناة، وسوء الحظ، وكل أنواع الأذى. وعندما سأل أتباع فالانتينوس عن مصدر *kakia*، أشاروا بشكل خاص إلى الأذى العاطفي-

الخوف، الارتباك، الحزن. وفقًا لإنجيل الحقيقة، تبدأ عملية اكتشاف الذات عندما يجرب الشخص "القلق والرعب"[2] للحالة الإنسانية، كما لو كان ضائعًا في الضباب أو مسكونًا في النوم بكوابيس مرعبة. إن أسطورة فالانتينوس عن أصل البشرية، كما رأينا، تصف توقع الموت والدمار باعتباره البداية التجريبية للبحث الغنوصي. "يقولون إن كل ما هو مادي قد تشكل من ثلاث تجارب (أو معاناة): الرعب، والألم، والارتباك (*aporia*؛ حرفيًا، "عدم وجود طريق"، عدم معرفة إلى أين تذهب]." [3]

وبما أن مثل هذه التجارب، وخاصة الخوف من الموت والتحلل، تقع في المقام الأول في الجسد، فقد كان الغنوصي يميل إلى عدم الثقة بالجسد، واعتباره المخرب الذي يوقعه حتما في المعاناة. هل كان الغنوصي يثق بالقوى العمياء السائدة في الكون؟ ففي نهاية المطاف، هذه هي القوى التي تشكل الجسد. ما الذي يمكن أن يجلب التحرر؟ توصل الغنوصيون إلى قناعة مفادها أن السبيل الوحيد للخروج من المعاناة هو إدراك الحقيقة حول مكانة البشرية ومصيرها في الكون. مقتنعًا بأن الإجابات الوحيدة يمكن العثور عليها في الداخل، انخرط الغنوصي في رحلة داخلية شديدة الخصوصية.

من يأتي ليجرب طبيعته الخاصة - الطبيعة البشرية - باعتبارها "مصدر كل الأشياء"، الحقيقة الأساسية، سوف يتلقى التنوير. بعد أن أدرك الغنوصي جوهر ذاته، أي الوجود الإلهي في داخله، ضحك فرحًا عندما تحرر من القيود الخارجية ليحتفل بتعريفه بالكائن الإلهي:

> "إن إنجيل الحق هو فرح للذين نالوا من أبي الحق نعمة معرفته..." لأنه اكتشفهم في نفسه، واكتشفوه في أنفسهم، الذي لا يُدرك ولا يحاط به، الآب، الكامل، الذي خلق كل الأشياء. [4]

وفي هذه العملية، احتفل الغنوصيون - وقال معارضوهم إنهم بالغوا إلى حد كبير - بعظمة الطبيعة البشرية. لقد تبين أن الإنسانية نفسها، في وجودها البدائي، هي "الإله فوق كل شيء". الفيلسوف أفلوطين، الذي وافق على رأي

أستاذه أفلاطون، الذي يرى أن الكون مخلوق إلهيًا وأن الذكاءات غير البشرية، بما في ذلك النجوم، تشترك في الروح الخالدة،[5] انتقد الغنوصيين لأنهم "يعتقدون جيدًا بأنفسهم، وسوءًا جدًا في الكون". [6]

وعلى الرغم من أن الغنوصية، كما ذكر الباحث البريطاني الكبير آرثر داربي موك، "لا تنطوي على أي تراجع عن المجتمع، بل على رغبة في التركيز على الرفاهية الداخلية"،[7] إلا أن الغنوصي اتبع مسارًا منعزلًا في الأساس. بحسب إنجيل توما، يشيد يسوع بهذه العزلة: "طوبى للعزلة والمختارين، لأنكم ستجدون المملكة". "لأنكم منها وإليها ترجعوا" [8]

وتنبع هذه العزلة من إصرار الغنوصيين على أولوية التجربة المباشرة. لا يمكن لأحد أن يخبر شخصًا آخر بأي طريق يجب أن يسلك، وماذا يفعل، وكيف يتصرف. لا يستطيع الغنوصي أن يقبل بالإيمان ما قاله الآخرون، إلا كإجراء مؤقت، حتى يجد طريقه الخاص، "الأن"، كما يقول المعلم الغنوصي هرقليون، "يُقاد الناس في البداية إلى الإيمان بالمخلص من خلال الآخرين"، ولكن عندما ينضجون "لم يعودوا يعتمدون على الشهادة البشرية المجردة"، ولكن بدلاً من ذلك يكتشفون علاقتهم المباشرة بـ "الحقيقة نفسها". [9] من يتبع شهادة الآخرين - حتى شهادة الرسل والكتاب المقدس - يمكن أن ينال التوبيخ الذي وجهه يسوع لتلاميذه عندما اقتبسوا له الأنبياء: "تجاهلتم الحي الذي بين أيديكم وتكلمتم عن الأموات فقط". [10] لا يمكن للمرء أن يخلق القصائد، وروايات الرؤى، والأساطير، والترانيم التي اعتبرها الغنوصيون دليلاً على أن المرء قد بلغ الغنوص بالفعل إلا على أساس الخبرة المباشرة.

وبالمقارنة مع هذا الإنجاز، فإن كل الإنجازات الأخرى تسقط. إذا كان "الكثيرون" - الناس غير المستنيرين - يعتقدون أنهم سيجدون الرضا في الحياة الأسرية، أو العلاقات الجنسية، أو الأعمال، أو السياسة، أو العمل العادي، أو الترفيه، فقد رفض الغنوصي هذا الاعتقاد باعتباره وهمًا. رفض بعض المتطرفين جميع المعاملات التي تنطوي على الجنس أو المال: وزعموا أن من يرفض الجماع والمال "يظهر أنه من جيل (ابن الإنسان)". [11] والبعض الآخر، مثل الفالنتينيين،

تزوجوا وأنجبوا أطفالاً وعملوا في وظائف عادية، ولكن مثل البوذيين المتدينين، اعتبروا كل هذا ثانوياً بالنسبة للمسار الداخلي المنعزل للغنوصية.

ومن ناحية أخرى، عبرت المسيحية الأرثوذكسية عن نوع مختلف من التجربة. كان المسيحيون الأرثوذكس مهتمين بعلاقاتهم مع الآخرين أكثر بكثير من الغنوصيين. إذا كان الغنوصيون يصرون على أن التجربة الأصلية للبشرية مع الشر تنطوي على ضائقة عاطفية داخلية، فإن الأرثوذكس خالفوا هذا الرأي. واستذكروا قصة آدم وحواء، وأوضحوا أن البشرية اكتشفت الشر في انتهاك الإنسان للنظام الطبيعي، الذي هو في جوهره "خير". فسر الأرثوذكس الشر (*kakia*) في المقام الأول من حيث العنف ضد الآخرين (ومن ثم إعطاء الدلالة الأخلاقية للمصطلح). لقد قاموا بمراجعة قانون موسى، الذي يحظر الاعتداء الجسدي على الآخرين - القتل، والسرقة، والزنا - في ضوء حظر يسوع حتى للعنف العقلي والعاطفي - الغضب، والشهوة، والكراهية.

يتفق المسيحيون الأرثوذكس على أن المعاناة الإنسانية تنبع من خطأ الإنسان، ويؤكدون على النظام الطبيعي. تُشكل سهول الأرض وصحاريها وبحارها وجبالها ونجومها وأشجارها موطنًا مناسبًا للبشرية. وكجزء من هذا الخلق "الجيد"، اعترف الأرثوذكس بعمليات البيولوجيا البشرية: فقد كانوا يميلون إلى الثقة والتأكيد على الجنس (على الأقل في الزواج)، والإنجاب، والتطور البشري. لم ينظر المسيحي الأرثوذكسي إلى المسيح باعتباره من يقود النفوس خارج هذا العالم إلى التنوير، بل باعتباره "ملء الله" الذي نزل إلى التجربة الإنسانية - إلى التجربة الجسدية - لتقديسها. ويصرح إيرينيئوس بأن المسيح

> لم يحتقر أو يتهرب من أي حالة من حالات الإنسانية، ولم يستبعد لنفسه الشريعة التي وضعها للجنس البشري، بل قدس كل عصر... "الذلك فهو يمر بكل عصر، فيصبح طفلاً للأطفال، فيقدس بذلك الأطفال؛ طفلاً للأطفال، فيقدس بذلك من هم في هذا العمر... شاباً للشباب... ولأنه كان شيخاً لكبار السن... في الوقت نفسه يقدس الشيوخ أيضاً... ثم أخيراً، جاء إلى الموت نفسه." [12]

وللحفاظ على اتساق نظريته، راجع إيرينيئوس التقليد الشائع القائل بأن يسوع مات في الثلاثينيات من عمره: لئلا تظل الشيخوخة غير مقدسة بمشاركة المسيح، جادل إيرينيئوس بأن يسوع كان عمره أكثر من خمسين عامًا عندما مات. [13]

ولكن ليست قصة المسيح وحدها هي التي تجعل الحياة العادية مقدسة. طورت الكنيسة الأرثوذكسية تدريجيًا طقوسًا لإقرار الأحداث الرئيسية للوجود البيولوجي: مشاركة الطعام في القربان المقدس؛ والجنس في الزواج؛ والولادة في المعمودية؛ والمرض في المسحة؛ والموت في الجنازات. إن الترتيبات الاجتماعية التي احتفلت بها هذه الأحداث، في المجتمعات، وفي الأسرة، وفي الحياة الاجتماعية، كانت تحمل، بالنسبة للمؤمن الأرثوذكسي، مسؤوليات أخلاقية بالغة الأهمية. كان المؤمن يسمع قادة الكنيسة يحذرون باستمرار من الوقوع في الخطيئة في أكثر شؤون الحياة العملية: الغش في العمل، والكذب على الزوج، واستبداد الأطفال أو العبيد، وتجاهل الفقراء. حتى منتقديهم الوثنيين لاحظوا أن المسيحيين ناشدوا المحتاجين من خلال تخفيف اثنين من أهم مخاوفهم: قدم المسيحيون الطعام للفقراء، ودفنوا الموتى.

في حين رأى الغنوصي نفسه "واحدًا من ألف، واثنين من عشرة آلاف"،[14] رأى الأرثوذكسي نفسه كعضو واحد في العائلة البشرية المشتركة، وكعضو واحد في كنيسة عالمية. وفقًا للبروفيسور هيلموت كوستر، فإن "اختبار الأرثوذكسية هو ما إذا كانت قادرة على بناء كنيسة بدلاً من نادٍ أو مدرسة أو طائفة، أو مجرد سلسلة من الأفراد الدينيين المهتمين". [15] أوريجانوس، أعظم علماء اللاهوت في القرن الثالث، عبّر، على الرغم من أنه كان موضع شك في الزندقة، عن وجهة النظر الأرثوذكسية عندما أعلن أن الله لم يكن ليقدم طريقًا للخلاص لا يمكن الوصول إليه إلا من قبل النخبة الفكرية أو الروحية. واتفق على أن ما تعلمه الكنيسة يجب أن يكون بسيطًا، ومتفقًا عليه، وفي متناول الجميع. يعلن إيرينيئوس أنه

> كما أن الشمس، ذلك المخلوق من الله، هي واحدة ونفس الشيء في كل أنحاء العالم، كذلك فإن العظة بالحق تشرق في كل مكان، وتنير كل الناس الراغبين... فهل يستطيع أي من حكام الكنائس،

مهما بلغت موهبته في البلاغة، أن يعلم عقائد مختلفة عن هذه؟ [16]

شجع إيرينيئوس مجتمعه على التمتع بالأمان الناتج عن الاعتقاد بأن إيمانهم يرتكز على السلطة المطلقة: الكتاب المقدس المعتمد قانونيًا، والعقيدة، وطقوس الكنيسة، والتسلسل الهرمي الكنسي.

إذا عدنا إلى أقدم المصادر المعروفة للتقاليد المسيحية - أقوال يسوع (على الرغم من اختلاف العلماء حول مسألة أي الأقوال هي الأصيلة حقًا)، يمكننا أن نرى كيف يمكن للأشكال الغنوصية والأرثوذكسية للمسيحية أن تظهر كتفسيرات مختلفة لتعاليم المسيح وأهميته. إن من ينجذبون إلى العزلة سيلاحظون أن إنجيل لوقا في العهد الجديد يتضمن قول يسوع: "من لا يكره أباه وأمه وزوجته وأولاده وإخوته وأخواته، بل حتى نفسه، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً". [17] وطالب أولئك الذين يتبعونه بالتخلي عن كل شيء - العائلة، المنزل، الأطفال، العمل العادي، الثروة - للانضمام إليه. وكان هو نفسه، كنموذج أولي، رجلاً بلا مأوى يرفض عائلته، ويتجنب الزواج والحياة الأسرية، متجولاً غامضاً يصر على الحقيقة بأي ثمن، حتى لو كان الثمن حياته. يروي مرقس أن يسوع أخفى تعليمه عن الجماهير، ولم يأتمنه إلا على القلائل الذين اعتبرهم مستحقين لتلقيها. [18]

ومع ذلك، فإن أناجيل العهد الجديد تقدم أيضًا روايات قابلة لتفسير مختلف تمامًا. لقد بارك يسوع الزواج وأعلنه حرمة لا يجوز انتهاكها؛[19] كما رحب بالأطفال الذين أحاطوا به؛[20] واستجاب بالرحمة لأكثر أشكال المعاناة الإنسانية شيوعًا،[21] مثل الحمى والعمى والشلل والمرض العقلي، وبكى[22] عندما أدرك أن شعبه رفضه. لاحظ ويليام بليك اختلاف صور يسوع في العهد الجديد، فانحاز إلى الصورة التي فضّلها الغنوصيون ضد "رؤية المسيح التي يراها جميع البشر":

> "إن رؤية المسيح التي تراها هي العدو الأعمق لرؤيتي..."

أنت صديق البشرية جمعاء، صديقي يتحدث بالأمثال
إلى العميان:
"إن حبك للعالم هو نفس العالم الذي أكرهه، وأبواب جنتك هي
أبواب جحيمي..."
كلاهما يقرأ الكتاب المقدس ليلًا ونهارًا
"لكنك تقرأ باللون الأسود حيث أقرأ باللون الأبيض..." عندما
رأيت هذا المسيح الكاذب، بغضب وعاطفة، جعلت صوتي
مسموعًا في جميع أنحاء الأمة. [23]

ومع ذلك، كتب ميتشه، الذي كان يكره ما عرفه بالمسيحية: "لم يكن هناك سوى مسيحي واحد، وقد مات على الصليب". [24] ينسب دوستويفسكي في رواية الإخوة كارامازوف إلى إيفان رؤية للمسيح الذي رفضته الكنيسة، المسيح الذي "رغب في حب الإنسان الحر، حتى يتبعه، [25] مختارًا حقيقة ضميره على الرفاهة المادية، والموافقة الاجتماعية، واليقين الديني". مثل مؤلف الرسالة الثانية لسيث العظيم، ندد إيفان بالكنيسة الأرثوذكسية لإغواء الناس بعيدًا عن "حقيقة حريتهم". [26]

يمكننا أن نرى، إذن، كيف نشأت الصراعات في تشكيل المسيحية بين هؤلاء الناس القلقين، المستفسرين الذين رسموا طريقًا وحيدًا لاكتشاف الذات والإطار المؤسسي الذي أعطى للغالبية العظمى من الناس الموافقة الدينية والتوجيه الأخلاقي لحياتهم اليومية. ومن خلال تكييف نموذج التنظيم السياسي والعسكري الروماني لأغراضها الخاصة، وحصولها على الدعم الإمبراطوري في القرن الرابع، أصبحت المسيحية الأرثوذكسية أكثر استقرارًا واستمرارًا. لقد ثبت أن المسيحية الغنوصية لا تضاهي الإيمان الأرثوذكسي، سواء من حيث الجاذبية الشعبية الواسعة التي تتمتع بها الأرثوذكسية، أو ما أسماه موك "التوافق التام اللاواعي مع احتياجات وتطلعات البشرية العادية"،[27] أو من حيث تنظيمها الفعال. لقد ضمن كلاهما بقاءه عبر الزمن. لكن عملية إرساء العقيدة الأرثوذكسية استبعدت كل الخيارات الأخرى. لقد أدى هذا إلى إفقار التقاليد المسيحية، وإجبار الغنوصية، التي كانت تقدم بدائل لما أصبح المحور الرئيسي للأرثوذكسية المسيحية، على الخروج.

لقد بقيت هموم المسيحيين الغنوصيين مجرد تيار مكبوت، مثل نهر يتدفق تحت الأرض. وقد عادت مثل هذه التيارات إلى الظهور طوال العصور الوسطى في أشكال مختلفة من الزندقة؛ ثم مع الإصلاح الديني، اتخذت التقاليد المسيحية أشكالاً جديدة ومتنوعة. إن الصوفيين مثل يعقوب بوهمه، الذي اتهم بالزندقة، وأصحاب الرؤى المتطرفة مثل جورج فوكس، الذين ربما لم يكونوا على دراية بالتقاليد الغنوصية، قد صاغوا مع ذلك تفسيرات مماثلة للتجربة الدينية. ولكن الغالبية العظمى من الحركات التي نشأت عن الإصلاح - المعمدانية، والخمسينية، والميثودية، والأسقفية، والتجمعية، والمشيخية، والكويكرز - ظلت ضمن الإطار الأساسي للأرثوذكسية التي تأسست في القرن الثاني. اعتبر الجميع أن كتابات العهد الجديد وحدها هي المرجع الرسمي؛ وقبل معظمهم العقيدة الأرثوذكسية واحتفظوا بالأسرار المسيحية، حتى عندما غيروا شكلها وتفسيرها.

والآن، بعد أن منحتنا اكتشافات نجع حمادي منظورًا جديدًا لهذه العملية، يمكننا أن نفهم لماذا وجد بعض المبدعين عبر العصور، من فالانتينوس وهرقليون إلى بليك ورامبرانت ودوستويفسكي وتولستوي وميتشه، أنفسهم على هامش العقيدة الأرثوذكسية. لقد انبهر الجميع بشخصية المسيح - ميلاده، حياته، تعاليمه، موته، وقيامته: وكان الجميع يعودون باستمرار إلى الرموز المسيحية للتعبير عن تجربتهم الخاصة. ومع ذلك وجدوا أنفسهم في ثورة ضد المؤسسات الأرثوذكسية. يشارك عدد متزايد من الأشخاص اليوم تجاربهم. لا يمكنهم الاعتماد فقط على سلطة الكتاب المقدس، أو الرسل، أو الكنيسة - على الأقل ليس دون الاستفسار عن كيفية تشكل هذه السلطة، وما الذي يمنحها الشرعية، إن وجد. إن كل الأسئلة القديمة - الأسئلة الأصلية التي نوقشت بحدة في بداية المسيحية - يتم إعادة فتحها الآن: كيف نفهم القيامة؟ ماذا عن مشاركة المرأة في المناصب الكهنوتية والأسقفية؟ من هو المسيح، وكيف يتعامل مع المؤمن؟ ما هي أوجه التشابه بين المسيحية والأديان العالمية الأخرى؟

إن حقيقة أنني خصصت الكثير من هذه المناقشة للغنوصية

لا تعني، كما قد يفترض القارئ العادي، أنني أدعو إلى العودة إلى الغنوصية - ناهيك عن أنني "أقف إلى جانبها" ضد المسيحية الأرثوذكسية. وباعتباري مؤرخًة، أجد الاكتشافات في نجع حمادي مثيرة للاهتمام إلى حد كبير، لأن الأدلة التي تقدمها تفتح منظورًا جديدًا لفهم ما يثير اهتمامي أكثر من غيره - تاريخ المسيحية. ولكن مهمة المؤرخ، كما أفهمها، ليست الدفاع عن أي جانب، بل استكشاف الأدلة ــ في هذه الحالة، محاولة اكتشاف كيفية نشأة المسيحية. وعلاوة على ذلك، وباعتباري شخصًا مهتمًا بالمسائل الدينية، أجد أن إعادة اكتشاف الخلافات التي شغلت المسيحية المبكرة تعمل على شحذ وعينا بالقضية الرئيسية في النقاش بأكمله، آنذاك والآن: ما هو مصدر السلطة الدينية؟ بالنسبة للمسيحي، يأخذ السؤال شكلًا أكثر تحديدًا: ما هي العلاقة بين سلطة تجربة الشخص الخاصة والسلطة التي يدعيها الكتاب المقدس والطقوس ورجال الدين؟

عندما حطم محمد علي الجرة المملوءة بالبردي على الجرف بالقرب من نجع حمادي، وأصيب بخيبة أمل لعدم العثور على الذهب، لم يكن يستطيع أن يتخيل عواقب اكتشافه العرضي. ولو تم اكتشافها قبل ألف عام، فمن المؤكد تقريبًا أنه كان من الممكن إحراق النصوص الغنوصية بسبب هرطقتها. ولكنها ظلت مخفية حتى القرن العشرين، عندما أعطتنا تجربتنا الثقافية منظورًا جديدًا للقضايا التي تثيرها. واليوم نقرأها بعيون مختلفة، ليس باعتبارها مجرد "جنون وتجديف"، بل كما عاشها المسيحيون في القرون الأولى ــ بديل قوي لما نعرفه بالتقاليد المسيحية الأرثوذكسية. والآن فقط بدأنا نفكر في الأسئلة التي تواجهنا.

ملاحظا
ت

Motes

ملاحظا
ت

Motes

نبذة عن المؤلف

بعد حصولها على الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1970 درّست إيلين باجلز في كلية بارنارد، حيث ترأست قسم الدين، وفي جامعة كولومبيا. وهي حاليًا أستاذة كرسي هارينغتون سبير باين للدين في جامعة برينستون. شاركت البروفيسورة باجلز مع باحثين آخرين في تحرير العديد من نصوص ماج حمادي، وألّفت ثلاثة كتب أخرى، هي: "إنجيل يوحنا في التفسير الغنوصي"، و"بولس الغنوصي: التفسير الغنوصي لرسائل بولس"، ومؤخرًا، "آدم وحواء والثّعبان". حاز كتاب "الأناجيل الغنوصية" على جائزة دائرة نقاد الكتب الوطنية وجائزة الكتاب الوطنية عام ١٣٨٠. وفي عام 1981 مُنحت زمالة جائزة ماك آرثر. تعيش في مدينة نيويورك. .

ملاحظا
ت

REVELATION

fiting from the discovery in 1945 of a collection of Gnostic Christian texts at Nag Hammadi in Egypt."

In 1945 an Egyptian peasant unearthed what proved to be the Gnostic Gospels, the sacred books of one of the earliest Christian sects. This landmark study, a winner of both the National Book Award and the National Book Critics Circle Award, draws on those texts to illuminate the world of the first Christians and to examine the different ways in which both Gnostics and the orthodox constructed God, Christ, and the Church. Did Jesus literally rise from the dead? Was there only one God, and could He be both Father *and* Mother? Whose version of Christianity came down to us and why did it prevail? Brilliant, pzovoc‹ative, and e€u*imfn/]n its i np icatione, Joe Cinwsño Gioa;mr/a- is a mdioal yet accessible rocc›risicIoraticm nI tins cirigiris

.I•iA of the Ch idea

« inatn<ts o a novo st #o ski) la aQe j vñtes wit]" sc)io)ar, and the ability to cart c›ui- significancoa that many writers lack."

—Martin E. Marty, *Chicago Tribune*

"Pagels sets forth [gnosticism's] principles with a concise clarity....Her evocation of the world of the church fathers is a marvel."

—*Boston Globe*

ISBN 0-B79-724S3-2

Cover art: Engraving, *The Crucifixion of Jesus Between Two Thieves*, by Johan Holbein,

9 780679 724537

Cover design: David Tran